علاء حامد

مسافة في عقل رجل

مسافة
في
عقل رجل

هدى حامد

الاهـــداء

لكل من احبنى واحببته ...

ما اتمنـــاه ان لا يتحـول هذا الحب الى غضـــب ! !

فما كتبتـــه ليس ســـوى قصـــة امتـزج فيهـــا فيض

الخيـــال بنبض الفؤ ـــاد . . . . . .

عـــلاء حامـــد

تقـــــديم

من انـــا .... ؟ !

اسم فى توائم المنتظرين .. مســـلم بالميراث .. لو ولدت من صلب ملحد لأصـــبحت مثله .. فلا اختيار للانســـان فى مولده ولا فى دينه .. قد يكون ابوه من اســـافل القوم أو اعاليها وقد تكون امه عاهر أو فاضـــله .. وقد يولد لأب مجوسى وأم هندوســـية .. أمور كلها لا اختيار له فيهـا .. تماما كالتصاق الصـــفات الوراثية بالجنين والتى لا يد له فيها .. فالانسان لا يختار عقيدته وقت ولادته ليس لانعدام الاختيار لديه .. بل لانتقاصـــه ذلك أنه فى لحظة ولادته لم تكن وســـائل الاختيار لديه قد اكتملت .. من ادراك ومعرفة وحتى بعد أن يصل الانسان لمرحلة الادراك والمعرفة والتمييز نادرا ما يفكر فى تغيير عقيدته ذلك لأنه حتى نكفل له مثل هذا الحق لابد أن تكون البدائل لديه مفهومة ومعروفة يستطيع من خلالها أن يوازن بين الأمور لينحاز فى النهاية لأى من العقائد .. وهذا نادرا ما يحدث .. ثم لماذا يغير الانسان عقيدته وقد فقد اهتمامه بالدين كمنهاج فى الحياة ؟ ..

ان الأديان بدأت تتقلص تقلصـــا سريعا عن كثير من البلدان حتى انه لم يعد يدين بالأديان ســـوى ثلث سكان العالم .. أى أن ثلثى سكان العالم حسب احدث نظرية فقهية من النار مآلهم جهنم خالدين فيها ابدا ! ..

وحتى فى مساحة الثلث الضيقة لم يتبق من الدين فى غالب الأحـــوال سوى ملء فراغ كلمة الديانة بالبطاقة أو جواز السفر .. وهذا ما حدا بكثير من العقلانيين التساؤل عن جدوى الأديان .. خاصـــة وقد سنت القوانين لحماية نواهى حرمتها الأديان ففى انجلترا نص قانون يبيح زواج الرجل من رجل .. بل ويكفل لهما الحقوق المترتبة على مثل هذا الزواج . وهو واحد من المعاصى التى اجمعت الأديان على تحريمها .. واباحة المعاشرة الرضائية بين رجل وامرأة بالغين والذى تعتبره الأديان زنا وفســـق وفجور وتعاقب

عليه بالقتل والرجم .. هذا الفســـق والفجـــور تحميه الآن معظم الشرائع الوضعية .. بل وتحتضن فكرته كثير من المجتمعات دون ادنى حرج والفائدة احدى دعامات غالبية النظم الاقتصـــادية تعتبرها الأديان ربا وربا فاحش وما يقال عن الفائدة ينطبق على الخمور فدول كثيرة تعلو عمائرها بيوت الله تقيم مصانع لانتاج وتعبئة وتوزيع الخمور .. والمواخير البشرية والمواخير السياســية ومعاقرة الفساد والافســـاد والثراء الفاحش الذى يقابلة الفقر المدقع .. والظلم المقنن .. والـــفالات التى أصبحت ســمة من ســمات الشرقيين .. هذا ما يدعونا للتساؤل .

ما جدوى الأديان وقد شـــحت للشرق الى أحضـــان التخلف .. بينما ارتفعت هامة شعوب لا تؤمن بالاديان لقمة الحضارة .. فهل يعنى ذلك أن الدين لم يعـــد منارا للحضـــارة وان غيـــابه لا يعنى بالضرورة انهيـــار الاخلاقيـــات .. ؟ !

هل يعنى ذلك انه يمكن الفصـــل بين الأخلاقيات والدين لذلك ونتيجة لهذا نرى شـــعوبا هجرت الاديان يتســـمون بالاخلاقيات .. وشعوبا تدمن الاديان بلا اخلاقيـــات .. وانقلب الحال فاصـــبح الدين ســـبة فى تواريخ الشـــعوب !! هل يعنى ذلك أنه يجب وضع الدين فى اطاره الصـــحيح وهو علاقة الانسان بربه فقط دون المعاملات الانسانية لأن الأديان لم تعد تصلح كمنهاج فى الحياة بعد ان حرمت فى كثير من نصوصها احاسيس المجتمعات نبضـــها عندما قضـــت بتحريم ممارســـة الفنون من رسم ونحت وتمثيل ورقص وغناء وموسيقى .. نأخذ من أحكامها ما يتسق والعصر .. ونرفض ما يخلف ذلك حتى ولو أدى الأمر بنا أن نرفضها جميعا !!

كل هذا من خلال سؤال .. اذا كانت أحكام الاديان تصلح لكل مكان وزمان فلماذا احجمت معظم المجتمعات عن الأخذ بها .. هـــل لغباء المشرع وقلة درايته أم لحكمته وحنكته ؟! لذلك فعندما يلح المتشـــككون عن الجدوى الانسانيـــة لتلك الأديان .. عندما يلحون فى طلب الاجابة عن تساؤلهم .. ما جدوى الاديان وقد تقننت كثير من البلدان المتعصبة لدينها قوانين وضعية

تخالف اســـاس العقيدة ؟! .

مثل هذا الالحاح لا يســـعنا اهماله بل يجب التصـــدى له فى محاولة عقلانية للحصول على اجابة مقنعة .. وهذا ما يجعلنا نتساءل ما هو الدين هل هو طريقة فى الحياة نؤمن بها ولا بديل فالبديل هوة سحيقة تهوى اليها الانسانيـــة ام عـــلاقة بين الانســـان وربه تحكمها اعتبارات ذاتية فى اوربا أصـــبح الدين مجرد علاقة خاصـــة بين الانسان وربة .. تقلص الدين بعد معارك جدلية شرسة وانحسرت امواجة عن قواقع مينة لا نسمع فيها سوى دقات اجراس الكنائس ايام الآحاد ولا نرى منها ســـوى شرذمة من العجزة ترتادها تنصت لموعظة بلا اقتناع ولا اقتناع .. هناك فى هذه البلاد المتحضرة اصبحت الاديان مجرد علاقة خاصة جدا بين الانسان وربة .. هذا اذا كانت موجودة اصلا .. وبالتالى اصبحت مجرد اطار .. شكل .. كلمة تكتب فى البطاقة اما اسلوب الحياة فمنفصل تماما يحدده المجتمع من خلال اعتبارات اخرى يستوحيها من اسباب الحضارة .

اما فى البـــلاد الشرقية فقد حـــدث مرج ومرج .. خلط ومزج .. والمضـــمون مبعثر .. هائم .. غامض يتعذر على العقول رؤيته من خـــلال غبار معركة فرسان الوهم .. لكن ما أدمنه الناس خلط بين مذهبين اسلوب فى الحياة .. وعلاقة بين الانسان وربة ..

وبالنسبة لاسيادنا المعممين اخوان شـــمهورش اصـــبح الدين فى حد ذاته هدفا يجنون من ورائه ثمرات المال والشـــهرة والســـلطة ومتع الدنيا ما ظهر منها وما بطن .. من أجله يعفرون الجبه .. يلطمون الخـــدود .. يشـــقون الجيـــوب .. بالقطع جيوب الفقراء !! وفى المقابل بلاد أخـــرى لا تعرف حتى معنى كلمة الله . وهذا ما يدفعنا للتســـاؤل هل الأديان شرعت من أجل الانسان .. أم ان الانسان خلق من أجل تطبيق شرائعها عليه .. بمعنى آخر هل فكرة الاديان سابقة على وجـــود الانســـان .. ازلية .. ابدية .. ومن ثم فقد وجد الانسان لينفذها .. بحيث تصبح هذه الاديان

سبب خلقه أم ان وجود الانسان سابق حتى على فكرة الاديان .. صيغة سنها الله لتحقيق سعادة للبشر .. بعبارة أخرى هل نحن خلقنا من أجل الدين أم ان الدين شرع من أجلنا .. بحيث يصبح الدين فى الحالة الأولى غاية ونحن الوسيلة .. وفى الثانية الدين وسيلتنا لتحقيق السعادة !! .

يرتبط بهذا تساؤل آخر .. لماذا تعددت الاديان والرسالات .. اذا كان الدين سابقا على وجود الانسان .. فهل كانت له صيغة واحدة آلهية تناولها البشر بالتعديل والتغيير فوصلت الينا كما هى الآن .. أم أن تلك الرسالات ليست سوى صيغ بشرية آمن بها أصحابها ثم تداولوها بدعوى انها آلهية ؟؟ وبالتالى يصبح منطقيا اختلافها باختلاف الداعين لها .. وعلى هذا فتصبح صلة الرسل بالله صلة افتراضية لا تدعمها حقيقة ولا يسندها برهان .. بمعنى آخر هل الاديان بنيت على اعتقاد الرسل الصادق بوجود صلة بينهم وبين الله مباشرة من خلال بعض احداث مرت بهم .. قد تكون قد مرت على غيرهم دون أن يعطيها هذه الدلالة .. اعتقدوا من خلالها ان الله قد اختارهم لحمل الرسالة ؟ .

امور كثيرة اختلفت فيها الرسالات اختلافا بينا فى أسس العقيدة وفى الأحكام .. حتى انه يمكن القول أن كل رسالة تنهج نهجا مختلفا عن الأخرى وآخرون يشككون فى كل هذه الرسالات ..

من هنا يقفز الى الساحة سؤالا خطيرا .. أين هى الحقيقة ؟ وأين هو الصواب ؟ وما هو الحق ؟ وما هو الباطل ؟! عقيدة ترتبط بفكرة الخلاص والزهد والتثليث والاخرى ترتبط بفكرة الجنة التى شغف الناس بالاستشهاد من أجلها والنار التى وقودها الناس والحجارة .. والتى سيطرت ملامحها فى العصور المتقدمة على كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس وتعاملاتهم اليومية وانبثق منها اقتناعهم بالبعد عن المعاصى .. وأصبحت المحور الرئيسى للمحظور والمباح .. ثم انحسر موجها بعد أن فقدت فلسفة الترغيب والترهيب والتى كان لها مفعول السحر فى تلك العصور المتقدمة ، ذلك انه اذا كان منطقيا ترغيب الأعرابى المتعطش للمال والجنس والطعام بالجنة التى تجرى من حولها وفوقها وتحتها الانهار !! بقطوفها الدانية

ونسائهـــا حور العين وخمرها المتقـــة .. لم تعد تلك الأمور تهز وجدان الانسان العصرى .. أو تجتذب حتى الانســـان العادى ليفعل الخير أو ينتهى عن الشر .. لم يعد كافيا لشحذ ايمانه الوعد بالجنة أو الاخافة من النار .. لأن تلك الجنة لم تعد تغريه ولا النار ترتعد منها فرائصه .. انما أصـــبح الحديث عن أى منهما فى احدى دور العبادة .. ومضة برق سرعان ما تختفى وسط شواغل الانســان اليومية ..

لم يعد هذا مقنعا فى عصر أصبح العقل فيه سيد الموقف لذلك لم يتبقى أمام اقناع الانسان سوى طريق واحد .. وعد فى جنة أرضية واقعية يقطف ثمارها وهو حى يرزق .. واحة ســـلام يجد فيها متعه الحســـية والعقلية والعاطفية .. يعثر فيها على ســـلام نفسه المفقود .. يجد ذاته من خـــلال البحث المضنى .. يرمى بأثقال الحياة التى تقيد حركة عقله وفكره .. جنة يجد فيها الحب والمرح والســـعادة جنة لا يؤلهه فيها المادة بل تصـــبح اداته لتحقيق امانيه .. عالم تتعايش فيه كافة العقائد .. ترفرف عليها أعـــلام المساواة .. من خلال هدف ملموس يحققه الأنسان .. لهذا لم يعد مقنعا أن نحرم فعل دون ان نســـوق أدلة تحريمه ...لم يعد كافيا ان تكـــون حجة التحريم العبارة المأثورة « هـــذه مشـــيئة الله » لأنه حتى ولو كانت كذلك فلابد لها من تبرير مقنع والا وضـــ كأى اجتهاد شخصى ينقصـــه الدليل فى جعبة الخرافات .. بئس المنافقـــون .. بئس المخادعـــون الذين يتزنمون بشـــكل الايمان دون جوهرها .. ينطقون فقط دون كلمات الحق والعدل والمساواة نعقلها .. نســـجد لمعناها .. نتعبد فى محراب حروفها المتوهجة بالخير نطوف بعقولنا حول فلســـفتها النابعة من سراج المعرفة من خـــلال الاختيار ..

لقد باتت اخلاقيات العصر عامة والشرق خاصـــة فى حاجة الى مراجعة شاملة .. الى تقييم جديد يضع الأمور فى نصـــابها .. نقوم بموجبة هـــذا التقييم الى اعادة تبويب العلاقات الانسانية .. الحرام والحلال .. الخطأ والصـــواب .. تبويب يتأسس على علاقة الضرر .. لا على ما توارثناه من

تركة مثقلة بالتهويمات والخرافات والخزعبلات .. ننقيها من شوائبها .. ونمسح عنها صدئها ..

لتفى اتساءل ودعونى اتساءل لم وضـــع الانسان فى لغز احكم سره استحالت رموزه امام عقولنا القاصرة .. لا تستوعب منها سببا مقنعا لبدء الحياة .. كيف الانسان ولماذ خلق .. وكيف خلق ؟ ؟

ثم ملاذا نحن ؟ !

هل نحن صـــورة مهزوزة لعالم آخر .. صـــورة تليفزيونية ابطالها الحقيقيون يعيشون فى مكان آخر فى زمن آخر .. ام نحن نمثل ادوارا ارادها لنا مؤلف بارع يحرك الكاميرا لنظهر على الشـاشـــة .. شاشـــة الحياة فى ادوار مرسومة صورا متعاقبة .. متوائمة متنافرة .. وبالتالى لسنا سوى مجمـــوعة من الممثلين منا الفقير .. والأمير .. والحقير والصـــعلوك .. وابن الزانيـــة نمثل الدور كما رســـم لنا فاذا خرجنا عن النص زُعق المؤلف وضرب الأرض بقدمه فتزلزل الأرض ويخـــرج الجحيم من البراكين أو تنهمر الســـيول وتقـــوم القيـــامة ام اننا الحقيقة فى تجوالنا .. نقاشـــنا .. حركتنـــا .. عملنـــا .. تمثيلنا .. حبنـــا .. كرهنـــا .. حســـدنا .. سعادتنا .. نحن الحقيقة .. وما عدانا هو الوهم .. نحن الحقيقة .. والحقيقة نحن .. وطالما أن الله حقيقة .. فلسنا ســـوى الله الأمطار دموعه والريح زفرته .. والغضب براكينه .. والعلم عقله .. والانسـان وسيلته .. والسلطان رغبته .. والكون سلوته ..

واذا كان الله والانســـان واحد لا يتجزء .. فلماذا يعجز الأنســـان عن المعرفة الكلية .. ؟ !

لمـــاذا يتوالد الناس كالبهائم .. يحركهم الجنس يتقاطرون حـــوله كعسل الذباب فى رغبة محمومة متجددة .. لا يختلف فيها صعلوك او امير .. الكل عاريا أمام دوافعـــه الخفية ؟ !

لماذا يتعايش الناس وقد تتغلغل المال وشـهوة الســـلطة داخل سراديب

حياتهم تنبذ الابن ابية .. والاخ اخيه .. والام وليدها ؟! ..

لماذا خلقنا اجنة .. فاطفال شـــباب نكهول مثلنا مثل الحيـــوان والنبات والحشرات ينسج التطـــور قانونه المحكم على كل صـــغيرة فى حياة الأحيـــاء .. مرحلة تلـــو مرحلة لتعـــود من جـــديد الى نفس المرحلة .. نقطة البداية ؟! ..

من اين جئنا والى اين ننتهى ؟! ســـؤال خالد من شـــقين جئنا من الفـــرج وقبله كنا فى الرحم .. خلقنا كالســـابقين واللاحقين .. حضـــانة تحتضن الحيوان المنوى حتى ينمو .. رحم مظلم .. ومنفذ الى حيث يخطو الى عالم أرحب .. ولكن اول الحلقة .. نقطة البداية فى سلسلة الحياة ..

ماذا كان الانسان .. كيف خلق ؟! لقد عجزت الأديان عن تفسير علمى مقنع لتلك الاســـئلة الخالدة .. واذابت العقل الانسانى فى محلول حمضى مركز من الخرافات .. لمحولته الى ذرات هلامية قانونهـــا الفوضى .. وحركتها العجز .. اين هى الحقيقة .. هل هى نسـبية .. تختلف باختلاف عقل من يلمسها فهى وهم لدى البعض وحقيقة ثابتة لدى الآخرين ؟!

فى عصـــور سابقة كانت الخرافات حقائق يلمسـها العقل .. ومازال الكثير منها لدى نفر غير قليل .. يقين .. ويقين .. ويقين ..

الحقيقة هى ما يلمســـه العقل .. ولكن اى عقل ؟ عقل الأمس الذى يضرب فى اطناب الجهالة ام عقل العلم ام عقل الفيلســـوف ام عقل الكاتب اين هى اذن وقد شوهتها النسبية ؟! ..

او ليس من حقنا ان نسأل ونحن نصعد للقمر ونحن نصهر الخرافات لنقذف بها فى بالوعات التاريخ القذرة .. ونحن نبحث ونستقصى .. ونحن نحمن العادات .. وقد تملكتنا رغبـــات محمومة فى المال .. فى المرأة .. فى السلطان .. اليس من حقنا أن نســـأل عن الرســـل .. ما هم .. ما هى هويتهم .

ثم لمـــاذا الانســـان يفكـــر .. عالم وكاتب .. يبحث عن الحقيقـــة ويستقصى .. يستخلص نتائج يكون نظريات يذهـــل المجتمعات باختراعاته

التي قد لا يفيـد علمها بقـدر ما يفيد البشرية .. ومـع ذلك فهو في الدرب يسـير .. لا يوهن من عزيمته لمقر مقنع .. ولا ارهاب فكرى .. ولا اربع جدران صماء .. ظلماء تحتوى جسده ..

لماذا يفرض على العقل محظورات للفكر .. لا يجوز ولا يجب الاقتراب منها بل يعتبر ملحدا ذلك الذى يفكر بصوت عال مسموعا كان او مكتوبا .. مآله النار خالدا فيهـا ابدا .. مع ان الشـك مرحلة من مراحـل مخاض الوصول الى الحقيقة ..

لم يستكثر على الانسان ان يعلن شكوكه .. مع ان الشك رفيق كل مفكر وهو يفكر في ماضية وحاضره .. مسـتقبله .. رفيق كل مبدع وهو يحاول ان يروى بذور ابداعه بالعلم والمعرفة ..

لمـاذا يقف كثير من الوعاظ .. يتقاتلـون النهايات .. احاديث على عليها الزمن سـطور بلهاء من الكتب الصـفراء .. عن الجن .. والعفاريت والأرض التي يحملهـا قـرنى ثـور .. والاكاذيب .. والخـرافات .. كفاياكم .. كفاياكم فقد زهدنا الخزعبلات التى يشتم منها رائحة العفن .. ولا يرى الفكر من خلالها سوى القتامة والاظلام ..

الانسان الآن يريد بعثا جديدا يعتمد على اغلى ماني راسـله .. العقل البشرى .. بعثا ينفض من كاهله النزعات .. الأكاذيب .. بعثا جـديدا يخطو بخطـوات ثابتة على ارض العلم والمنطق يحرص فيه على الحقائق المجردة وسيلته في ذلك للنقاش الهادىء والمحاورة المثمرة التى انحسرت موجة مثالياتها من وجه الشر القبيح ..

بعثا جديدا يفسر لنا ما اسـتعصى على العقل فهمه .. حقيقة الجنة والنـار .. الميعث والقيـامة .. الملائكـة والشـياطين .. الجن الازرق والاحمر !! بعثا يفسر لنا هذه الحياة .. سرها .. وسـيلة الانسان ليحيا فيها محققا هدفه .. بعثا يصور لنا حقائق الحياة مجردة بعثا يضع الانسان

على اول الطريق بعد أن تاه وســـط زحام مشاغل الحيـــاة اليومية بعثا يعد بجنة على الأرض لا فى السماء يقطف ثمارها الأنسان وهو حى يرزق ..

بعثا يترك لكل انســـان عقيدته دون تدخـل من الدولة أو تعصـــب من الأفـــــراد ..

بعثا يتعامل مع حقائق الحياة ويطوعها لخدمة الانســان ..

بعثا يضع الديانات فى مكانها الصحيح علاقة بين الانسان وربه .. والمعاملات علاقة بين افراد المجتمع ..

انهـــا محاولة منى لفهم الحقيقة .. التى عجزت عنها بفكرى المحدود استعنت فيها بمصـــباح غمرنى بضـــوء معرفته .. وأخذ بيدى من بيداء الجهـل الى واحة من المعرفة لا حـدود لها ظللت ارتشـف من نبعها ثمان سـنوات .. ثمان ســـنوات وأنا عاكف أدون كتابى .. ثمان سنوات من القلـــق .. والتردد والمعاناة والحـيرة .. والصراع مع النفس ومع فكـر الآخرين ..

ثمان سنوات سهرت فيها الليالى ارعى البذرة أرويها بالجهد والعرق والدموع واليقين .. حتى انبتت هذا النبت تلك الرواية التى اضـــعها بين يدى القارىء ..

- ١ -

من أنـــا ؟!

افقت من غيبوبة خلتها دهرا .. حاولت النهـــوض .. انكمشت .. ومن يحتـــوى جســـدى ريقى جاف .. مرارة فى حلقى .. شـــعرى مغبر بالرمالَ .. امامى الارض شاسعة .. غريب أمر هذه الارض .. الحشائش الخضراء .. والاشـــجار البلســـتة والجـــداول .. اين أنا .. حاولت أن اتذكر ..

بصـــيص من نـــور ياتينى .. ثم يغيب فى كهف النســـيان آخـــر ماتذكرته .. تلك المركبة التى كنت استقلها لكن لماذا انا هنا ؟!

شعلة الحقيقة يطفئها المجهـول الجاثم أمام نافذة عقلى وأنا أســـير بلا هـــدى .. الناس ينظـــرون الى باهمال .. بعـــدم اكتراث .. عيونهم تستطلعنى .. يتهامسون .. همساتهم تمزق الغموض والشـــك واحدهم يتقدم نحوى .. انسان غريب .. جسده جســـد ثور فى حلبة .. ضـــفائر شعره تصل الى ركبتيه .. ملامح وجهه جامدة .. لا غضب يكللها ولا بسمة تشرقها اقترب منى .. واجهنى .. مارايت ابشـــع منه صـــورة .. عينان كثقبى ابرة .. يظللهما حاجبان كثان .. فم كالمحيط اثنان مفرطحـــان .. اذنى تميـــل .. ازداد اقترابا منى .. التصـــاقا .. بـــدا يلمســـنى .. يتحسسنى كأنه يتحسس صدر عذراء ذعرت .. لحظات وانا احاول الابتعاد عنه .. الا انه صفعنى بقسوة .. مادت بى الارض .. صـــدمت وقبل ان استفيق من الصدمة مد يده مرحبا .. للحظات ظللت فى مكانى لا ابرحه .. مشـــدوها .. فكرى فى موات .. اعجـــز عن اجابة واحـــدة لما خالجنى من اسئلة .. لماذا صـــفعنى لماذا امتدت يده الى مصـــافحا .. لماذا اســـتدار

مبتعدا عنى .. ثم ماهذه للكائنات الغريبـــة الأخـــرى التى تروح وتجىء امامى .. لماذا اتيت هنا ؟! ماهذا الرداء الغريب المهزق الذى يدثر جسدى ؟! كيف جئت الى هذا المكان ؟! وكيف العودة ؟! العودة الى ماذا ؟! من أين اتيت اسئلة باتت حائرة .. لا تجد اجابة شـــافية .. اصابنى اليأس والاحباط وانا افكر ان اقضى حياتى مسجونا مع هذه المخلوقات البشـــعة .. عقلى فى خـــواء فكرى فى غيبوبة .. وانا احاول المرة تلو الأخـــرى ان اذكر شـــيئا واحـــدا .. اعرف به ذلك المخلوق الهائم على وجهـــه .. لا يدرى من أمر ماضيه شيئا .. ولا من غده .. ولا من حاضره .. من أنا ..

صرخت .. صرخة لم تخرج من حلقى .. ولكنها ايقظت الهوام .. احيت الموات .. جرس يدق .. ويدق تحمـــل دقاته نذر الخطر .. ولكننى لا اسمع منها شيئا .. مجرد صدى .. صدى آت من أغوار محيط .. تموت ذبذباته لمرق صفحة الامواج . من انا .. رددتها مرة واثنتين وثلاث .. وفى كل مرة تذوب الكلمات داخل طيات الهواء دون ان اسمع حتى صداها ..

واصلت مســـيرتى .. حل بى التعب .. ارحت جسـدى للكليل .. تحت شـــجرة وارفه .. عامرة بالثمار .. مددت يدى الى احدى الثمار .. تقدم نحوى رجل قوى البنية - حاسم النبرات نهرنى :

ـ لا تقرب المعصـــية

ســـالته فى دهشـــة :

ـ المعصية ان اطعم من جوع .

ـ بل المعصية ان تاكل من شجرة التفاح التى حرم الله على آدم .. الاقتراب منها .

ـ لكننى جائع .. وليس بعد الجوع شىء .

ـ امام عينيك حديقـــة عامرة بكل انـــواع الفواكه .. اقطف منها ما شـــئت .

ـ وليس معى فلسا واحدا .. كيف ؟

ـ بلا مقابل .

سألته في دهشـــة :

ـ قلت بلا مقابل .

حثني بقـــوله :

ـ اذهب قبل ان تغلق الحديقة ابوابها .

وقبل ان اخطو تجاه الحديقة ســـألني :

ـ لكن من أنت ؟

ترددت في الافصـــاح .. فانا لا أعرف من انا .. لكنني أجبته :

ـ زائـــر .

قال لي مترددا :

ـ زائر للجنة .. يامرحبا .

للجنـــة .. اخيرا الجنة التي انكرها الملحدون .. والهمت الشـــعراء وشـــغف الانبياء بالحديث عنهـــا .. وانهـــم تحت قدمي .. ادوس فـــوق ترابها .. انحنيت ملأت قبضة يدي بحفنة .. لم تكن ســوى تبر ..

ايام وانا للتحف السماء .. لا اعرف لنفس غلية ولا لبقائي سببا حتى رأيتها تسألني فتاة في ريعة الصبا .. يمانق صفحة وجهها اريج جمال فاتن « وما نهاية مطافك » تمعنتها .. قوة هائلة تجذبني نحوها .. طاقة خفية تصلني لأعماقها .. انتفضت زاعقة :

« ما بالك .. تخيفني بنظراتك .. من أنت » ؟ ؟

لمعرتني نشـــوة .. لقـــد اســـتطعت احتوائهـــا بطاقتي الهائلة .. تملكني احســـاس بالقـــوة .. بالســـــطوة .. للحظات قصـــار كانت الفتاة اشبه بحفنة من ماء لا تملك قدرها .. لكن ســؤالها هز يقيني .. من انا .. طنين يدوي داخلي لا أعرف بدايته .. ولكن نهايته داخل عقلي .. اصـــوات غريبة .. متنافرة .. متباعـــدة .. حزمة ضـــوء تتفرق .. تتباعد .. تحدث دوي داخلي .. اشـــعة هائلة تحتويني .. تضـــمني اليها

لا ادرى كنهها .. كلمة الله .. صراخ الملائكة .. وسوسوة الشـــيطان .. قوى خفية فى صراع .. تصـــارع .. لست ســوى حلبه لهــذا الصراع الهائل .. الاجابة عاجزة كســيحة لا تســتطيع النهوض من عثرتهـــا .. صـــماء .. بكماء .. فأنا هذه لا اعرفها .. احسست بخدر وفصائل من النمل المتوحش تزحف داخل عقلى المكدود تنهشـــه والصـــوت من جديد .. قرعات جرس .. يحثنى يحفضنى الى الافصاح عما بداخلى .. لماذا الصمت عن الحقيقة .. لماذا تخفيها .. الصوت ســكين يقطع وينثر اشـــلائى .. قل لها .. افصح عن حقيقتك .. فلست سوى هو ..

صراع هائل .. راسى تنفجر .. قوى خفية تضمنى اليها بقسوة .. رحت فى شبه غيبوبة وصرخة الفتاة تصلنى .. صـــدى لصوت البركان الذى يقذف بحممه داخلى ..

ـــ الم بك مكروه .

قلت لها بحســـم :

ـــ دعينى وشأنى .

مستها كلماتى مس الجن .. لمست نفسها اسرعت مبتعدة :

من أنا ؟! من هو هذا الانسان الذى يقطن جسدى .. لا يعرف ماضيه .. يجهل مســـتقبله صـــحراء جرداء خلت من النبت والماء كم اريد ان انسى .. انسى ماذا .. لا ادرى صفحة بيضـــاء تحيطها غيوم شـــكوكى .. مرهق ساقاى كليلتان .. اريد ان ازعق .. افعـــل اى شىء .. يثبت وجودى .. ينشلنى من الوحدة .. من الضياع .. للصوت ياتينى .. قويا .. اجراس تطن فى أذنى ! ويضيع تساؤلى ..

ـــ ولكن من انا ..

قهقهة غريبة .. ساخرة يعقبها صوت اغرب :

ـــ قم يارجل .. لا يشغلنك من انت .

تملكتنى رعشة .. رعشات .. خيالات تعصف بى .. وانا أضـــغط

واضغط على راسى أضمها بين ركبتى .. والضحكات تتوالى عقلى ينصهر فى بوتقة الشك .. خيالات .. أوهام .. ما أسمعه ضحكات ولكنها أشبه بمسامير محمية تنغرز فى عقلى .. تحوله الى شظايا .. رقائق يحتويها الألم .. للعذاب .. للصراع بين الحقيقة والوهم .. ماهذا الذى أسمعه هل حقا صوت الاله .. أم صرخات الشياطين .. اى شياطين .. واى اله والصوت من جديد .. لا اعرف كنهه .. لا اميز نبراته .. ولكنه ياتينى من مغارة من جب .. من السماء .. من اعماق محيط :

ـ انت الناس والناس أنت .

لحظات قاسية تمر بى .. لحظة انشقاق للفجر من الاظلام .. الوليد من الارحام .. لحظة يتحول فيها الكون الى كتلة من الرماد يدفن فيه ملايين البشر .

ـ لا .. لا .. وهم .. وهم .

* * *

على جانب الطريق رايت رجلا نحيلا يقيد نفسه بجذع شجرة .. اتجهت اليه .. تككت عنه الحبل .. عاد وقيد نفسه من جديد .. نظر الى شذرا .. وانا اساله :

ـ لماذا ؟ !

عدت لجول الطريق .. فتاة فى ريعان الصبا فى يدها مسمار حاد تغز به ثدياها .. تصرخ الما .. اقتربت منها .. حاولت منعها .. دفعتنى بقسوة .. صرخت :

ـ اغرب عنى ايها البشع .

هرولت بخطواتى الى الطريق احاول .. ان اجد اجابة لسؤالى الحاضر .. هل هذه هى الجنة .. سخرت من نفسى .. لمجرد ان عقلى طرح هذا الاحتمال ابتسمت .. لكن لماذا يطلقون عليها الجنة .. اية جنة تلك التى يقطنها مجموعة من المرضى .. يتناثرون كالاشياء .. لا هدف

نهضت من وقعتى .. ما فعله مناع كان صـــدمة لمشاعر الجمع .. لقد صـفعهم .. ركلهم .. اشعل النار الكامنة تصف الأمل داخلهم .. تشققت ارض الربوة بسـيل من الكلمات المتشنجة الغاضبة :

ـــ يا ويلنا من غضبته .

ـــ اقتلـــوا هـــذا المرتد .

ـــ سامحنـــا يا الهى .

فرهود يلطمه .. عشرات الأيادى تمتد اليه موجات الســخط تعلو .. وتعلو .. فوقها الشاب يقاوم .. يستبسل .. قشـــه تلطمها الأمواج .. تتكسر عليها .. تتقاذفهـــا .. الشـــاب يتدحرج بين الأيادى .. تتهشـــم ضـــلوعه .. أنهم يقتلـــوه .. ومن أجـــل من ؟! من أجلى انا .. انا ناقد الهوية .. الانتماء .. دوت صرختى محذرة :

ـــ اتركوه .. انه عابث وليس بكافر . هدأت الانفاس .. تقلصـــت القبضات عن جسد الشـــاب .. كيف لكلماتى كل هذا الســـحر .. الشاب يحاول النهـــوض يتعثر .. ينكفئ .. يســـقط تحت قدمى ينهض من جديد يلطمنى يصرخ :

ـــ افاق .. كاذب .

قلت والذهول يحتوى الجميع :

ـــ الانتقام ليس من دالة السماء ملايين ينكرون الاله .. ماذا فعل لهم . آتونى بحمامة بيضـــاء .

الحمامة فى يد .. السكين فى اليد الأخرى جززت رقبتها .. ســـال الدم .. الناس فى حيرة من أمرى .. وأنا أقذف بالحمامة فى الهواء وأتمتم :

ـــ طيرى بأمر الاله .

اهازيج الخرافات تحملهـــا جنية البحر وهى تجلس عارية بجـــوار صخور الشط تأخذ معها الى مملكتها الخرافية تحت قاع البحر العميق حبيبها الذى ولهت به .. وبعد غيبة شـهور يعود الحبيب الى الأرض وبرفقته ابنته

للساحرة التي انجبها من الجنية . الوحش الاسطورى الذى ينفث من فمه الشنيع الأحمر النار .. تحرق البنت الأخضر .. والشاطر حسن وهو يغرز سيفه السحرى داخل مكيه فيرديه قتيلا .. تلك الأهازيج .. تدق دفوفها ترفع أعلامها .. والحمامة تسبح فى الفضاء . وصيحتى تسجد لها الهوام .. تنشدها الكائنات .. تترنم بها الرياح :

ـ ما ابصرتموه هو قدرة الاله .

والشاب من جديد :

ـ سحر ما تفعل .

كلماته .. مناقير أسراب من الطير للبرى تنهش قلبى .. تدميه تحوله الى قطع متهرئة .. تحول نشوتى وانتصارى الى أحباط وانهزام صرخت فيه بحدة :

ـ سأشطرك نصفين .

هلع . وخوف ونزع وانا اتجه الى الشاب .. احتويه بقدرتى .. جرذ امام قط .. يرتجف .. والناس ذهول .. وانا اهوى عليه بيدى .. راسه ينفصل عن جسده .. للدم ينزف منه .. ينحنى امامى بالرأس المذبوح لتدمى يقبلها .. والصرخات تدوى فى الآفاق :

ـ الهنا اغفر لنا خطيئتنا .

لمست راسه .. تمتمت :

ـ انهض .. فقد عفونا عنك .

لقد نجا مناع .. كبر الناس .. هللوا « نعم ربى .. نعم ربى » .. امتلأ الوادى بصدى الكلمات .

الفؤاد هل ترى ما نحن عليه الآن .. انه من صـــنع الاله .. فما يقـدره يحـدث لنا .

ـــ الاله لا يريد بكم سوءا .. انما السوء هو ما يصنعه البشر بكم .

فجاة انتصبت قامته .. وقف يرمقنى لفترة وجيزة .. اقترب منى .. ربت على .. قال بهدوء :

ـــ انها الحقيقة ما قلت .. ماساء حالنا الا لسوء حال خاصتنا ..

دار حولى .. فرشنى بنظراته .. استطرد قائلا :

ـــ لكن كيف لك بمعرفة ذلك ؟

فوجئت بســـؤاله .. فما قلته ليس بالحقيقة الغائبة عن العقل .. وليس بالسر الدفين .. ولا هو اكتشـــاف يقف منه شـــعر الراس هـولا ونزعا .. ابدا ومع هذا فقد لفنى الصمت بردائه لفترة وجيزة .. عجزت عن الاجابة والشاب يعاود بالحاح سؤالى :

ـــ لم تجبنى .. كيف لك بهذه المعرفة لاتحاول الانكار .

اخذتنى لجنة الحيرة وانا اجيبه :

ـــ اننى لا اخفى شـيئا ..

قال ذلك .. وقفز قفزة هائلة ..

اقتفت عيناى أثره وهو يعـدو مبتعـدا عن المكان .. يذوب جســده النحيل فى اللا نهائى رافقنى ينظر الى فى استطلاع غريب وانا اسأله :

ـــ ماذا يعنى بقوله تلك ؟ من هو الذى اكونه ؟

ـــ اتمزح يا مولاى .

ـــ مـــولاى !!

ـــ لقد سبق أن وعدتنا .. وها أنت تنفذ وعدك .

قلت مدهوشـــا :

ـــ اننى لا افهم شيئا مما تحدثنى عنه .

ـــ انظر الى الكتاب المقدس الصفحة الحادية والستون بعد المائة

اعطانى الكتاب .. قلبت أوراقه .. قرات :

« سيتجلى الاله للناس .. وسيكذبوه .. ويسألوه عما اصابهم من بلاء وسيجيب عليهم بأنه لا يريد بهم سوءا .. بل للبشر هم أس البلاء .. ومكمن الفساد .. عندئذ يبشرهم بالخير .. والبركات .. والعفو .. ويعدهم بجنة اخرى تطوفها دائبة .. اكثر واكثر من الأولى »

ـ وما معنى هذا ؟!

ـ اتيت الينا فى الوقت الذى وعدتنا فيه بالتجلى علينا .. قال ذلك ثم انحنى الى قدمى يقبلها .. وعقلى يصارع الشك .. من أنا .. ومن هؤلاء وماذا حدث .. وترنيمة هائلة يترنم بهها قلبى والهاتف يأتينى ضاحكا .. نفس ضحكته المدوية العالية :

ـ الم أقل لك .. انت هم .. وهم انت .

ـ ٢ ـ

الطريق مغبر .. سحابة اتربة تعدو نحوى فى رشاقة وكثافة يتخللها سيقان واقدام .. اقتربت السحابة .. انقشعت عن آلاف من البشر تحيطنى والشاب يصرخ :

ـ هذا هو .. هذا هو الهكم .. اله العرش . الناس تجرى .. تلف وتدور حولى .. تزغرد .. تهلل .. لكلمة الرجل وقع السحر .. انحنت الهامات .. طاطأت الرؤوس .. صلاة شكر غريبة .. يتخللها أغانى الترحاب .. لكن بلا نرجة بلا بسمة .. الناس حولى يتواثبون .. يتقاطرون .. يتكسون .. الكل يرغب رؤية الاله ابتسمت رثاء .. سخرية .. لا ادرى والدهشة تعصرنى .. ما اراه لا يمكن تصديقه .. اغرب من الخيال .. الناس تتهافت على رؤيتى .. تتصارع من اجل للوصول الى .. الاقدام تدوس الاجساد .. الايدى تنتج فى الجدران البشرية طريقا لتنفذ منه الى .. المناكب تعصر بعضها .. تلتحم فى

قسـوة .. ثم تبتعد فى عنف .. كل هذا من اجـل رؤيتى لمس اطرافى .. تقبيل ملابسى كيف ولماذا .. الأسئلة تحاصرنى .. الصيحات ترتفع الى عنان السماء .. « الأله .. الاله » ضاقت انفاسى .. دائرة البشر تضيق حولى برائحتهم المنفره .. بعناقهم .. انفاسى تتعثر .. ثوبى فى ايديهم شرائح يتبركون بها اصبحت شبه عارى .. صحت فيهم :

ـ ليس هكذا تفعلون بالهكم .

انشـطرت الدائرة .. انقشعت .. لفح كلماتى لسـمهم ابعدهم جسد الاله الهزيل فوق الايادى والاعناق والاكتاف محمولا .. تشـه تحملها الأمواج المتلاطمة .. تزفنى الأغانى والالحان حتى قصر الاله ..

آلاف من البشر .. من القرى والنجـوع والأحراش والجبـال اتت يتبركون بالاله .. يرقصـون .. يشربون الخمر .. يعبثون .. وانا تائه حزين .. فحتى الآن لم اعثر على اجابة لسؤالى .. « من أنا » ابدا لست هذا الاله الذى يتحدثون عنه .. فما أعيـه انه ليس ببشر بل اله قوى .. قوته فى غموضـه فى العجـز عن تحديد مكنـونه .. ولكن اذا لم اكن هـذا الاله .. فمن انا .. ولماذا يقع اختيار القوم على دون غيرى ليصـنعوا منى الها . الاجابات عاجزة كسيحة .. لا أجد واحدا منها يقنع ذهنى المكدود .. هل لأن النلس كانت فى حاجة الى منقذ وعثرت عليه فى اليوم الموعود ؟ هل لأننى اتيت الى الناس فى اليوم الذى اعتقـدوا فيه بتجلى الاله لهم ؟! وهذا السـفين الذى حط بى ثم غرق .. هل هو احدى الاجابات لا .. كل هـذه دلائل .. وليسـت اجابات .. انما الاجابة هنا امام هـذا القصر .. حيث يهلل الناس .. الاجابة تكمن فى نفـوس هـؤلاء البشر الذين يسـتحلبون الحقيقة من الوهم .. فما هم سـوى مجموعة من المرضى أو الاغبياء .. احدهم يصرخ :

ـ ظال انتظارنا للقياك .

وآخر يصـيح :

ـ كنا فى شـــوق اليك .

وثالث يزعق :

ـ جئنتنا قبل ان نفقد الامل فى الخلاص .

ورابع يتمتم :

ـ الهنا كم نحبـــك .

وخامس .. وسادس .. وسابع .. مئات .. آلاف .. ســـيمفونية حب رائعة مع مايسترو لا يفهم السلم الموسيقى ..

وسؤال يحاصرنى .. مع كل هذه الحفاوة وذلك الود .. لماذا الوجوه عابسة يطوها الوجوم .. لماذا الابتسامة مفقودة .. غائبة ؟ !

استفقت من شرودى على صـــوت متشـــنج لرجلِ هش العـــود .. قاس الملامح :

ـ نحمدك اللهم .. نحمدك ..

هزتنى الكلمـــات كانى ســـمعتها اكثر من مرة .. اين .. ومتـــى لا ادرى .. تلوح من خـلال الطمس بارقة أمل ثم تخبو بسرعة البرق تحت غطاء النســـيان والرجل يتقدم .. يصرع الســـياج البشرى يخطو نحوى .. يسجد تحت قدمى .. يعفر راســه بالرمال .. يان :

ـ سامح « فرعود » عبد ذليل .. ارتكب معصية .

تلت فى بلاهه :

ـ قم يارجل .. ليس هذا من شيمة الرجال .

رد فى اصرار :

ـ لن افارق مكانى هذا حتى تغفر لى .

اتسعت دائرة حيرتى لهذا الأمر الجديد .. فانا لا اعرف ماهى المعصية التى ارتكبها ..

لامست يدى راس الرجل تمتمت :

ـ أيتها النفس العاصية .. لقد عفونا عنك فاخلدى الى بارئك هادئة مرضـــية .

الرجل يرفع راسه نحوى فى ابتهال يهمس :

ـــ كيف لى ان اتاكد من عفوك يامولاى

ـــ أنظر الى اعلى .. انها ام الخبائث بعد ان طردتها من بين جنبيك

شـــهق الرجل .. تزاحمت صرخات الدهشـــة والتعجب .. والأنظار تصـــلفح الأفق البعيـــد لنرى معصـــية الرجل بعد أن انخلعت من جنبيه وفارقته على هيئة سحابة داكنة يبتلعها الأفق البعيد .

اول اختبار لقدرائى .والهاتف ياتينى :

ـــ لقد ملكت الدنيا فلا تبخل بها على الناس .

ـــ كيـــف ؟ ؟

ـــ الخلاص لهؤلاء البشر .

* * *

استيقظت .. الصباح يتلالأ .. استقامت قامتى .. القيت نظرة من خـــلال النافذة .. ماهذا ؟ طـــوفان غريب من البشر .. قطعان .. تحيط بالقصر تعصره يفترشـــون الأرض .. بأقدامهـــم .. بأجســـادهم .. عناقيد من اللؤلؤ تحيط جيد الأرض الرمادى .. تملكنى نشوة الهية وعيناى تحتضن الربوه ومن عليها .. كل هؤلاء الناس ملكى .. يأتمرون بأمرى .. وينفذون رغباتى كل هذا لاله لا تعرف حقيقة نفســـه .. هويته مفقودة .. هل أنا مخادع .. هل يمكن أن أخـــدع كل هـــؤلاء الناس .. بالزيف .. بالغش .. فى لحظـــة خطر لى خاطر سرعان ماصرعته .. ماذا لو اعترفت لهؤلاء الناس بحقيقتى .. ولكن ماهى حقيقتى ؟ .. زائر للجنـــة يجهـــل حقيقة نفسه .. لن يصدقنى أحد .. واذا صـــدقونى فالموت مصـــيرى .. لكن لماذا لا أكون هذا الاله وذلك الهاتف ياتينى .. يحفزنى للمضى فى طريقى لخـــلاص هؤلاء الناس .. من أى شىء .. لا ادرى ولكننى بالنســـبة لهم الأمل .. البعث ..

اطللت بوجهى من الباب المـوارب .. سرت شرارة فى الجمـــــوع الحاشدة .. الطوفان يتحرك نحوى الجمـوع تتدفق .. تهرع .. تسبقها صيحاتها .. فتحت الباب .. وخلفت الى الخارج العيون تلثمنى .. الحناجر تشدو بى .. ترقرقت دموعى وانا اسال :

ـــ كل هذا الحب من اجلى

* * *

قوى غريبة تجتاحنى .. تشد من ازرى .. وانا اسير وسط الجموع الحاشدة .. ينتابنى الشـــك .. اتاغرق فى طوفان الوهم .. فمن انا واين كنت قبل ان اضع قدماى فوق ارض الجنة .. لا اذكر .. " اتذكر .. مجرد همهمات بلا معنى ولا مضـــمون .. لا ادرى كنهها معالمها .. تاتى الى ثم تغرق فى الصمت اهيب لعقلى ان يفرزها .. ان يصـــعد بها من الأعماق .. بلا جدوى .. لكن سرعان ماصرعت الشك وانا اجول وسط امواج البشر .. صيحاتهم تشد من ازرى .. تقسوى من ارادتى يقينهم نصـــل فى قلب ذلك الشك .. يرديه .. فجاة دوت صرخة .. خفقت داخلى خفقة مضرب البيض داخل سائل البيضـة الهلامى :

ـــ كيف تصدقون ان يكون الاله بشرا .

احتوى الصمت المكان .. ماتت الأغانى والأهازيج على أفواه البشر .. باتت أمامى الفرصـة سانحة لأعترف بالحقيقة التى تضج بها نفسى .. لست هذا الاله ما أنا الا بشر مثلكم ..

لكن هذه الجمـوع التى كانت تبحث عن الخـــلاص وعثرت عليه .. ماذنبهـــا .. تبينت ملامح القائل المتمرد على الهه .. خدجت فيه بنظـرة قاسية وهو يخطو نحوى .. ضامر المنكبين .. مسترســـل الشعر .. تدلى من أحد أذنيه قرط ذهبى .. مشذب اللحية .. فوق قسمات وجهه صرامة فى ثناياها ذكاء وسخرية فطرية .

حشدت كل شجاعتى فى مواجهة الشك الخاطف وانا اجيبه بصـوت

هادىء متزن :

ـ ماذا قلت ؟

نظراتى تعصره .. تستدرجه وهو يرد فى هدوء غريب :

ـ لســت الهنا ٠

الصمت يرتجف فى انتظار ولادة عسرة من شفتاى .. لحظات قصــار وكأنها دهر ٠ موقف يحتاج الحذر .. دهمنى خاطــر أن أصــارح الناس بحقيقتى لكن سرعان ما دفنت الخاطر فى مقبــرة ســؤال .. وما جــدوى ذلك ؟ .. فهــذا حال كثير من الناس يعتنقــون الخرافات .. يؤمنــون بالغيبيات ٠٠ يقاتلون من أجل الوهم أشرس من قتال الآخرين للوصــول للحقيقة .. فليكن هذا ايمانهم بأننى الاله .. أعصــار قوى يحتوينى ٠٠ يضمنى بشدة .. خلت أن أضلاعى تتهشم .. الهاتف من جديد :

ـ لا تتخاذل ..

منذ لحظات كنت مستعدا للاعتراف بأننى لست هذا الاله لكن تملكنى العناد .. حب البقاء .. الأصرار ٠٠ شهوة التحدى على التمساح أن يبتلع فريسته قبل أن تولى الأدبار .. سألته فى هدوء مريب :

ـ خبرنى من هو الاله ؟

أجابنى بنبرات حادة :

ـ قــل لنا أنت .

همهمت :

ـ آتونى بكلب .

فى لحظات كان الكلب ينبح بين يدى سألت الشاب من جديد :

ـ هل تسمع نباح الكلب ؟

ـ ما هــدفك ؟

ـ أريدك أن تحادثه .

ـ كيــف ؟

ـ بان تتحول لكلب حتى تفهمه .

ـ تقصد انك حللت فى انسان حتى نستطيع فهمك .

ـ شـاب ذكى .. لكنك عنيد لن يقنعك من القـول كلمة الحق .. ولن تسلم من الأذى بكفرك

ـ تخـدع الناس بعذب الكلام .. وتحاول ان تلقى الرعب فى قلبى بتهديد اجوف مع انك لا تستطيع دفع مكروه عن نفسك . فى تلك اللحظـة تمنيت ان الطمه .. أسحقه الى ذرات صغيرة .. تمالكت نفسى .. مضغت ضيقى وانا الملم اطراف الحديث :

ـ صـباح يارجـل .

ـ الصـابىء أنت .

صـاح فرمـود :

ـ ملدهك يامناع .. تنكر علينا الاله .

ـ بل انكر هذا المدعى .

صوتى يموج بالغضب :

ـ لقد طفح الكيل .

فى وقاحة غريبة تقـدم مناع نحـوى جذبنى من جلبابى .. مزقه .. دفعنى .. نعثرت .. تأرضت .. صاح زاعقا :

ـ كيف تصدقون أن يكون الاله مثلنا نصارعه فنصرعه .

فى تلك اللحظة .. سكنت الريح .. تحولت الى جماد سجنت داخلها الأبدان والعقول .. توقفت الحيـاة .. النبت والانسـان والحيوان .. لا حركة .. لا نبض .. قبر جماعى للمشـاعر والأحاسيس .. الغضـب يتفتت الى ذرات صـغيرة .. تعصـف بكل شىء والاله صريـع الايادى البشرية .. تطرحه ارضا تمزقه .. تخرق بهذا قانون امتزج بالعقل امتزاج الخلايا فى جسد واحد .

لهم .. ولا غاية .. تحركاتهم غريبـــة .. ياكلـــون .. ويشربـــون .. ينامون .. يتعذبون يتحركون فى صـــمت .. بلا غضـــب .. ولا حزن .. ولا حتى ابتسامة .. يروحون ويجيئون فى خطـوات متشابهة مرسومة .. كانهم مربوطون بخيوط خفية فى يد قديرة تحركهم كما تشاء .. تفرض عليهم ســـلطانها وقدراتها .. وماهم الا اشـــياء، تملى عليهم الحركة والكلمة .. واللفتة .. فجاة نشلنى من شرودى رجل اشبة بجدار .. براس ضـــفدعى ابله .. تدحرج نحوى وقف امامى .. لطمنى بقسوة .. لم ادر الا ويدى انا الآخر تنهش صدغه .. مد يده يصـــافحنى .. ياخذنى لاحضـــانه رائحته كريهه .. منفره .. وضع يده فوق كتفى حادثنى فى ود وهو يسحبنى :

ـــ هلم معـــى

ســـالته فى دهشـــة

ـــ الى اين ؟

ـــ لا تســـالنى .. فقط اتبعنى .. عقب على ذلك بقوله :

ـــ لكن من انت ؟

ـــ انا زائر للجنـــة .

تبعته .. توقف أمام كومة من (تبر) الذهب

قال فى اسى :

ـــ كل هذا الذهب ملكى .

ـــ حقـــا .

ـــ وايضـــا ليس ملكى .

ـــ تســـخر منى .

ـــ بل من الحقيقـــة .. فماذا امتلكت الشىء دون ان تنتفع به فانت لا تملكه .

قال ذلك ثم بدانى نثر الرماد وهو يصرخ :

ـــ هـــذا هو نتيجة الحرمان .. عشت زاهـــدا فى الدنيا على امل ان اســـتمتع فى الآخرة بكل ما حرمت منه .. وكما ترى امامى ذهب العالم كله

لكن ما فائدته ..

استجلى عقلى بعض حقائق الأشياء وأنا اسأله :

ـ ولهذا السبب تعذب الفتاة نفسها .

ـ صدقت .. فقد حرمت نفسها من المتعة .

ـ والرجل الذى يقيد نفسه بالشجرة ؟

ـ أنه يحبس نفسه عن الناس .

ـ لمـاذا ؟

ـ لقد اسهب فى وصـف الجنة .. وغذى عقـول الناس بالوهم والرخيص من الكلام حتى صدقوه لذلك فهو يحبس نفسـه عن الناس حتى لا يضربوه بالنعال .

ـ بالنعال وأنتم لا تملكون احذية !!

قال لى وهو يشير الى شاب وقف على راسه :

ـ انظر اليه .. انه يعاقب نفسه

سـألت الشاب المقلـوب :

ـ لمـاذا ؟

أجابنى وهو يهز رأسه يمينا ويسارا :

ـ نـدما .

ـ وهل يوجد هنا ما يستحق الندم ؟

ـ ليس هنا .. بل فى الدنيا .. حرمت نفسى من البحث عن الحقيقة وانغمسـت فى طقـوس الاديان اغترف منهـا ما ظهـر وما بطن .. فبت كالهاموش الذى تقتله حرارة الضوء الساطع .

ـ لهذا فالحقيقة مقلوبة .. كما تفعل انت الآن .

ـ لو خيرت بين الدنيا والجنة لاخترت الأولى .

ـ بكل مافيها من موبقات .

ـ اى موبقات تعنى .. انك سـتجد فى الجنة مايذهب للعقل ويوجع

- ٣ -

سـؤال منـاع بصـــدق :

ـــ لماذا انقذتنى يامولاى وقد انكرتك

ـــ أنكرتنى ليصدقنى الناس .

ـــ ما فعلته احدى المعجزات .

ـــ الاله لا يأتى المعجـــزات بامنـــاع .. لان المعجزة تعنى حـــدثا يتجاوز القـــدرة ..

احتـــوى كلينا صمت مطبق .. تهفهف عليـــه أجنحة التساؤلات .. وفى اللحظة التى قررت سؤاله فجر منـاع تساؤله فى هدوء غريب :

ـــ من انت ياســـيدى ؟

تريثت قليلا قبل ان اجيبه :

ـــ لماذا تسألنى وقد رأيت كل شىء ؟

ـــ ساصارحك القـــول .

ـــ تكلم يامنـــاع

ـــ لقد رأى القـــود الحمامة المذبوحة تطـــير فى الهواء .. والرأس الذبيح يعود الى الجسد ماعدا واحدا .

ـــ مازلت على كفرك وعنادك يامناع .

ـــ ما رآه الناس قد يكون خداع بصر يامولاى .

ـــ الى متى تظل على عنـادك .

ـــ مولاى لا تسىء الظن بى .. فانا احبك واعتقد ان الخلاص سيكون على يديك فانا لم ار ملاكا .. ولا جنـــا .. ولا شـــيطانا ولم ار الها .. ولكنها مسلمات لدى .

ـ نليســوف انت يامناع .

ـ الفلســفة شك يامولاى .. ومالدى هو اليقين .. من اليــوم أنا عبــدك .. تابعك .

ـ اخالك تبحث عن الحقيقة .

ـ هذا حالى يامولاى .. ظللت ابحث عنهــا وفى الوقت الذى تهيأت نفسى لاستقبالها .. فقدتها على يديك .. لكن ما يشغلنى حقا هو الناس

ـ مابال الناس يامناع .

ـ اريدعم بلا أوهام .

ـ كثيرا مايكون الوهم ستارا يحجب عن العقل هموم الحقيقة .

ـ وفى للنهاية تصبح الحقيقة بهمومها أفضل من الوهم بسعادتة .

ـ صــدقت يامناع .

ـ اثقلت عليك ياســيدى .

ـ لنا فى الغد جولة تصــحبنى فيها الى دروب الجنــة .. أما الآن فأنا مرهق وأرغب فى قسط من الراحة .

نهض مناع ،قبل أن يخطو خارج الحجرة سألنى فى سخرية :

ـ وهل الآلهة تنام يامولاى ؟!

* * *

- ٤ -

هل هذه هى الجنة ؟ ؟ حدائق وارفة الظـــلال تجرى من تحتها الانهار فوق أغصانها الثمار .. غابات تمرح فيها الظباء والغزلان .. تعشش فوق اغصانها الطيور والغربان .. فوق أرضها يتجول الانسان يقطف الثمار .. يقتل الحيوان .. يصنع من الفراء ملبسه .. ومن الجلد مسكنه .. ومن العظم خنجره ..

لماذا هى جنة ؟ ! هل لأن الانســان فيها طليق يأكل مايشاء .. يحب من يرغب .. يصــاحب من النســاء ما يريد .. كل ما يملكه الفـرد يملكة المجموع .. لا ملكية ولا اختصاص ..

لماذا هى جنة .. لأن البشر هنــاك يستمتعون بكل ما عندهم من نعم تفوق عن حاجتهم وتزيد أم لأنهم لا يخضعون لقانون سوى ما رسمه المجتمع من عادات وتقاليد .. ولكن بن العلم .. أين الحضارة .. أين المخترعات هؤلاء الناس يعيشـــون فى عصـــور الظلام والاظلام ظـــلام الأفق واظلامة العقل .. معتقـــدات بالية .. لقد بعثوا من جديد بعد موتهم .. وهذه هى جنتهم الموعـــودة جنة عرضـــها الســـموات والارض .. لكن هل حقا ما يعتقدون .. بعثا بعد موت ؟! حياة أخرى بعد الحيـــاة الأولى .. كثير منهم يتحدث عن حياته الأولى .. فمتى وأين كانت تلك الحيـــاة .. هل حقا تلك هى الجنـــة .. أم أننى فى كوكب آخر مازال بعيدا عن ركب الحضـــارة كوكب ماتت فيه كل الفيروســـات .. وأصـــاب الناس فيه العقم .. كيف لهـــؤلاء النـــاس بالخلـــود أنهم لا يعرفون المـــوت .. ولا يصـــابون بامراض .. هل يعيشون فى جو معقم خال من الفيروسات .. لماذا أتيت ..

هل لأكفر بالجنة التى أعدت للمتقين .. هل لأرى كم هى بالوصـافها بدائية متخلفـــة .. وما سـبب هذا التخلف .. هل الخلـود يعنى الجمود .. ثم لماذا لا يتناسلون .. هل فقدوا القدرة على الانجاب .. هل تم تعقيمهم .. غريب امر هؤلاء .. الطفل يبقى طفلا .. دون ان ينمو والشاب كما هو .. والعجـوز لا يتحول هرما كيف .. ملاذا يعنى ذلك ؟! هل دائرة الخلـود لا تكتمل حلقتها الا باجتماع تلك الأمور كلها ؟ كانت هذه التساؤلات تصهرنى وأنا اتجـول فى دروب الجنـة .. حدائقهـا .. اكواخها .. أناسـها حيواناتها .. يصحبنى مناع .. توقفت أمام كهف .. مناع يهمس :

ـ سترى هنا عجبا .. الانسان على طبيعته العذراء .

استربت وأنا ارى شـابا عاريا يجـرى خلف امراة عارية يحملها الى الداخل .. وهى تصرخ ..

قلت لمنـــاع :

ـ أنهـا تسـتنجد

أجابنى :

ـ يا مولاى .. يتمنعن وهن الراغبات .

خطوت داخل الكهف والذهول يحتوينى .. وصرختى تسبقنى :

ـ ما هـــذا ؟

ـ أنها جنة اللذة الحسـية .

قلت غاضـبا :

ـ بل مستنقع الرذيلة .

ـ مولاى ملاذا تقول .. أو ليس كل شىء مباح .. أو ليس هذا هو الوعد ان كل ملكان محرما من المتعة يصبح مباحا .

نسر يحظ على قلبى ينهشه .. وأنا أرى ما يذهب بالعقل .. ويوجع الفؤاد .. نساء يطئن نساء .. رجال يعتلون ولدانا .. نساء فى احضـان

رجال .. الجنس يمارس بلا خجل .. موبقات ... سألت مناع فى دهشة :

ـ هل هذه هى الجنة .. الرذيلة فى وضـــح النهار .. أخرجنى من هنا قبـل ان اقتليء .

على باب كهف آخر توقف بى مناع .. أمام مدخل الكهف رجل يرتدى تلفسوة حمراء ورداء اسود .. مناع يرد على تساؤلى :

ـ انه مبروك .. حامى حمى جنة المسكرات ..

مبروك يتقـــدم نحوى يعرض بضـــاعته .. أفيون .. حشيش .. خمور .. نحيته جانبا .. دلفت الى الداخل ... أجساد عشرات السكارى ... والمساطيـــل متناثرة فى اركان الكهف ... وفى الوســـط غازيـــة عارية ترقص وحولها بعض السكارى يصفقون .. واحدهم يزعق :

ـ أرقصى لنا رقصة الاله .

أنهم تائهون عن واقعهم .. حتى عن احلامهم . ضـــاعت الابتسامة منهم .. سألتهِ اجابنى :

ـ ولماذا يبتسمون يا مولاى ؟

حقـــا لمـــاذا يبتســـمون .. فالذى لا يعـــرف الألم لا يعـــرف معنى للابتسامة .. بل أنهم يحاولون صنع الألم .. ليعثروا على هذه الابتسامة دون جـــدوى .. أخـــرجنى من شرذمتى وهـــو يقـــول لى بحمـــاس .. « هيا يا مولاى »

ـ الى أين ؟

ـ الى صومعة العلم والعلماء .

* * *

— ٥ —

توقفت أمام الكوخ مذهولا .. لقد صـنع من الذهب والفضـــة .. وبابه من الأبنوس .. وفوق سـارية المدخل علقت عناقيـد اللؤلؤ وتحتها عبارة « ادخلوها بسلام آمنين » .. خطـواتى بطيئـة وأنا ادلف داخـل الكوخ .. سرداب طويل تحفة اللالىء والتحف .. الأرض فرشت بالتبر .. السقف يتلالأ .. بريقه يخطف الأبصار .. تمتمت ساخرا :

ـــ مرحى بالعلم والعلماء ! !

انتهينا الى بهو واسع .. بداخله ملاعين رأت ولا أذن سـمعت .. جداول من الماء رقراقه تجرى تحتها وفوقها ! ! قرود فى أقفاصـها ونسانيس فوق النار الموقدة تولول وتندب حظها .. طيـور تزقزق وأخرى تزعق فوق أسياخ الشواء .. التفاح الأحمر القانى والأزرق القانى .. والتين والزيتون الأصفر والأعناب الخضراء والصفراء والزرقاء !! غازية عذراء ترقص رقصة خليعـة .. بأردافها السـمينة .. وحولها فتيات صـغيرات لا يتجاوزن الخمس عشر ربيعا .. قلت فى أسى :

ـــ ماذا ارى ؟

أجابنى مذعـاع :

ـــ ما تراه صومعة العلماء يا مولاى .

ـــ ومالهم يستاثرون بكل هذه النعم ؟

ـــ أولياء نعمتك يدعون .. ويصـلون من اجلك .. ويسـيرون فى ركبك ويتعبدون فى محرابك .

ـــ واين قواريرهم ؟

ـــ متخمه بالخمر يامولاى .

ـــ وأبحاثهم ؟

ـ المتعة بحثهم وشاغلهم الشاغل .

ـ ومعاملهم ؟

ـ الذين معاملهم يجرون فيه ابحاثهم ويصنعون فيه أفكارهم .

ـ تقصد بهؤلاء الدهماء وليس العلماء .

ـ خاصتك يامولاى .

ـ ما يضايقنى حقا .. هذا التفاح الذى حرموه على غيرهم من البشر ويستأثرون به . فى تلك اللحظة انفتح باب البهو الكبير . علماء الدين الأفذاذ يخرجون الواحد تلو الآخر .. ومناع يشير الى رجل مربع يتمتم :

ـ انه شيخهم .

تبينت ملامحه .. لم يكن سوى فرهود ..

ما ان رآنى حتى خر ساجدا .. تبعه .. خاصته وهم يهللون ويكبرون :

ـ طلت اهلا .. ونزلت سهلا .

فرهود ينهض يقول لى فى أدب جم :

ـ لقد وليناك يامولاى امرنا فمنذ اليوم انت الهنا نطيع امرك وننفذ رغبتك .

سألته فى غيظ وأنا أشير الى خاصته :

ـ هذه الهوام ماذا تفعل ؟

ـ يتراون كتبك وينادون بتعاليمك حماة شريعتك .. كلمتهم نافذة وتضامنهم لا يرد .

ـ ضد من يافرهود ؟

ـ كل من تسول له نفسه التمرد على شريعتك الغراء .

ـ وبعد ؟

ـ ماذا تعنى ببعد يامولاى ؟

ـ ماذا بعد القضـــاء الذى لا يرد ؟

ـ المصـــير المحتوم .

ـ اكمل فانا منصـــت اليك .

ـ النفى الى الأرض الملعونة نهاية مطاف التمرد والالحاد .

ـ اذن فقد خلت مملكتكم من العلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء .

ـ آفة المجتمعات يامولاى .

ـ بل عصب المجتمعات يانرهود .

قال بدهشـــة :

ـ مولاى ماذا قلت ؟

ـ آفة المجتمعات هى تلك الحثالة التى جعلت من الدين ستارا تخفى خلفه كل الموبقات .. اغلقوا هذه المواخير .

كانت هذه آخر كلماتى قبل ان اترك المكان وانا فى قمة غضبى .

ســـألت فرهود :

ـ ملجر يمتـــه ؟

أجابنى :

ـ الســـحر الاســـود .

ـ وكيف هو هذا السحر الاسود ؟

ـ انظر يامولاى .. هذا ماعثرنا عليه .

الشاب يترنح اعياء .. كلماته خفيضة :

ـ ما بيدى ليس سوى بوصلة يا مولاى .

ـ حقا انها بوصلة .. فكوا قيوده .

بعد ان فكت قيوده علت صيحة عجوب :

ـــ انها اللعنة يامولاى لو تمكن منا مثل هذا السحر الأسود .

قلت بأسى :

ـــ اللعنة لأنه صـــنع بوصلة .

والشاب يعلق قائـــلا :

ـــ انه مصير كل من يفكر فى اعمال عقله .

رد فرهـــود مدافعا :

ـــ ولماذا أعمال العقل .. وكل شىء دان .

ـــ دنو السراب من الظمآن .

ـــ مولاى ان امتلاك هذا الشـــيطان لمثل هذا الســـحر الاســـود .. واســـتئثاره به وعدم قدرة الآخرين لامتلاك مثله .. ســـيهدم نصـــوص دستورنا .. فلا ملكية ولا استئثار ولا اختصاص ولا تصارع .

رد الشاب معقبا :

ـــ فلنصنع مئات مثلها .. آلاف .

ـــ هل سمعت يامولاى .. أنه ينادى بالعمل .. يخرق الســـلام .. هدفنا .. والذى حققنا من خلاله السعادة .

رد الشـــاب قائلا :

ـــ وما سبب مانراه من تخلف وبدائية ؟

ـــ اى بدائية واى تخلف ، قد حققنا الســـعادة السرمدية بعـــد ان اصبح كل شىء فى متناول اليد الطعام والشراب والمرأة .

ـــ هدف الجنة ليس المتعة الحسية .. بل الحضارة والتحضر .

صرخ فرهود :

ـــ هل ســـمعت يامولاى .. أنه يريد العـــودة بنا الى الخلف آلاف السنين .. حيث تصـــارع الرأى والخـــلاف حـــول المبادىء والنزاعات السياســـية والفوارق الاجتماعيـــة وفى النهاية .. الصراع والأنانية وحب الذات والقلق .. والملكية المسمار الأخير فى نعش السلام .

قال الشاب فى ثقة لا تخلو من غرور :

ـ انظر الى القوم يامولاى .. ديدان حقيرة تتسـعى فى الارض تتمو على روث البهائم ومخلفات الانسـان .. فليامر مولاى بعودة الفلاسـفة والعلماء والادباء من الأرض الملعونة الى الناس يختلطون بهم .. يقيمـون بينهم .. ولتكفل للجميع الحرية فى اعمال عقله .. فيكتب الأدباء ويتحدث الفلاسفة .. ويخترع العلماء .. لا حجر على الفكر والعقل .

نظر فرعود الى أعلى .. زعق بأعلى صوته :

ـ هذا يعنى العودة لقانون العمل .. للعذاب .

قال الشاب بجراة ووقاحة :

ـ هل تعلم ماهى آفة المجتمعات يافرعود ؟

صمت قليلا .. ثم استطرد قائلا :

ـ انتم رجال الدين بعد ان حولتم المضـمون الى شكل .. حولتم ارادة العمل الى طقوس وعبادات سـقيمة .. حولتم العلم الى بخـور .. وأضحية .. وادعية .. وزيارات تدسـية وابتهالات .. ودعـوات .. وتشنجات .. وجن .. وشياطين المضمون اصـبح مجرد صورة وضـعت فى اطار مقدس يرهبه الجميع .. ويخشـاه الكل يسـجدون له وينشـدون له الأهازيج يعتصرون منه الخرافات .

سألت فرعود فى دهشة :

ـ هؤلاء الذين يعذبون انفسـهم لماذا لم تمنعوهم ؟ .

ـ لأنهم لا يضرون غيرهم .

ـ اذن فلماذا نضع قيدا على حرية من يريد العمل . من يرغب تعذيب نفسـه بالعمل فليفعل .

ـ اهل الجنة لا ينطبق عليهم شريعة الدنيا .. هكذا علمتنا .

ـ وهذه اليوم شريعتى .

ـ تنسخ اذن شريعتك يامولاى .

ـ اخالك فهمت ما قلت .

ـ ثورة هي اذن ما تنادى به .. فقد تعود الانسان الكسل لا يتحرك الا بمقدار حاجته للطعام فكيف تلزمه بالعمل ؟

ـ العمل اليوم حق وغدا واجب ..

ـ ولكن يامولاى من يعمل يملك .

قلت مؤكـــدا :

ـ ومن لا يعمل لا يملك .

بعدها رأيت الشاب يقفز كمجنون فى دروب الجنة وهو يصرخ :

ـ اليقظة .. اليقظة .

فرهود يرمقنى بعينيان ثاقبتان .. يعلن غضبته فى كلمات قليلة :

ـ لن يرضى قرارك هذا خاصتك يامولاى .

ـ ٧ ـ

صـــخبت على اصـــوات تهدر .. رجال ونســـاء واطفال يطوفون البيت .. يصرخون بهســـتيريا .. دحروج .. والدصـل .. وســليم .. وفرهود وسليط وبسطاوى .. ائمة الدين يتزعمون ثورة الغضب .. خلفهم الأتباع يصرخون يولولون .. الغريب انني لم ار دمعة واحدة مجرد صرخات احتجاج .. يشعل نارها رجال الدين :

ـ نريد الاله .. نريد الاله .

مناع يقتحم على خلوتى وهو يرتجف .. نبرات صوته كلها تحذير :

ـ لا تخرج اليهم يامولاى .

ابتسمت لا أدرى سخرية .. أم شـفقة على هؤلاء التعس .. ماذا يريدون .. لقد اغواهم رجـال الدين ليتمردوا علي .. لم انس نظـرات فرهود .. ولا كلماته لى .. انهـا بداية صراع بينى وبين هؤلاء المتخمين المترفين .. مناع من جديد يحذرنى وانا اخطو للخارج يحاول ان يمنعنى :

ـ دعهم سأتكفل بهم يامولاى

قلت بثقـــة :

ـــ لن تمر دقائق الا وينصرفوا .

وقت الشـــــدة والازمات كان الطيف يأتينى .. يشـــد من أزرى .. يأسى آلامى .. يحمـــل عنى همـــومى .. ينصـــحنى .. لكنـــه اللحظـــة بعيد عنّى . منذ ليالى وانا أترقبـــه .. بلا جـــدوى .. كم انا فى حاجـــة اليـــه يلهمنى للـــرأى الصـــائب .. ماذا أنا فاعل بهـــؤلاء القـــوم .. مر الوقت لكن دون جـــدوى .. الهياج يشـــتد .. والصرخآت تعلـــو .. تحيت مناع جانبا .. اخذت طريقـــا نحو القـــوم .. نور رؤيتى .. حل الصمت .. الوجوم الا من بعض همهمات .. همســـات متفرقة .. طاطات الرؤوس وأنا اقترب من زعيمهم نرهـــود .. واجهنى بســـحنته القذرة .. وجسده الفارع وصوته القمىء :

ـــ لا نريد غير جثتنا بديلا .

اقتربت أكثر حتى كدت أن الامســـه والأصـــوات خلفـــه مبعثرة .. مؤكده .. مؤيده . فى اللحظـــة التى خايلتنى فيها الأفكار للتخلص من هـــذا المأزق .. احتـــوتنى قوة خارقة .. أنـــه الهاتف من جـــديد .. يأتينى .. يضـــمنى .. ارتفعت نبضـــات قلبى .. غلى الدم فى راسى .. انتفضت عروقى .. وماذا بعـــد .. اننى املك اقتـــدارهم اقتربت من نرهـــود .. لمسته .. خلت أننى صعقته ارتعد .. ابتعد .. وهو يتمتم :

ـــ لن تستطيع معى شيئا .

التقطت نرع شجرة .. انحنيت الى الأرض خططت عليها سألت نرهود

ـــ ماذا ترى ؟

اجابنى بعدم اكتراث :

ـــ رسم فرد لا يعنينى فى شىء .

قلت فى ثقـــة :

ـــ انظروا ياقـــوم .

تواكبت الانظار .. ضاقت الدائرة مصمصت الشفاة وانا استطرد قائلا :

ـــ هذا مصير من يعصى اوامرى .

اجابنى فرهود فى سخرية لاذعة :

ـــ هيا اسخطنى لقرد ثم اشوننى على النار اكلا شهيا .

حل الصمت .. الجمع في مخاض الحقيقة .. كيف يتحول فرهود لقرد للحظة تراجع امامى وانا الفه بنظراتى .. يستجمع شتات ارادته التى بعثرتها يحاول الافلات منى وهو يشق بيديه الدائرة البشرية .. خنيتة من خصلة شعره قلت :

ـــ هنا مكانك لا تبرحه حتى يأتى أمرنا .

الصمت مطبق .. الهمسات يذبحها الفضول .. الخوف .. الرعب وفرهود يخر ساجدا يطلب العفو يستجدى :

ـــ لا تفعل .. لا تفعل يامولاى .

صحت فى نشوة :

ـــ خذوا هذا القرد واشووه فوق النار .

الذعر يكتسح الجمع يذهب بعقولهم وهم يشاهدون فرهود يزحف نحوى وقد تحول لقرد يبتهل يقبل قدمى .. مستجديا المغفرة وقبل ان اخطو مبتعدا عن المكان حذرته قائلا :

ـــ عفونا عنك ولتكن هذه هى المرة الأولى والأخيرة فى سلسلة عصيانك

* * *

سـألني مناع بلـــتحياء :

ـ مولاى ألا يزعجك أن اسألك .

ـ افصح ما بصـــدرك يامناع .

ـ لقد راى القوم فرهود أثنـــاء التحول من انســـان لقرد ثم من قرد لانســـان .

تاطعته ســـاخرة :

ـ ما عداك أنت يامناع !

ـ بالعكس يامولاى .. فقد رأت عيناى مالايمكن أن يصدقه بشر .. لكن سؤالى .. لماذا عجزت عن رؤية الحملة المذبوحة .. وراسى المشطورة

ـ لقد ذاب الشك من داخلك الى يقين .

ـ مولاى ســـألتك مرة من أنت ولم تجبنى لك قـــدرة الاله ومع ذلك بانت تحمل صفات البشر .. تاكل وتشرب وتغضب وتضـــحك وتتالم .. من أنت ؟

ـ انا الناس .. والناس أنا .

ـ ولكن الناس لا ياتون معجزاتك .

حاورنى فكرة طريفة ســالت مناع بعدها :

ـ مناع .. هلا ابتسمت ؟

ـ كيف يامولاى .. وهى احدى صفات الاله .

همســت له :

ـ لو عرفت معنى العـــذاب .

ـ كيف يامولاى ؟

ـ بأن تصبح مثلى تحس للناس وتنفذ الى مشاعرهم .

- ٨ -

امتطينا راحلتين .. رحلة طويلة نجوب فيها ارجاء الجنة الفسيحة ..

سألت منـاع :

ـ أين تنتهى ؟

ـ عرضـها السموات والأرض يامولاى .

ابتسمت .. سألنى منـاع فى دهشة :

ـ مولاى يبتسـم .

ظلت سـاخرا :

ـ اذا كان هذا عرضها فما طولها ؟

ـ هذا علمك الادنى .

البغال تسير فى طريق صخرى ضيق .. فوق خور عميق .. الطبيعة فى احضانه ساجدة .. الأشجار تنمو على جدران الخور بميل حاد .. يخيل للرائى انها ستسقط فى اعماق الخور عندما تعانقها نسـمة هواء .. ولكن ضفائرها الخضراء تتارجح فوق صدر الجبل الناهد .. كم هى خلابة تلك الطبيعة .. الصـباح مندى برائحة الازهار .. القمـة مرتفعة .. اقتربنا منها .. منـاع خلفى صامت .. لا ادرى ماذا دهاه فى الأيام الأخيرة .. علت وجهه الكآبة . اعتراه الحزن :

ـ ماذا بـك ؟

ـ امور كثيرة تضج بها نفسى .

ـ تكلم يامنـاع .

ـ مولاى .. تحمل صفات الآلهه وفيك عجز البشر .

ـ عدت من جديد لنفس الدائرة المفرغة .

ـ مولاى اننى احمل مما لا يطيق حمله رواسى الجبال .

ـ انصح عما بقلبك .

ـ تملك القـــوة .. والقدرة .. والاعجاز لكنك لا تستطيع أن تعرف مكنـــون نفسى .

ـ وهـــذا ما يقلقك .

ـ بل ما يقلقنى هو عجزك عن معرفة السر الأعظم .

ـ ويحك بدأت تكفر بى .

ـ بل هى تساؤلات .

ـ حدثنى اذن عن هذا السر الأعظم .

ـ من يملكه فقد ملك القوة والسلطان .

ـ أنا منصـــت لك .

فى تلك اللحظة دهمتنا صرخة .. صرخات .. خلف الغبار المثار .. ثلاث رجال .. احاطونا كالســـوار شـــحوا وثاقنا حملونا الى مغارة عميقة فى بطن الجبل التســاؤلات تصهرنى .. وسيد العصبة يواجهنى :

ـ انت اذن الاله .

لم أرد عليه .. قهقه ســـاخرا :

ـ الا تمسخنا لقرود .

العصبة تتضـاحك وكئوس العرقى تعبّها أفواههم الشرهه الكريهه .. امسـك الرجل ببعض شعيرات لحيتى .. صرخ مناع :

ـ أبعد يدك القذرة عنه يا شهبور .

ان مناع يعرفه .. بنادية باسمة !! لم يأبه شهبور اقتلع الشعيرات من لحيتى .. أرسلها الى النار .

قهقـــه من جديد :

ـ بخور تتبرك برائحتها الكريهه .

ومناع يصرخ من جديد :

ـ ليس مولاى بغيتك .

تقدم الرجل نحوى .. داس اصابع يدى فى قســـوة وعنف .. احالها الى كتلة من اللحم والدماء ندت عنى صرخة ...تمتم :

ـ تولول كالنســـاء .

منـــاع يتوســـــل :

ـ دعه ياشـــهبور .. اللعنة آتية .

ـ ليس قبل ان تسر لى .

منـــاع من جديد فى أسى :

ـ اللعنة من جديد .. ياحسرتاه .

ـ سترى بمن تحل اللعنة نحن ام انت وهذا المعتوه .

قال ذلك ثم امســـك بكـــوب من العرقى .. قربه من شـــفتى .. اطبقت فكى .. ضغط عليهما بقبضة من حديد .. انفتحا .. صب فى حلقى الســـائل البنى الغامق .. انقلبنى ســـمال هائـــل .. اعقبهـــا بكلماته وضـــحكة عربيدة :

ـ اشرب حتى تنسى ما ينتظرك .

يد شهبور تمزق جلبابى صوته يتردد فى جنبات المغارة :

ـ لحم ابيض كلحم النساء .

امسك بالسوط .. رفعه فى الهواء صرخ مناع :

ـ اتركه ياشهبور .. سأتكلم .

صرخت أنا الآخر محذرا :

ـ اصمت فحديثك يحمل نذر الموت لنا .

صـــمت مناع .. اشـــاح بوجهه عنى .. وشـــهبور يلهب ظهـــرى بسوطه المرة تلو الأخرى .. فى تلك اللحظة احتوتنى قوى خارقة وأنا اتلقى الضربات .. لقد اســـتطعت تطويع جســـدى . حولت الالم الى طاقة من الارادة . لم أعد أشعر بشىء .. لقد فقدت الاحســـاس بالألم بالزمان .. بالمكان .. البسمة لا تفارق شفتى .. أحدهم يهمس :

ـ كفى ياشهبور فالرجل فى عداد الأموات ..

فى تلك اللحظات وشهبور ينهال على بســـوطه فاضت على الرؤى .. نبع فاض على شطيه فاغرق كل ماحوله .. أنه يغرقنى أنا الآخر .. جسدى

بتزحلق .. اغوص فى اللا نهائى .. تحوم حـولى الذكريات .. انتزعهـا انتزاعا .. اطـوف بها ارجاء الكـون .. صرخة تهب فزعة منى وانا ارى الرجال يبحثون عنى .. يضلون طريقهم :

ـ لا تخطئوا الطريق .

تردد شهبور .. امسك عن ضربى . فى يده قنينة العرقى .. تقـدم نحـوى .. افرغها على جسـدى .. سـياط من النار تلهب جروحى .. ترنحت من هول الألم الذى عاودنى .. احدهم يهمس :

ـ عاد يجز على اسنانه .

بعدها رحت فى غيبوبة .. استيقظت منها وجسدى كله ينبح بالألم .. شهبور نائم يشخر بجواره اثنان من عصـبته .. متـاع مسـتلقى على الأرض .. جزوا لحيته .. وحلقـوا شـاربه .. واحـدى حاجبيه .. ابتسمت بمرارة .. غاضت الابتسامة وانا ارى آثار التعذيب .. جرح قطعى عميق فوق جبهته .. آثار كدمات على رقبته . استيقظ شهبور .. لكز متاع بقدمه .. تهقه وهو يقفز حوله :

ـ العفريت .. العفريت ! !

اخذت ملامح وجهه سمات الجد وهو يسأله :

ـ اين الأيتـونة ؟

خضـت فى بحر التسـاؤلات وهو يدوس رقبته بقدمه المفرطحة .. يسأله من جديد :

ـ اين هى .. تكلم .

الصـمت مطبق .. فم متـاع مطبـق .. خيط باصراره برفضـه شهبور يصرخ :

ـ سأغيب هذا الاصرار يامنجى .. اخلع عن الرجل ثيابه بدأ منجى فى خلع ثيابى .. لم يتبق سوى سروالى .. قال شهبور :

ـ كل ثيابه .. اريده كما ولدته امه .

يستطرد وبعدها قلقله :

ـ ميا يامنجى .. امامك لحم ابيض قد يغنيك عن طفـل تطاه بعد

طـول حـرمان .

فى تلك اللحظة وانا ابصر منجى قادما نحوى عاريا .. منتصـبا .. وسؤالى الحاضر تلهث به نفسى .. لم كل هذه القسوة .. الامتهان ؟!

فى تلك اللحظـة تقلصـت معدتى .. تعثرت انفاسى .. تقلبت وهو يقترب منى يلمس بيده عجزى العارى .. مناع يزعق :

ـ أتركوا مـولاى .

ـ ١٠ ـ

تهت داخل زوبعة من الانتقام .. تمنيت فى تلك اللحظة ان تنفك يداى من قيدهما .. لاطوق بهما عنق هذا الشهبور حتى الموت .. زهوة الانتصار تتخايل على كلمات شهبور :

ـ دعه يا منجى وداري جسده فلم تكن تجنى سوى السراب .

القوة الخفية تتأهب لمصائلها .. باتت على مشارف نفسى .. العرق يتفصد من جبينى .. استشعر بها .. تضمنى اليها .. احس بلهثة انفاسها بصـهد حرارة انصـهارها امتزاجهـا بنفس .. بكيانى .. خيالى يتدفق للمجهـول يحطم مزلاج بابه . يخلـع على الواقـع بردة الامان .. انهم قادمون لانقاذى انهم يسرعـون .. يسـتحثون دوابهم دليلهم يقتص اثرنا وصرختى تهب فزعة :

ـ هيا .. فقد ضاقت بنا وضقنا بهم .

شهبور يتمتم ساخرا :

ـ بدأ الرجل يخرف .

وفى اللحظة التى تهيأ فيها مناع لافشـاء السر اقتحم المكان واحد من العصبة نبرات صوته حادة :

ـ انهم آتـون .

شـهبور يسـأله :

ـ من تقصـــد بحديثك ؟

ـ لا ادرى .. اثنان .. ثلاثة .. اربعة .. او اكثر فى مدخل المغارة شاهرين اســـلحتهم .

وجم شـــهبور .. انتابت مناع صـــتيريا . فرحه غامرة .. توالت صرخاته :

ـ نك قبدنا يامعين .. لقد ناداهم مولاك ولبوا النداء .

معين متردد .. وصوت مناع يحثه قائلا :

ـ أطلب منه المغفرة قبل فوات الأوان هيا يامعين .

معين يتقدم نحـــوى .. ســـوط شـــهبور يلهبه يتراجـــع .. يحاول ان يهز عقيدة معين بكلماته :

ـ مخبولان انضم اليهما مخبول آخر هيا لنخرج من هذا الكهف ..

وفى اللحظة التى تهيأ للخروج اســـتل معين خنجرا .. غرزه فى ظهره شـهبور يترنح .. وقبل ان تحتويه غفوة الموت تمتم :

ـ خائن .. خائن .

* * *

معين يفك وثاقى .. منجى يجثو فوق قدمى يتمتم :

ـ المغفرة يامولاى .. المغفرة .

فى تلك اللحظـــة دهمتنى رغبة عنيفة فى الانتقـــام من هـــذا الخنزير المترهل .. تمنيت لو أقبض بكلتا يدى على رقبتـــه حتى يتدلى لســـانه .. اطاه كما حاول معى منذ الوجيزة داهمتنى تلك الرغبة المجنونة ومناع يسألنى وهو يقبض بيده خنجرا .. لامس نصله رقبة منجى :

ـ آمرنى يامولاى أجز رقبته كالشـاة .

كيف تعلق حياة انسان على اشـــارة .. كلمة .. بضع حروف يصبح بعدها « منجى » عدما هكذا وبدون محاكمـــة .. الخصـــم هو القاضى هو الجـــلاد .. أى نوع من العـــدالة هذا .. اختلطت على الأمور تشابكت ..

العدالة والظلم .. القوة وشهوة الانتقام .. منذ لحظات كان شهبور فى موقع القوة .. وكانت له عدالته الخاصة من اجل الحصـــول على الأيقونه ومنطق عدالته كان يقضى بالمـــوت على كل من يعترض طريقـــه نحو هدفه .. عدالة ارتضـاها هو وأعوانه .. انموذج من عدالة كثير من الحكام مع شعوبهم .. لايهم سوى الغاية .. وللوصول اليها تضيع رقاب وتقطع السنة .. وتخمد انفاس .. ويبقى الحاكم بجحافل ظلمه أمام رياح الغضـــب هـــامدا .. سنوات .. سنوات وهو يعبر شعبه الى أن تهب رياح الثورة فتذرو الرمال وتقتلع اشجار الســـخط والظلم والاظلام وتتهدم عمائر الفساد والافساد .. وبعد ان تهدأ رياح الغضـــب نتيـــتم مكان الجثث المتعفنة رائحة الياســـمين والأمل .. تهت فى دوامة تساؤلى .. هل يمكن أن تكون عدالتى الخاصة مثل عدالة شـــهبور .. مثل عدالة هؤلاء الحكام .. جالت تلك الخـــواطر على ذاكرتى وأنا أدفع منجى بقدمى :

ـــ اذهب فأنت طليق .

بعدها ســـألت منـــاع :

ـــ أنظر من كان القادم الينا .

واحتوتنى الدهشة ومناع يعود الى بخفى حنين يقول لى :

ـــ لا أحد يامولاى .. لا أحد .

* * *

أثناء مسـيرتنا سألت مناع :

ـ لم تحدثنى عن السر الاعظم .

اجابنـى فى تردد :

ـ انها الايقونة يامولاى .

ـ وماذا بهـا .

ـ تحمل سر الحياة فوق الجنة التى نعيش على أرضها .

ـ حدثنى منهـا .

ـ لا استطيع يامولاى .

قلت متضـايقا .

ـ فقدت الثقـة بى .

ـ مولاى انها اللعنة لو أفشيت بالسر .

ـ تخشى أنت من اللعنة لو صارحتنى .

ـ حقـا يامولاى .

ـ ورغم انك تعرف فلم تحدث اللعنة التى تخشاها .

ـ لقد اقسمت يامولاى على ألا أبوح بالسر الاعظم .

ـ وتلك الأيقونة تحمل هذا السر الاعظم .

ـ نعم يامولاى .

ـ لذلك فقد تعقبنا شهبور .

ـ من ملك الأيقونة ملك القوة والسلطان .

ـ ماذا تخشى عنى يامناع .

ـ مولاى فلنترك الناس يعيشون واقعهم .

قلت بغضب :

..

ـ مهمتنا أن نغير هذا الواقع الى افضل .. نبحث عن الحضارة .. ننهل من منابعهـــا .

قال فى يأس ومرارة :

ـ وما جدوى ذلك ؟!

دهشت .. قلت فى اسى :

ـ أنت الذى تقول ذلك .

ـ للأسف يامولاى .. نعم .. فاليأس يعشش على رفات الأمل .. الأمل ذبيح .. ذبيح يامولاى .

ـ ١٢ ـ

سألت مناع ونحن نترك الراحلتين :

ـ اين نحـــن ؟

أجابنى :

ـ نحن فى الوادى المقـــدس .

ـ ولماذا هو مقـــدس ؟

ـ وادى الأنبياء يامولاى .

ـ وماذا فيـــه ؟

ـ أنظر لترى بعينيك .

ـ لا ارى أمامى سوى أسوارا من الشوك والأنبته البرية .

ـ داخل هذا الوادى يقطن الأنبياء .

ضحكت حتى كدت أن أستلقى على ظهرى .. قلت ساخرا :

ـ حيا اذن لا تضـــيع وقتنا .

دهش مناع .. عاوده الوجوم الذى فارقه منذ أيام .. قلت فى قلق :

ـ كأنى قلت أمرا غريبا .

ـ هذا مكان مقدس يامولاى لا تطاه قدم .. والا حلت اللعنة ..

قلت ســـلخرا :

ـــ انك ترهبنى .

قال فى سذاجة عفوية :

ـــ لم اقصد ذلك يامولاى .

ادرزت ضيقى فى كلمات :

ـــ او ليس الأنبياء بشرا .

ـــ بلـــى .

ـــ اذا لماذا يستكثر علينا أن نتحدث اليهم .

ـــ تقصـــد اننا نســـتطيع نقاشـــهم به يخلجنا من افكار وآراء وشكوك .. ولا تحل علينا اللعنة .

ـــ اى لعنة يمكن ان تحدث عندما نتحدث مع احد الأنبياء .

ـــ مولاى سامر لك امرا لكن كل ما ارجوه ان لا تغضب منى .

ـــ انا منصـــت اليك يامناع .

ـــ كثيرا ما حاورنى الشك فى هوية هؤلاء الأنبياء لكن لم استطع ان أعلن شكوكى خشية اللعنة .

ـــ أذن فقد اتيت هنـــا قبلا .

ـــ وتلصصت علنى اقطع الشك باليقين .. وما رايته أغرقنى فى بحار من الشـــك اللعين .. فقد رايتهم .. غادون .. رائحون .. بشر مثلنا .. يضحكون .. ويغضبون يتحدثون ويأكلون .. يستمتعون .

ـــ كيـــف ؟

ـــ كل شىء ملك يمينهم .. لو طلبوا لبن العصـــفور لنالوه .. انهم خاصة الخاصة .. انظر يامولاى هذا الرجل العارى .

ـــ ماذا يفعـــل .. اراه عاريا .. يتسلق شـــجرة ثم يهبط منها ثم يعود ليتسلقها من جديد وفى يده تفاحة .

ـــ انه ابو البشرية يامولاى .

ـــ وهذه المرأة التى تتبعه ؟

ـ حـــواء .. زوجتـــه .

ـ وماذا يعتقد انه يفعـــل ؟

ـ انه يؤدى نفس الدور الذى قام به عندما هبط من الجنة الى الأرض وخلفه حواء تنوح وتندب حظها تشيعه نظرات الأنبياء بالشفقة والحسرة .. استمع يامولاى ماذا يقـــول :

ـ يا أنبيـــاء الله .. ماكنت أعرف ان عقابى ســـيحيق بكم كل تلك الكوارث .. ومع ذلك فلرب ضارة نافعة .. فلو لم اهبط الى الأرض ملكان لوجـــودكم معنى ولا حصـــلتم على هـــذا المقام الرفيـــع فى اذهان البشر ولا أحاطتكم تلك القدســـية وهذه الهالة التى تقطع اى لســـان يتطاول على ســـيرتكم المقدســـة .

قلت لمنـــاع فى حســـم :

ـ هيـــا .

سألنى فى دهشـــة :

ـ الى أين يامولاى .. والطريق ملىء بالأشواك .

ـ نحادثه .. ويحادثنا .

ـ اعفنى يامولاى .. فهذه مهمة الآلهة وليست مهمة البشر .. لكن كل رجائى أن تكون رفيقا بهم بهم خلصة خاصتك .

* * *

- ١٣ -

اقتربت من ابى البشرية .. نظر الى بدهشة تملكتى الرعب .. الشعر يكسو كل جسده اللحية مسترسلة .. شعر الرأس مجعد .. القوام فارع .. عينان جامدتان عينى صقر .. فور رؤيتى صرخ :

ـ من اذن لك بالدخول ؟

ـ جئتك زائرا .

ـ من انت ؟

ـ واحد من نسـلك .

ـ وكيف تجرات .. الا تعلم ان هـذا الوادى المقدس محرم على امثالك من الصعاليك .

اول القصيدة كفر .. قلت وانا احاول السيطرة على انفعالاتى :

ـ سيدى انها محاولة للوصول الى الحقيقة .

ـ اية حقيقـة ؟

اقترب منى لمس راسى بكف يده الضخم سالنى .. وهو يضحك :

ـ اين وبر راسك هل اكله النمل .

ـ انه التطور يا اب البشرية .

ـ يوصلكم هذا المجهول لرأس ناحل بلا وبر .

ـ الأهم هو مابداخل الراس لا بما يزرع فوقها .

مددت يدى بورقة تفاح وانا أتمتم :

ـ دارى بها عورتك .

ضحك من جديد هذه المرة لم يكن ضحكا انما كان اقرب للزئير ظهرت انيابه حادة .. لامعة كنصل سكين .. سالته فى سذاجة عفوية :

ـ اسنانك .. قصدى انيابك ناصعة بيضاء .. اى معجون تستعمل

ظلت حوله بحذر .. اقترب منى .. همس :

ـ معجون الأنبياء بالكلوزوفيل .

ضـــحكت .. كيف له بهذه المعلومة .. فى الحقيقـــة بدأت اقترب منه بفكرى .. انه « جاهـــز » أعـــد نفســـه لكل شىء .. على أن أهجم بكل حججى .. ســـألته :

ـ وهل دعوتك أيضا كانت بالكلورفيل ؟

ضحك من جديد .. أحلف باغلظ الايمان .. أننى ماسمعت مثل هـــذا الزئير من قبل ولن اسمع مثله كل جســده يتأرجح .. أنه ابن نكته يســعى اليها .. ويسر منها .. أجبته :

ـ لا يا ابى .. أقصد ياجدى .. الدعوة بلا رتوش .

ـ ماذا تريد أن تعرف ؟

ـ رغم انه لم يصـــلنا بالتحديد جوهر تلك الدعوة ورغم أن تبنى الخير ونبذ المعصـــية دعوة تدعو اليها كافة المجتمعات الدينية واللادينية .. رغم هذا كله فلى سؤال .. هل يمكن أن يعصى نبى ربه ؟!

ـ أبدا فهذا من سابع المستحيلات .

ـ وماذا فعلت أنت .

انشـــق غاضـــبا قال :

ـ تتهمنى بعصيان ربى .. خسئت .

ـ هذا ماوعيناه منذ نعومة أظفارنا .

ـ افتـــراء .

سألته فى دهشة واستغراب :

ـ ألم يحرم ربك عليك شجرة التفاح ؟

ـ بلـــى .

ـ ومع ذلك تقول افتراء .. كيف بالله عليك ؟!

ـ سأنير لك الطريق .. انظر من هذه الطاقة الالهية .

ـ أننى لا أرى شـــيئا .

••

ـ لأنك لا تملك عين النبوة !!

ـ وما عين النبـــوة ؟

ـ تستطيع بها أن ترى المنظور والمخبوء .

ـ لذلك فأنت ترى مالاتراه .

ـ هذا حال الرســل والأولياء والصـــالحين خصهم الله بها وأنعم عليهم بما يميزهم عن سائر البشر .

ـ أذن فلا عجب أن نسمع عن الرســل الذين كانوا يبصرون الملائكة والجن والعفاريت دون غيرهم من سائر البشر .

ـ نعم .. صدقت .

ـ كيف هل تحمل مثل هذه العين عدسة ميكرسكوب أم ان لها قرنية سحرية لديها القدرة على كشف المجهول ومعرفة المخبوء . فاجأنى بسؤاله :

ـ أيضا ستنكر أنك لم تسمع عن أذن النبوة !!

ـ هى الأخرى تسمع مالايسمعه البشر .

ـ صدقت فهى التى سمع بها الأنبياء حديث الله مباشرة او بواسطة ملاك .

ـ وأين العقل فيما نقـوله ؟

اجابنى محتـــدا :

ـ فى الحذاء اذا كنت ترتديه !!

ـ اذا فأنت ترى مالاتستطيع رؤيته .

ـ هل ترى تلك الأرواح الهائمة ؟

ـ الأرواح .. بدأت تسـخر منى يا ملك الكون ويا أب البشرية .. قهقه .. ربت على .. انطرحت أرضـــا .. كم يده ثقيلة .. قهقه من جديد وأنا أزحف لأقف أمامه .. تزما صغيرا تمتم :

ـ ظلك خفيف .

ـ تقصـــد ظلى قصـــير .

ـ انظـــر .

قلت مدهوشـــا :

ـــ اننى لا ارى ســـوى فراغ .

ـــ اذا كنت لا ترى أكثر من بشريتك فاجعـــل من حديثى معك منظارا للمجهول ترى به الأسرار الخفية التى يعجز البشر عن رؤاها .

ـــ وهكذا تتوه الحقيقة وسط الضباب .

ـــ آذا قلنا أن الانسان لا يســـتطيع ان يرى بالعين المجردة على مدى البصر ابعد من الف متر فهو يســـتطيع ان يرى بالمنظـار اكثر من خمســـة آلاف متر .

تخايلت على الشـــكوك .. فكيف له بمعرفة المنظار والمتر .. أو ليس آدم هذا الذى يحدثنى .. قد يكـــون آدم آخر مثقف .. قلت له والحـــيرة تنهشـــنى :

ـــ الى أين تتجه بحديثك .

ـــ مثل آخر .. الأمى الذى يعجز عن الكتابة والقراءة .

سكت قليلا ثم استطرد قائلا .. بالمناسبة هل أنت أمى ؟

اجبتـــه فى ثقـــة :

ـــ بل أنا ابـــى .

التقط المزحـــة ضـــحك من جديد .. اغترفنى فوق يـــده يدللنى .. أستطرد قائلا :

ـــ الأمى الذى لا يستطيع ان يميز بين الألف وكوز الذرة .. لايدرك معنى تلك الحروف المكتـــوبة .. لكن ليس معنى جهله بها أنها مطموســـة المضمون . والأعمى يرى الدنيا شريطا أسودا .. ولكن هذا لا ينفى وجـــود اشجار خضراء وورود حمراء .. وزهور بيضاء .

قلت وقد احتوتنى هزة .. صدمة .. فانا اســـمع حديثا غريبا .. قوى الحجة .. متين البنيان .

قلت متسائلا :

ـــ تقصد بحديثك النســـبية .

ـ مهلا .. هذه الأرواح الهائلة ليست سوى طاقة لا يقيدها مادة .. داخل مملكة لها نظـــام دقيق ينتظمها ملك واحد اله واحد .. ثم الأتباع .. الكل يعمل فى سعادة لكن مايناط بها من أعمال ليس لها مثيلا على الأرض .. أعمال من شانها تنظيم حركة الكون من رياح واعاصير من مطر وســـحاب من زلازل وبراكين .. من اجرام وكواكب وشـــموس .. مملكة اختفت فيها الماديـــات .. هـذه المخلـوقات او الأرواح تسـتمد طاقتها من البطارية الالهية .. مملكة لا حدود لها .. اختفت منها الطبقات .. فالكل سواء .. مخلوقات تعمل وتتعبد وتصلى بالتجلى على الخالق .. طاقة لها القدرة على الانتقال من مكان لآخر بسرعة البرق .. دون ما حاجة الى ســـيارات أو طائرات .. ايونات خلية تحـوم حـول الذرة الالهية .. ما يميزها صـفة المعرفة .. المعرفة الكلية للخالق يقابلها المعرفة الجزئيـة للمخلوق .. الكل يعرف الجزء والجزء يعرف الكل فى حدوده الضيقة .. هذه المخلوقات تعيش فى سلام .. ولكن عندما حاول بعضها التمرد على الناموس الالهى .. حلت اللعنة عليهم فسـجن البعض داخل شياطين وسـجن البعض الآخر داخل غرائز انســـان .

سألته والذهول يحتوينى :

ـ كيـف ؟

ـ ماذا تقصـــد بكيفك تلك ؟

ـ أعنى بها كيف تمرد البعض على الناموس الالهى ؟

ـ أخطاء .. ولكنها ليســت كتلك الاخطاء الشائعـــة على الأرض كجرائم المال والنفس ابدا .. بل هى أخطاء تتصل بالذات الالهية .

ـ صلة افتراضية تجمع الله بتلك المخلوقات لا يسندها دليل منطقى او نظرية علميـــة .

لم يأبه لملاحظتى بل استطرد قائلا :

ـ هذه المخلوقات ليست سوى جزئيات من الخلية الالهية .. مصابيح صغيرة بضيئها مولد ضخم .. قد ينطفا بعضـــها .. بينما يبقى هو أبدى

متجدد غير منتقص ..

مرت فترة قصيرة من الصمت قبل ان يستطرد قائلا :

ـــ هذه الأخطاء جاءت نتيجة محاولة هذه المخلوقات التشبه بملكها الأعظم فى ممارســـة سلطاته التى يستأثر بها .. فانزلقت بهذا الى خطأ جســـيم انتهت عن اتيانه .. وبالتالى أصبح الناموس الالهى معرض لهزات التغيير من هذه المخلوقات التى ســـخرت قوتها وارادتها لاحـــداث هـــذه التغييرات كلما عن لها ذلك .

ـــ وحق عليهـــا الرجم .

ـــ لم يكن امام الله ســـوى أن يضـــع هذه المخلوقات داخل نواميس محددة .. اطار لا تخرج عنه .. لم يسلبها ذاتها وارادتها المستمدة منه .. بل حد من قوتها اللامحدودة .. وســـجنها فى المحدود .. جســـد وغرائز ورغبات ومطالب فأصبحت تلك القوة الهائلة نزيلة سجن اسمه الجسد من اللحم والعظام والانســـجة الرخوة .. وليست عبقرية الانســـان واكتشـافاته واختراعاته ســـوى الترجمة الحقيقية لهـــذه الطاقة الغير محدودة الكامنة فى الجسد المحدود .. ولو اهتم الانسان باكتشاف هذه القدرات الهائلة داخله لاستطاع فى النهاية أن يطوع هذا الجسد لخدمة تلك القدرات .. ولا عجب عندئذ اذا رايناه طائرا فى السماء السابعـــة وحده دون اجنحة .. أو عابرا الفلك دون سفينة نوح أو رافعا على يديه طائر الرخ الضخم .

ـــ خيال .. خيال نحن فى مملكة الخيال .

ـــ يا حفيدى المسكين .. بعد أن يكتشف الانســـان قدراته الداخلية ويعرف أسراره الغامضة .. ســـتجد ان كل شىء فى الوجود أصـــبح طوع ارادته ولن تجد فى آتيات مثل تلك الخوارق أية غرابة .

قلت له حائرا :

ـــ اكمل .. اكمل .

وبعد أن سجنت تلك القدرة الهائلة أو ما يســـمى بالروح داخل غرائز الجسد كنت أنا أول من تلقى التجربة على مضض .

قلت مستفسرا :

ـــ اتركنى اسرلك امرا اخفية بين جوانحى .

ـــ لا ضير يا صديقى من الافصاح عما يجول بخاطرك .

ـــ ان خلقك هذا غريب وتفسير وجودك أغرب ..

ـــ كيـــف ؟

ـــ مثلك غريب .. اول اضـــلاعه خلقك من صلصال بعد النفخ فيه والضلع الثانى عصيانك أوامر ربك بعد أن قربت شـــجرة التفاح والثالث والأخير طردك من الجنة الى الأرض حيث الصراعات والانقسامات .

قبلنى ابو البشرية من أم راسى قبلة جدية بـ ـها قال لى :

ـــ أحييك ياحفيدى على قوة تســـاؤلاتك .. والأجابة على ما اثرته تكمن فى قضـــية هامة .. أن البعض ينكر وجـــود الله .. فهل يعنى هـــذا الانكار عدم وجوده .

انفلتت أعصابى اجبته بضيق مكتوم :

ـــ رغم احترامى الشديد لك لكن أجابتك لا تختلف عن اجاباتهم ..

اقول لهم ثور فيسألونى أن أحلبه .

ـــ أخبرنى عنهم .

ـــ انهم رجال يرتدون القلنسوه السوداء والرداء الأحمر .

ـــ القلنسوه السوداء رمز العقل .. والرداء الأحمر رمز الرغبات .

ـــ تقصد بها الكلمة والرغبة فى رؤية الدمّ .

سألنى فى فضـــول :

ـــ قل لى .. لماذا تشد عليهم النكير ؟

ـــ مخلوقات مازالت تضرب اخماسا فى اسداس واذا بالنتيجة صفر اليدين .. قل لى يا أبا البشرية .. من انت وهم أم حقيقة ؟!

انفلتت أعصابه .. كما حدث لى منذ لحظات .

أجابنى بحـــده :

ـــ وأنت من تكون يا نملة سليمان ؟

تقدم نحوى .. دفعنى بأصبعه الخنصر .. لم أدر بنفسى الا وأنا فى مكان بعيد .. بعيد جدا . لا أعرف مداه .

- ١٤ -

استفقت على رجل عجوز .. ينحنى بهامته العملاقة نحوى .. وجهه وسيم رغم تلك اللحية الطويلة .. على محياه ذكاء فطرى .. داخل عينيه حزن عميق تتوقدان بالمعرفة وحب الاستطلاع .. يملأ فمه بالماء .. يرش وجهى .. مكوجى يعد الملابس للكى .. سيلا من الماء يتدفق فوق رأسى .. وجهى .. ملابسى .. تخايلت على شفتيه بسمة حانية .. وأنا أبحلق فى هذا المخلوق الذى يوقظنى من أغماءة طويلة ثم يتركنى الى عصا حلوة رقيقة ناعمة .. عذراء فى ليلة زفافها .. أخذها بلهفة بين أحضانه .. قبلها .. جلس القرفصاء .. انحنى الى حجرين يدلكهما ببعضهما تتطايرت شرارة .. أوقد نارا .. ارتفعت ألسنة اللهب .. تساقطت دموعه .. وهو يتلو بكلمات أغلب الظن أنها كلمات سماوية زرقاء !! هم بقذف العصا الى النار تردد .. أسقط فى يدى .. أسرعت اخطف منه العصا .. أخيرا العصا السحرية بين يدى رحت اضربها فى الأرض .. ألطم بها ماء الجدول فلا الأرض انشقت ولا الجدول التئم أخذت احركهما يمينا وشمالا .. وشرقا وغربا وأنا اتمتم :

ـ جلا .. جلا .. جلا .

بلا فائدة لم تلد حية ولا ثعبانا ولا حتى سحلية .. اعطيتها له وأنا أهمس :

ـ لا تستحق سوى الحرق .

قذف بها الى النار .. بكى .. اشفقت على دموعه .. شلال نياجرا الى هذا الحد .. حقا فهى رفيقة عمره .. أعطته كل شىء .. القوة .. والمعجزة والهيبة والرهبة .

قلت له بأسى :

ـ لا تحزن يا والدى .. هكـــذا الحنيا يوم لك ويوم عليك .. البقية فى حياتك .

اجابنى بصـــدق :

ـ أنها ـــبب محنتى .. رغم اننى أحببتها .

ـ غريبـــة !!

ـ وأى غرابة فيما اقول .

ـ أن يحب الانسان ما يعذبه أليس فى هذا غرابة !

ـ تماما كما يحب الآباء ابنائهم رغم عقوقهم وتعذيبهم أياهم .

ـ لكن أى محنة تلك التى سببتها لك هذه العصـا .

ـ محنة الأسطورة التى ارتبطت بها

ـ رغم وضوح ألفاظك فلم أفهم ماتريد الافصـاح عنه .

أشار الى العصا والنار تلتهمها وقال :

ـ لقد شـــقت اليابس ليصـــبح بحرا يغرق فيه الكفره .. والتهمت ثعابين السحره وأنا ماذا كان دورى ؟

انفعل وهو بســـتطرد قائلا :

ماذا كان دورى اذا كانت تلك العصـــا حققت كل هـــذه المعجزات .. قل لى ماذا كان دورى ؟!

ـ حتى الآن لم تصـــل للقلب .

ـ أخشى لو نفذ اليه سهم الحقيقة .. لأرديت الجسد قتيلا .

ـ لا تقلق .. فسأكفنه معك بأحلى وأجمل ثياب الخيال .. وسنزين صدره بنياشـــين الخرافات .

سكت قليلا .. يرشف ماء ثمرة جوز هند .. أستطرد بعدها قائلا :

ـ رمز يعبر عن الصراع بين الخير والشر .. وكيف انتصرت عصـــا الخير على شرور الكهان وأغرقت الكفرة فى محيطها القاتل .

ـ تعنى أن القصة كلها لم تتعد سوى هذا الرمز الواضح الصريح .

ـ صـــدقت .

ـ لكن كثيرون سيرفضون هذا التفسير .

ـ عليهم أذن ان يصدقوا القصة بحرفيتها .. لكن اخبرنى قال ذلك ثم انحنى يمسكنى من تلابيبى .. يرغمنى الى أعلى .. قشه يحركها اعصار هائل يسالنى فى فضـــول :

ـ من أنت وكيف وجدتك بالحالة التى كنت عليهـــا تذكرت فى تلك اللحظة جريمة القتل التى ارتكبها منذ آلاف الســـنين .. هذا مصـــيرى .. خفت أن يهوى بى الى أعماق الوادى السحيق .

تساطت لماذا هؤلاء البشر متفعلون غاضبون دائما .. تذكرت كلمات مناع « حاول أن تكون رقيقا معهم حتى لا يمزقوك أربا » .. قلت :

ـ مهلا خلـــوا .. لا تجذبنى هكذا فتقتل نفســـا بدون وجهِ حق ..

رد بذكاء لماح وهو يترك ثيابى :

ـ أنت تعنى جريمة القتل أياها

قاطعته قائـــلا :

ـ كما عهدناك تعرفها وهى طائرة .

أســـتطرد قائـــلا :

ـ لم يكن سوى شجارا كنت الغالب فيه .

ـ وهل تعلم عقوبة القتل ؟

ـ لمصلحة من تحاولون تشويه صورتى ؟

ـ ارفع قليلا من صو تك حتى أفهم ما تعنيه الكلمات .

زعق قائـــلا :

ـ من تريدون من الرسل أظهاره فى صورة الكمال بتضـــحيم أخطاء من ســـبقوه .

ـ افهم من هذا أنك لم تقتل .. وجريمة القتل ليست سوى رمز .

ـ بل أمنية ظالما سعيت لتحقيقها .

ـ وياســـت .

ـ بل تركت لشعبى الآن مهمة تحقيقها .

ـ شعب باسره يقتل رجلا واحدا ـ عجبا .

ـ بل يقتـــل رمزا .. لتصـــبح ارض الوعد حقيقـة واقعـــة ..

هل نســـيتم ؟

ـ ملذا تعنى بسؤالك ؟

اذا كنتم قد نســـيتم فنحن مازلنا نذكـــر آلام التشريد والتعـــذيب وللغزوات والانتقام البربرى .. وتقتيل المئات المستسلمة وذبحها .

ـ تقصـــد ثار قديم .

ـ بل جرح غائر .. لا تتعجل فنحن فى الطريق .

ـ أى طريق تعنى ؟

ـ طريق الاجهاز على هؤلاء القوم المحصن خلف أسوار الاخلاقيات المتحطـــة والمبـــادىء المنعدمة .. والمثاليات الفقـــيرة .. والفكر المتحـــور

ـ قل لى ياجدى كيف تحدثت مع الله ؟

ـ كما احدثك الآن .

ـ وجها لوجـــه ؟

ـ ولم لا .. وأنا نبى شعبه المختار .

ـ ومع ذلك فلم نجد أثرا واحدا يستدل به على قصتك .

ـ تقصد اننى وهم .. لا ليس صحيحا والدليل على ذلك الوصايا .

ـ هل يعنى وجودها ارتباطها بك انت .

ـ لكم يحزننى محاولاتكم المســـتميته افـــراغ التاريخ من المعانى الخالدة الباقية على طريق اليقين .

ـ محاولتنا هى مسح الصدأ عن التاريخ لا طمس معالمه .

ـ هذا العلم نبيكم الجديد استبدلتموه بنا .

ـ انه المستقبل .. وأنتم الماضى .

ـ لتأخذوا منا عبرة .

ـ العبرة أن تدعو الله على عشيرتك بالتوهان فى الصحراء ؟!

ـ بعد أن تمردوا على تعاليمى .

ـ وهل يقبل الله دعوات الخراب ؟

ـ انه ســـميع مجيب .

ـ قل لى ياسيدى بعد أن نجردك من الوصايا ماذا قدمت للانسان ؟

ـ الانســان ليس ســوى مجموعة من الأعمــال الخالدة لجمع من الحمقى ويذهب الداعية .. ويروح الحمقى ولا يقبقى سوى العمل الخالد .

ـ تقصـــد أنه لا يتبقى لك سوى وصايا .

ـ انها ترجمة حقيقية للخير .

ـ وهذه الأساطير التى امترجت بها .

ـ قلتها اســـاطير .

ـ من اذنك .

ســـــألته :

ـ الى اين ؟!

ـ بدأت النار تخبـــو .

ـ اتركها وشأنها .

ـ حتى تبقى النار مشتعلة .. سألقى بعصا ثانية وثالثة أو رابعة ..

ـ ولو .. مهما حاولت .. ســـتبقى تلك الأســطورة حيـــة .. لا تموت .. رقطاء تلدغ كل من يفكر فى حرقها ونثر رمادها .

ـ ١٥ ـ

استدرت لأعود واذا بى أمام انسان لا يصدقه عقل .. رجل طويل .. عريض المنكبين كث الشـــعر .. تصـــل لحيته لأســـفل صـــدره قدماه مفرطحان .. كبيران أعتقد أن مقاس قدمه لا يقل عن ســـبعون .. ثمانون لا أدرى من أعلى كتفيه يتســـاقط ســـاعدان .. يتأرجحان وهو يســـير الهوينا .. أسد فى غابة لكن فى خفة طاووس يتخايل فى حديقة .. سحبنى من ذراعى .. رحب بى .. اتجـــة الى خـــوض ملىء بالماء .. انحنى ..

اشـــار الى ان اقف فى الطرف الآخر من الحوض .. دفع بسفينة صـــغيرة تطفو فـوق الماء .. تلقفتها بيـــدى .. لا ادرى ماذا يريد .. ولماذا يفعـــل ذلك .. الا اننى دفعتهـــا أنا الآخر تجاهه .. مرح .. دفعها من جديد .. مرت ساعة وأنا العب معه هذه اللعبة السخيفة .. ضقت بها قلت له :

ـــ لقد تعبت ياســـيدى .

ـــ حسنا هيا لنتناول مشروبا باردا ..

ـــ احسنت صـــنعا ..

قـــدم لى كوبا .. ورقة شـــجر خضراء .. قرطاس لف بعناية .. امسكت بالكوب وقبل ان يروح السائل الهلامى من فمى سألته :

ـــ مشروب الجنة اليس كذلك ؟

اجابنى :

ـــ حقا انه بول الملكات !!

ترددت واذا به يصرخ فى وجهى :

ـــ اشرب والا دعـــوت عليك بطوفان يقصـــف عمـــرك ويغرقك فى أعماق المحيط .

ترددت من جديد واذا به يحذرنى قائلا :

ـــ هيـــه .

قذفت بالقرطاس .. تناثرت قطراته .. نظر الى الأرض بحسرة .. صـــاح مهتاجاً :

ـــ لقد اغضبتنى .. ولن اتوانى عن طلب الموت لك ولكل من يؤازرك

قلت بهـــدوء :

ـــ معـــذرة ياســـيدى .. فما قدمته لى مشروب غـــير مألوف .. لا تستسيغه النفس .. من الصعب التآلف معه الا فى حالة واحدة .. اما عن طريق الفم فهذا مســـتحيل انفرجت اســـاريره .. صـــحبنى من يدى الى مكان خال سألنى :

ـــ هل تســـمع ؟

ـ نعم .. ما اسـمعه هو ازيز النحل .

ـ بل ازيز ملكات النحل .

ـ الآن فهمت ياسيدى .. وليس امامى سـوى أن أقدم اليك عذرا ممهورا بخاتم النسر .

ـ أشكرك .. اشكرك .. هيا نلعب بالسفينة .

ـ سيدى أننى لم اطأ هـذا المكان .. ولم اخاطر بحياتى من أجل هذه اللعبـة .

ـ هات من عنـدك .

ـ اريد حديثا .. ترتجف منه الابدان .. ولا تحتار فيه الاذهان .

ـ أنا منصت لك ومجيب على كل خواطرك .

ـ لا تؤاخذنى اذا بدأت حديثى معك عن حكايات الف ليلة وليلة .

ـ لم أسمع بها ولم تحدث فى عصرى .

ـ انها ليست سوى حكايات ملآى بالأسـاطير .. وعششت عليها الخرافات ومع ذلك فقد بقيت حتى الآن محفـوظة من قرن الى قرن دون أى تعديل أو تحريف حتى لقد قيل أن الله حافظ لها .

ـ وما صـلة هذا بهاك .

ـ قصتك تذكرنى بواحدة منها .

ـ اى قصـة تعنى ؟

ـ من الألف الى الياء منذ أن بدأت تدعو القوم الى عبادة الله الى ان هبطت بسفينتك على قمة الجبل .

ـ أى سـفينة تلك ؟!

ـ لا أقصد هذه اللعبة التى تدفعها الآن وأنا اردها لك.. بل تلك التى رحلت فيها ومعك أهلك وعشيرتك وذوى قرباك الذين آمنو بك بعد ان جمعت فيها من كل زوجين أثنين .

توقف قليلا عن اللعب .. نظر الى مليا فى دهشة اجابنى :

ـ الآن تذكرت .. ماذا يشغلك من امرها .

ـ كل شيء عنها .. منذ اللحظة التى عقدت فيها اتفاق جثلمان .. وبناء عليه تمت من جانبك بصنع سفينتك .. وقام الله بتفجير الينابيع .. وفتح المجارى وارسال المطر حتى طفت سفينتك . الصالحين فوقها والظالحين تحتها يغرقون فى لجة الطوفان الى اللحظة التى أستقرت فيها السفينة على قمة جبل ثوى بعد أن قامت الشفاطات الالهيـة بسـحب المياه .. وافراغ الأرض من الأوحال .. وتنظيفها ورصفها !!

ابتسم الرجل ابتسامة نووية واسعة قال بعدها :

ـ وما للغرابة فيما قلت ؟

ـ حاولت اكراه الناس على اعتناق عقيدتك بأن خيرتهم بين المـوت او اتباعها .. ثم سلطت الطوفان على من جحدك فابتلعه .

ـ وهذا ايضا ماذا يدهشك فيه .

ـ اولا .. لا اكراه فى العقيدة .. ثانيا من آمن بك عن خوف من الموت فهو على كفره لأنك لم تغير مفهومة حـول عقيدته كل ما فعلته أنه سـايرك خشية الموت .. ثالثا من غرق على كفره وفضل الموت فقد فشلت فى اقناعه بعقيدتك .. وهذه الصورة لا تخرج عن شخصية الفترة الذى يفرض اتاوات على الأغنياء ليعطيهـا للفقراء ويخيرهم بين الدفع او المرمطة ولحس التراب الهدف لا ينكر أحد سـموغايته .. تحقيق المساواة .. العـدل .. الا ان الوسيلة يرفضها العقل .. وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل يمكن أن يصـبح الاله طرفا فى مؤامرة لقتل الانسان .. حتى ولو كان هذا الانسان قد عصى اوامره .. وهل قانونه ناقص الى الحد الذى يجعل من الثار والانتقام واحد من أعمدة شريعته .. لا أظن .

ران الصمت .. مسافة طويلة من التساؤلات تفصلنى عنه .. غريب عنى لا أفهمه وهو يسالنى :

ـ الى اى شيء تهـدف .

ـ قصـتك غير مقنعة .. لاتتفق احداثها مع التفكير المنطقى لذلك

فلا مناص امامنا سوى ان نضعها فى جعبة الخيال .

ـ كل هذا لأننى خيرت الناس بين الموت او الدين .

ـ أيضا لأنك صورت الاله فى صورة بشرية مجردة .

ـ غبى .

ـ الذى هو انا .

ـ الذى هو انت وامثالك .

ـ لماذا ياسيدى تسبنى .

ـ لأنكم حولتم المعنى الى حدث والرمز الى واقع .

ـ كيف .. خبرنى ؟

ـ السفينة ياصاحبى ليست سوى رمز لدعوة الخير .. من أيد دعوتى فقد ركبها الى بر الأمان جبل السلام ومن انكرها فمصيره الغرق فى طوفان الشر .

ـ وابنك ؟

ـ احد الغرقى فى بحار الرذيلة .

ـ ومفهوم من كل زوجين أثنين .

ـ رمز لمكاسب الانسان المزدوجة على مر السنين .

ضاقت بى نفسى .. تماكنى الغضب صحت زاعقا :

ـ كلكم تتحدثون بالشفرة .. أين أذن الحقيقة المجردة ؟

رد على بابتسامة نووية . مرعبة جبارة .. ازلية .. قديمة ..

اجابنى :

ـ يا حفيد احفادى اراك تبحث عن الحقيقة فى مملكة الخيال خذها نصيحة .. ثدى الخيال لايدر ابدا لبن الحقيقة .

تركته وانا ازعق :

ـ اين أذن الحقيقة المجردة .

- ١٦ -

على أن ابحث عن الحقيقة فى مكان آخر .. بدأت اخطو خارج الوادى الدروب كثيرة والمنحنيات متعددة والطرق متفرعة .. متقاطعة .. تهت وسط الاحراش . رأيت شابا جميلا .. خصـــلة من الشعر تزين جبين يشـــع منه العظمة والســـلطان .. جالس فوق الأرض الخضراء... أمامه أربعة عشر بقرة .. سبع سمان .. وســـبع عجاف لعب صـــنعها من الصلصـال .. يحرك العجاف لتأكل السمان .. فتولول السمان وتصرخ وتندب حظها حتى اذا ما أكلتها عادت لسيرتها الأولى .. اقتربت منه سائلة :

ـــ اين الطريق الموصل الى الخارج ؟!

بهرتنى وسامته .. كلماته المرتبة المنقمة :

ـــ غريب عن الديار .

ـــ نعـم زائر قضى أكثر اليـــوم فى واديكم ويريد الخـــروج ليبحث عن الحقيقة .

ـــ مرحبا .. يامرحبا .. اردت الحقيقة .. وها هى امامك .

ـــ تقصد بها هذه البقرات المصنوعة من الصلصـال .

ـــ نعم .. حقيقة التاريخ والحضـــارة .. أيام قحط تعقبها فترات ازدهار .

ـــ لكن كيف تأكل العجاف السمان ؟!

ـــ عنـــدما يأتى القحط .. فلا يصـــبح أمام الناس من وســـيلة الا استنزاف ما ادخروه فى أيام الرخاء .

ـــ ولماذا سبعا .. لماذا لا تكون ثمانية .

ـــ سبع سموات .. سبع الوان .. سبع طبقات واستك !!

ضحكت .. قلت فى دهشـــة .

ـــ حتى الاعلانات تعرفها !!

بدات استريح لصحبته .. لنكتته .. قلت له فى مودة :

ـ هل تعلم ياسيدى انهم اطلقوا اسمك على اندر الفواكهة واحلاها

قال مبتسما كما الوردة عندما تتفتح اوراقها :

ـ احقا ما تقول ؟

ـ ولكن ليست فى ملاحتك .

ـ صدقت فما ان ترانى فتاة او امرأة حتى تنتابها حالة من الهوس الجنسى والتوهان العقلى .

ـ رغبة منها فى تذوق اليوسفى .

ـ انظر الى كل هاته النسوة أنهم يطلبون شمولهن بنظرة او حتى اشارة .. دون جدوى .

ـ التقل صنعه .. لكن ماحدث مع امراة العزيز لا يتفق مع هذا الدلال والتدلل .

ـ الحب يصنع المعجزات .

ـ احبتك .. وظلمتك .

ـ حبا جارفا .. وظلما كبيرا .

ـ وأنت ؟!

ـ الحب لم يحرمه دين او شريعة .

ـ احكى لنا كيف اختليت وهممت بها ثم كيف جاك البرهان فتركتها على نار « تقرمش » .

ـ هذا اتهام ظالم .

ـ رموز أخرى .. لقد زهدت الحديث عنها .

ـ مثل هذا الاتهام يصمنى فى رجولتى فكيف اكون فى سرير مع امراة جميلة منتشية تعشقنى .. واهم بها .. وتهم بى ثم أتركها هاربا .

ـ تقصد أن القصة لا تستقيم مع الواقع .

ـ بل قصد بها تشوية سمعتى واظهارى بمظهر الضعيف جنسيا .

ـ اذا كنا سنصـــدق انك لم تختلى بها .. وانـــك لم تهم .. فما اساس تلك الرواية .

ـ بنيان بلا اســـاس ليس لة وجـــود .. فكيف تبنى بيتا دعائمه فى الهـــواء .

ـ نقصد دعائمه فى الوهم .

ـ صـــدقت .

ـ ومع انكارك هـــذا فقد دسست لأخـــوتك مكيال الذهب واتهمتهم زورا بالسرقة .

ـ ياحفيدى .. ماذا تعتقدون فى الأنبياء .. انهم بشر يخطئون .. ويطلبون المغفرة ويذرفون الدمع ندما وحسرة . منهم من عصى ربه .. ومنهم من قتل نفسا بغير حق .. ومنهم من اســـتعبد الناس .. وقتل الآلاف .. وشرد المئات .. واتهم زورا .. انهم غير معصومين .

ـ كم تعجبنى صراحتك .

ـ المشـــكلة أن تقديســـكم لنا وصـــل الى حد التاليه .. وضـــعتم الأنبياء فى بروج علجيه .. لا يدنســـها الشر ولا تمســـها الغرائز . خولتم الأنبياء من بشر نلى آلهه أو انصـــافها معصـــومة عن الخطا لا يستطيع أحد أن يتناول اخطائها .. أو يشـــوه كمال ســـيرتها تجدون الأخطاء وسرعان ما تصنعوا لها المبررات .. القاتل برىء رغم انه قتل .. العاصى لا يعاقب رغم انه ارتكب معصـــية .. مع اننا نملك ما تملكون من غرائز .. من حب البقـــاء للتملك .. للجنس .. كل الغرائز نشـــارك البشر فيها .. لكنكم تصرون على وضع الأنبياء داخل اطار صاعق لا يستطيع احد لمســـه أو حتى الاقتراب منة .

ـ أنهم رجال الدين .

ـ نقصـــد بهم هؤلاء الذين يرتدون القلنســـوه الســـوداء والثوب الأحمـــر .

ـ بلـــى .

ـ وهؤلاء ألا يملكون العقل ؟

ـ العقـــل مغلق .. مقفل على كثير من الخرافات .. بلغت معهـا الحقيقة نقطة صغيرة فى بحار الوهم .

ـ تقصد بالوهم سير الأنبياء .

ـ ما تعارف عليه الناس ليس سوى مجموعة من التهويمات لا تصلح لبناء حضارة فأين الحقيقة ؟

ـ سمعت من يتحدث عن الوجود المطلق .. والحقيقى .

ـ زدني علما ياسيدى .

ـ الوجود المطلق يبقى غير معلوم .. مبهم طالما لا تؤيده حقيقة .. فاذا حدث تحول الى وجود حقيقى ..

قلت زاعقا :

ـ آخر اختراع لكشف حقيقة الأنبياء .

- ١٧ -

خروف ناصع البياض.. لا مثيل له .. فى أذنيه قرط ذهبى.. حول عنقه حبل علق عليه سبيكة (ماشاء الله) من الذهب الخالص .. وبأرجله خلاخيل من الفضة .. يسير بها وسط الحيوانات .. يبصـــق عليهم .. يدول على راس كل من يعترض طريقـــه .. يتهـــادى فى مشـــيته .. والحيـــوانات تحسده .. تنظر اليه فى حسرة .. فهو الخروف المقدس الذى ضحى بالثمين الغالى (جسده المكتز) عندما سيق للذبح .. الحوت (يبلبط) فى الماء تنظر اليه الحيوانات شذرا .. أنه هو الآخر ملك الماء بلا منازع.. فقد حمل يونس اياما ولياليا فى معدة تطحن الزلط دون أن تؤذيه بل اوقف كل عمليات الهضموأرسل اليه نافورة من الهواء يتنفس بها داخل ســـجنه المظلم .. أيام وليالى بات يفترش نسيج معدته الاسفنجى .. ينام على وســـادة هلامية من الأســـماك

والأصداف واللآلىء حتى تم الافراج عنه .. انه هو الآخر يهز ذيله الضـــخم الأســـود تيها وغرورا .. يقـــول للخروف كلما كثيرا .. انت أنقذت الابن المعجزة وانا حملت النبى داخل بطنى .. اياما وليالى وهنا على وهن .. فما احرانى بالتتويج على مملكة الحيـــوان . وهذه النملة هى الأخرى تتراقص بفكيها ووسطها الرقيق وقد دارت عورتها من العيون المتلصصة ترتدى بذلة رقص صنعت خصيصا لها فى مصـــانع الحاج سليمان .. لا يظهر منها غير الراس والعينان .. أما الأطراف والبطن والأرداف فحرام أن تزفها العيـــون وان تلمســـها الأيادى فهى من المحرمات .. وجزاء مرتكبها النار خالدا فيها ابدا .. وابدا هذه تعنى مدة طويلة جدا .. جدا .. لا نهاية لها ..

وقفت النملة « تردح » بأعلى صـــوتها لهـــذا الخروف « يادهوتى .. يادهوتى .. حط ايده على سوءتى» !! قالت ذلك وضربت علىصدرها تأوهت من وقع الضربة « اى » ثم عادت ترقص .. وتغنى .. انها الأغنيـــة التى كانت تغنيها امام الحاج سليمان .. الوحيد الذى كان يفهم لغتها وهى تمشى فى الأرض مرحا .. تخرقهـــا .. تكاد أن تبلغ الجبال طولا .. لأنهـــا هى الأخرى فهمت لغة الحاج ســـليمان .. وهو يتقدم بحذائه الضخم وحذرت عشائرها من النمل أن تبتعد عن طريقه حتى لا تدوسها الأقدام المتوحشة .. وسمعها سليمان .. فابتسم ابتسامة .. مجرد ابتسامة .. زلزلت الأرض بعدها زلزالها .. وانحفعت براكينها .. فما بالك لو ضـــحك .. اكيد ان القيامة ســـتقوم قيامتهـــا .. لو عن له وغامر وضـــحك .. قنبلة نووية ســـليمانية .. ضـــحكانية !! النملة مازالت ترقص وحولها الحيـــوانات المقدسة يصفقن ويطربن على أنغام خلاخيل الخروف وتصفيق ذيل الحوت فى الماء .. ونباح مبروك كلب الكهف .. الكلب الذى راح فى النوم بقدرة قادر بلا ذنب ولا جريره .. ثلاث قرون من الزمان وهو فى غيبوبة النوم وعندما استيقظ .. وجد الحال غير الحال . الكلبة « لاكى» التى كان يحبها ويعشقها ويطئها دون باقى الكلاب ماتت بالذبحة الصدرية .. ذهب اليها حيث دفنت وكان حزنه عاصفا شديدا .. لا لأنها دفنت (سكيتى) بلا زيطه أو صوان أو مقرىء على روحها الطاهر .. ابدا بل لأنهم لم يضعوا لافتة على قبرها

توضـــح عمرها .. وســـنة موتها .. وســـبب وفاتها .. بات تلك الليلة مهموما حزينا وهو بجوارها لا يفارقها .. وعندما قرصـــه البرد أخذ ينبش الأرض .. وصدم عندما هز جثتها .. سمعها تتأوه وتقول :

ـــ اتركنى .. لمانا مازلت أحلم بحبيبى الذى هجرنى ..

وفتحت عينيها .. لتجد أمامها حبيبها الكلب مبروك . عجبا للسماء .. وللأرض .. وللهواء ثلاثمائة عام تستيقظ بعده الهوام لتدب فيها الحياة !! والآن هذا « مبروك » وخلفه « لاكى » يصفقون للنملة بكل مالديهم من ارادة للحياة .. والكل يصفق ويغنى ماعدا ذلك الهدهد المنطوى الذى وشى بملكه سبأ .. أنه حزين منذ هذا اليوم .. فمنذ لقائه الأول معها .. وترحيبها به وهدهدتها له وهو واقف على فخذها الطرى ممنيا النفس أن تستـــبقيه فى ضيافتها خاصة بعد أن كشـــفت له عن جمالها البض الفتان وهى تتعرى من ثيابها فى مخـــدع نومها مع عشـــيقها الذى نقره فى مقعدته العارية فهب فزعا يسعى للخارج .. يصرخ متالما والدم يسيل منه :

ـــ مؤخرتى .. مؤخرتى .

لقد ندم أشـــد الندم انه وشى بها .. وهو الآن فوق غصـــن شـــجرة يغنى أغنيته الحزينـــة .. « كان ملى ومالها وقعت فى خبهـــا وجمالها » ويذرف دموعه فى نهر الندم . فجأة انشقت الأرض عن رجل طويل .. عريض المنكبين .. قـــوى البنيان فوق كتفه الأيمن صـــقر .. وعلى كتفـــه الأيسر بومة .. وفوق رموشـــه ،قف حداة .. تزحلقت على الأرض وهو يهشـــنى كما يهش ذبابة خلفه .. لا ادرى رجـــلان أم وحشـــان .. أم عملاقان .. تقدما نحوى حملانى سأله أحدهما ؟

ـــ هل تسقطه فى الفضاء يامولانا .

صرخت :

ـــ لا .. لا .. ياسيدى فقد دخلت بجواز مرور معتمد من ادارة جنتكم الموقرة لتسمعونى .

ـــ اجابنى :

ـ لكن الا تعـرف أن هـذه الحديقـة مقدسـة امتلأ حديقتها وانك ارتكبت اثما كبيرا بدخولها دون اذنى .

قلت وانا اقدم له المستند :

ـ ها هو ياسيدى .. وعليه خاتم النسر الذى تملكونه .

ـ آه .. آه تذكرت .. اجلس اذن واستريح .

ـ كيف .. وقد أفزعتنى .

ضحك .. مددت راحة يدى الى فمه .. أغلقته .. قلت :

ـ كفى .. اتريدها زلزالا .

سكت .. أجلسنى بجواره .. سألته وأنا أرى ورائى نفس الوحشان :

ـ هذان الشحطان .. ماذا يفعلان .

ـ حارساى .. الجن الأحمر (زعبوط) والجن الأزرق (عطعوط) لا تقلق فانت فى أمان معهما .

ـ اشكرك .

ـ انظر لهذه الحيوانات .. لقد دبرت لثورة كادت تهدم مملكتى .. ولكن (زعبوط) و (عطعوط) اجهضا الثورة فى بدايتها .

ـ أيضا فى غمضة عين وانتباهتها .

ـ مازلت تذكر .. كانت أياما عظيمـة .. ما بقى منهـا سـوى اطلال .. كل هذه يا ابنى اطلال العظمة والسلطان .

ـ ايضايقك لو أخبرتك اننى لم اصدق قصتك .

انخض .. افترش وجهى بعينيه زعق .. (لماذا كلهم يزعقون هكذا)

ـ اى قصة تعنى .. ان قصصى كثيرة .

ـ حديثك مع النملة .. وحديث النملة معك اذا صـدقت أن لديك قدرة على فهم أصـوات الحيوانات .. فهل مثل هذه القدرة يملكها النمل ؟!

اشار الى زعبوط وعطعوط .. انحنيا اليه .. همس اليهما .. خفت ان

ينالنى سوء احتوانى الصمت .. واذا به يقول :

ــ اكمل .. اكمل .

قلت ومازال الرعب يسيطر على وجدانى :

ــ ليس قبل أن تؤمنى على حياتى .

عادت الثلاث رؤوس تقترب ثم تنفرج تبع ذلك صوته الجهورى :

ــ لك الأمان .

ــ لقد اذهلت العلمـــاء .. ودوخت العباقره بخيالك الدافق وجعلت العلم أمامك عاجزا صـــغيرا بعد أن نقلت عرش الملكة بأسرع من الضـــوء .. فكيف بالوسيلة ؟! أم أنها حواديت كتلك التى سمعناها عن أمنا الغولة .. والجنية ذى الشعور الخضراء التى تذهب بحبيبها الى مملكتها فى قاع البحر تلقمه الثدى الخيالى .. أم فارس بنى أوهام الذى يغرز رمحه الأسطورى فى بطن التنين الموغل فى الاسوداد لينزف دما أسودا !! ران الصـــمت .. واذا به يقـــول :

ــ اكمل .. اكمل .

ــ وجنودك من الجن أين كانوا يقطنون .. هل كانوا مع جنودك من الانس (ســـوا ــ ســـوا) أم فى مكان آخر تناديهم فيلبـــون .. تطلبهم فيسجدون .

اقتربت رؤوس الثلاثة .. بعدها رايت أربع سواعد عملاقة تحملنى الى اعلى وانا اصرخ ..

ــ لقد امتننى على حياتى .. أين العهود .. أين المواثيق .

- ١٨ -

وجـدت نفسى مفترشـــا الأرض ملتحفا الفضـــاء مصـــابا بارتجاج فى المخ .. وكسر فى عظام الساعد الايمن .. يعالجنى رجل وخط الشـــيب راسه .. يسألنى بعد أن وضـع جبيرة على ساعدى .

ـ من انت وماذا تفعل ؟

ـ انا المستقبل كنت أريد التحدث مع الماضى .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لاصرعه قبل أن يصرع الملايين .

ـ لمـــاذا ؟

اجبته قائـــلا :

ـ الخرافات ياســـيدنا .

ـ لمـــاذا ؟

كأنه علق على (لماذا) هذه سألته انا الآخر :

ـ لماذا ماذا ؟!

اجابنى :

ـ لماذا تحارب للخرافات ؟ .

ـ انهـــا آفة الآفات .. علينـــا ان نتخلص من شرورها قبـــل فوات الأوان .. وغدر الزمان .

ـ أتركها فى حالها فهى الواحة التى يجد فيها الانســـان حلمه الذى يترقبه كل ليلة قبل نومه .. يرى من خلاله الشجاعة والاقدام .. القوة والغراية والخيال.. فما أجمل الخيال وما احوجنا اليه.. به تتفتح المشاعر.. وتستيقظ الأحاسيس .. تستمتع معه بكل ما تفتقده من مساواة وحرية .. وعدالة .. ترضى بما كتب عليك .. الحاكم الظالم .. والرزق للبسير .. يصبح معها للصراحة مرض والجراة غباء .. تعيش فى جنة خيالية تعثر عليها

بين انقاض العقل .. واطلال العلم وسحابة الغموض والحيرة فاترك هـذه الخرافات لحال سبيلها .. تمضى الى غايتها تخفف آلام الفقراء ترفع عنهم معاناتهم .. تعدهم بالراحة بعد العناء بالجنة بعد الفناء :

ـ اريدها جنة حقيقية .

ـ يكفى أن يحلم الناس بها .

قال ذلك .. بعدها ران الصمت .. عاد يحدق فى وجهى يسألنى :

ـ لكن من انت ؟

ـ انا زائر .

ـ اخشى ان تكون مثـل هذا المجنون الذى شـوهيناه على المسيخ منذ اسـبوع .. هلمت .. اخذتنى لجة الشك .. اين أنا ومن هؤلاء .. ابدا .. ليسوا الأنبياء .. بدأت اسـترجع حديثى معهم .. لديهم القدرة على التلاعب باللفظ . لسانهم يقطر عسلا أشهى من بول ملكات النحل .. ولكن معلوماتهم عن انفسهم استقوها من الكتب الصـفراء .. ابدا ليسوا الأنبياء .. العبارة الأخيرة تدق على عقلى .. « مجنون شوهيناه على مسيخ » ليس ببعيد أن يفعلوا بى مثله احترت .. هل اكمل مسـيرتى أم اعود من حيث أتيت . انهالت على الذكريات ..

ـ مستشفى للأمراض العقيلـة .. ونزلاء.. ومجمـوعة من الخبراء والمتخصصين يسألون واحد من النزلاء أمى لا يقرأ ولا يكتب .. السؤال تلو الآخر .. عمليات حسابية معقدة .. جمع وطرح وقسمة وضرب .. عمليات يعرفون نتائجها مقدماً .. لم يخطىء النزيل فى عملية واحدة يومها أدعى أن انشتين حل فى جسده .. جسد عبد السميع العايق وآخر ادعى أنه نابليون اجاباته صحيحة .. سـليمة حتى فى ادق اسراره .. نابليون فى مخدعه .. مع عشـيقاته .. يتحـدث الفرنسـية بطـلاقة رغم انه لم يتعلم حرفا منها .. ولم يدخل مدرسة والاغرب من هذا ذلك الذى ادعى أنه تقمص روح المسيح .. يشفى المرضى .. ويعالج باللمس لعل ماراه الآن ليس سـوى تكرار لما اتذكره .. سرادب من الشك أسير فيه وحدى .. شـعاع من نور

يضيء ظلمته للكثيبة سرعان ما تنطفأ شعلته .. وأنا اسأل الرجل عن مصير هذا الانسان الذى شوى على النار أجابنى ضاحكا :

ـ كان وليمة شـــهية .

فى تلك اللحظة قررت العودة .. الا أنه جذبنى من يدى بقسوة تمتم :

ـ الا تريد أن ترى خروفى المقدس .

ـ لقد رأيته منذ لحظات .

ـ ما رأيته هـــو النيجاتيف أما الحقيقـــى هنا عنـــدى أحتفظ به فى كوخى .. اعتنى به .. اسقيه من ماء الورد .. ارعاه .. واحنى عليه .

قلت له :

ـ لكننى أريد العودة لكوخى حتى لا تقلق على عشيرتى .

ـ هنا لا يقلق احـــد على احـــد .. ســـيرتة .. داعبنى هـــذا الهاتف .. وبدأ يؤرقنى .. ماذا لو رشقونى فى السيخ وشوونى تبعته الى الكوخ .. رأيته .. خروف عجوز وهنت عظامه .. وتكسرت اســـنانه .

« ماما » فور أن رآنى .. والرجل يعلق :

ـ لقد سر برؤيتك .. انه يرحب بك .

داخلى يحدثنى دون أن أســـتطيع الافصـــاح « انت الآخر تعرف لغة الحيوانات .. « هاصت » لكنه حديث لم يخرج من حلقى .. أخرجت علبة سجائرى أخذت واحدة .. اعطيت له أخرى .. سألته :

ـ هل يضـــايقك أن أعفر ســـيجارة فى تواجد حضرتكم المقدســـة اشتم السيجارة .. قضمها .. بلعها .

صرخت :

ـ سيدى أنها ليست للأكل ولكنها للتدخين ..

ـ وكيف تدخنها ؟

ـ هـــكذا .

اشعلت السيجارة بدأت ادخن وهو مندهش كيف تتحول السيجارة من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية فى صورة دخان يصعد من « النخاشيش »

اعطيته اياها ... قلت :

ـــ دخن .

جذب نفسا عميقا .. بدا يسعل .. لكنها استهوته قال فى حسم :

ـــ ساطلب فورا من امين المخازن ان يدرج هذا الصـــنف فى ميزانية العام القادم .. ماذا تسميه . فليكن أسمه من اليوم سرائر .

مرت فترة صمت قصيرة خلتها دهرا .. قلت بعدها :

ـــ هل يأذن لى سيدى بالانصراف .

ـــ ليس قبل ان اسألك .

ـــ عن ماذا ؟

ـــ الحلم .

ـــ أى حلم تعنى .

انـــه يســـتدرجنى .. يريد ان يوقـــع بى .. على ان اهادنه .. اسايره .. حتى لا أقع فى الشرك .

اجابنى :

ـــ الحلم اياه .

ـــ آه .. كدت أن تذبح ابنك لولا الخروف الملائكى .

ـــ وما رأيك .

احترت .. ماذا يمكن أن اقول له .. هل انكر القصة .. فيقضى على القضاء المبرم أم اعترف بصـــدقها .. وانا لا أعرف موقفه منها اجبته وانا احاول أن امسك العصا من نصفها :

ـــ الله امرك بارتكاب معصية عندما امرك بذبح ابنك .

ـــ حقا .. كيف فات على ذلك .

ـــ ومن اجل سبب غامض غير مفهوم .

ـــ وهل اختبار الله لطاعة رســـله والاســـتثياق من ايمانهم ســـبب غلمض غير مفهوم .

ـــ اذا تعارض مع كماله وتنزهه .

ـ كيـف ؟

ـ هل يمكن للكمال أن يأمر أحد اتباعه بارتكاب جريمـة لا يختلف حول تجريمها اثنان بدلا من النهى عنها .. فضلا عن هذا .. التنافر الحاد بين الالزام والالتزام .. فالالزام لابد وان يترتب عليـه التزام .. فالزام الانسان بالامتناع عن معصـية يسـوتجب معها التزام الآمر بعدم الاتيان بها .. لانهما امران يرتبطان ببعضهما وجودا وعدما .. والخروج عن هذا يعنى الفـوضى ليس فى عـلاقات الكون بل فى عـلاقات الانسـان باخيه الانسان .. حاكما كان او محكوما .. بل هو اشارة خضراء للحاكم الذى يلزم المحكوم بقانون أن يخالفه هو نص هذا القانون ضـاربا عرض الحائط بالتزامه .. .. لأن الزام الحاكم المحكومين بقانون ما يسـتلزم بالضرورة التزام الحاكم به .. فاذا خرج عنه فيعتبر خروجه .. انتهاك للالتزام .. وبالتالى انهاء لعقد الالزام والالتزام الذى يربط بينهما .. وسـقوط حقه فى البقاء حاكما ..

قال الرجل بحماس دافق :

ـ ليس هذا محسب .

سـألت فى دهشـة .

ـ ماذا قلت ؟

ـ دعنى اكمل .

ـ على العين والرأس .. تفضل .

ـ يا ابنى ان الموضوع كله لم يتجاوز نطاق الأحلام .. ولكن الناس هم الذين نقلوا هذا الحلم من جعبة الخيال الى دائرة الحقيقة ..وتداولوه .. حتى اصبح احـدى حقائق الكتب .. وهذا ما يحزننى فالسـماء لا تمطر خرافا .. ومن المسـتحيل أن يقوم الأب بذبح ابنه لمجرد حلم ارتآه الا ان يصـمه الناس بالجنـون .. ثم ماذا تضـيف تلك الرواية اذا آمنـا بها كحقيقة .. الاله يطلب من انسان ارتكاب معصية .. ويشرع هذا الانسان فى تنفيذها طوعا لاثبات ايمانه .. وابنه لا يعترض على رغبة ابيه .. رغم

انف قاعدة جوهرية انه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق حتى ولو كان هذا المخلوق أبواه .. مثل هذه الرواية تحمل كل مقومات امراض الفكر المتخلف ولم تكن سوى حلم .. حلم أتانى وسردته على الناس فتطوعوا ليجعلو منه حقيقة فى الاذهان .. ماذنبى .

ـ وهذا الخروف الذى تحتفظ به فى كوخك .

ـ ذكرى تمنيت أن اتبحهـــا لتســـيل دماء الوهـــم علـــى ارض الحقيقة ..

ـ ولماذا لم تفعـــل ؟؟

ـ الكهنة .. الكهنة .

ـ ١٩ ـ

هل هؤلاء هم حقا أنبياء الأديان بعد أن بعثوا ؟!! عدت استدرج أفكارى الى الحقيقة .. الى النقاط المضـــيئة من جديد .. دون جدوى .. واذا بى أمام رجل ضخم الجثة .. أعملت فيه النظر من أسفل الى اعلى .. صعدت اليه بنظراتى .. مجعد الشـــعر اشـــعث اغبر .. عينان امدرج فى حدقتهما الدموية لون الدم .. والنار .. اخذنى على غره .. وهو يقهقه .. متجها نحوى يهش براحة يده فوق كتفى .. صوته نفيق ضفدع :

ـ أهلا .. وســـهلا .

ـ لا أهلا .. ولا ســـهلا

ســـألنى :

ـ ضقت بجننا .

ـ بل ضـــقت بكم .

ـ وقاحة غريبة لا تجدها الا فى الغرباء .

ـ دعنى وشـــأنى .

ـ حططت علينا كالطائر الجارح .

ـ ماذا تعنى بكلماتك ؟

ـــ علينا نتف ريشك قبل أن تخطف الكتاكيت وتعلو بها فى الفضاء .

ـــ اى كتاكيت وأى ريش ؟

اخذ يدور حولى .. يرقص .. يغنى وهو يشير على اشارات مبهمة « الحداة .. الكتاكيت تبكى .. انتفوا الريش » صـــيحات الرجل تتوالى فى غناء ردىء .. حقا ان لأنكر الأصـــوات لصـــوت الحمير .. بعدها بلحظات كانت تحيطنى شرنمة من الرجال يرقصـــون حولى .. يزعقون .. يرددون نفس الكلمات .. زعيمهم يرتدى قلنسوة سوداء .. ورداء أحمر .. يتقدم نحوى يتحسس عجزى .. جسدى .. يتمتم :

ـــ جسده طرى كجسد النساء .

ثم يســـتطرد قائلا :

ـــ وقعت فى الفخ يابن اللئيمة .

أنهم يرقصـــون حولى كما يرقص أكلة لحوم البشر .. مجمـــوعة من المجانين . جثة مجانين .. مهاويس .. رفع زعيمهم عصـــا فى الهواء ثم اخذ يرتل كلمات منظومة غير مفهـــومة وهو يهزها بعنف وانفعال بعـــدها انقض على رجـــلان زنة الواحد منهما طن !! الأيادى تحاصرنى تشـــج ثوبى .. تحملنى عاريا الى ســـاحة كبيرة .. حولى المجانين يتغنون « الحـــداة .. الكتاكيت تبكى .. انتفوا « الريش » جموع من الهمج تلتئم فى دائرة ضيقة حولى .. والخاطر يتمكن منى وزعيمهم يزعق :

ـــ أوقـــدوا النيران .

النار ترتفع الســـنتها .. يســـكبون الزيت فوق جسدى .. الخاطر يتمكن منى اكثر وأكثر وزعيمهم يطن :

ـــ جهزوا الســـيخ .

أين مناع .. هل تبخر .. أين أتباعى .. زعقت .. لا أحد يسمعنى يريد أن يســـمعنى .. صـــخب .. تتخلله كلمات الســـخرية والازدراء اين الهاتف .. قدراتى .. معجزاتى . لقد تبخرت هى الأخـــرى .. كم أود أن احولهم الى قردة .. ان أذبحهم .. ولكنى لا اقـــدر لا اســـتطيع .. هباءا منثورا .. ما أفكر فيه .. لماذا !! قلتها مرات ومرات دون أن أجد اجابة ..

ان هؤلاء القوم لا يؤمنون بى صيحات الاستنكار والسخرية والازدراء وانا اصيح فيهم :

ـ هل خبلتم .. ألا تعرفون مولاكم ورب نعمتكم .

لا فائدة .. لا جدوى .. واحدهم يأتى بسيخ ضخم .. يتقدم نحوى وزعيم القوم يصدر أوامره :

ـ هيا لنرشقه من دبره ليصل الى فمه .

قلت فى سذاجة وبلاهة :

ـ ولكنه سيخ ضخم .

زعيم القوم يقترب منى .. يقول فى سخرية :

ـ لن تشعر بشىء .. مجرد وخزة بسيطة يغوص السيخ بعدها فى أحشائك .

فى تلك اللحظة وانتنى قوى خارقة .. انها قوى الخلاص من الشر .. كنت فى داخلها اشبه بعصفور تمضغه انياب ذئب .. بفأر مذعور يلفظ انفاسه الأخيرة بين براثن قط .. رغم هذا الضعف .. وهذا اليأس فقد كنت أشعر أننى أمتلك العالم كله .. املك كل هؤلاء الناس استطيع ان اعلو بهم فوق اقدارهم .. بدأت ارتجف وزعيم القوم يقترب بالسيخ منى .. وكلماته كلها سخرية :

ـ حانت لحظتك .

فى لحظات كنت أحتوية داخل قوتى .. أصبح أمامى شيئا من الاشياء اسيره كما أشاء .. نظرت اليه .. احسست ان ارادته تخور كلبا مستسلما أحركه بطوق فى رقبته .. على أن أهجم بشراسة .. بقوة .. قلت له مشائلا :

ـ ماذا تنوى ؟!

ـ ألا ترى هذا السيخ .. سامزق به احشائك .

ـ اى سيخ ؟!

دهش الرجل وهو يجيبنى :

ـ هذا الذى فى يدى !!

ـــ ما معك ليس سوى ثعبان ضخم !!

تردد الرجل قليلا .. وهو ينظر الى السيخ .. فجأة قذف به وصرخ :

ـــ الثعبان .. الثعبان .. انقذونى .. انقذونى .

للزعيم يتلوى .. يحاول انقاذ نفســـه من قوى مجهولة .. لقد تحول السيخ الى ثعبان ضخم يحيط برقبته .. الناس تنظر اليه فى دهشة .. لقد خبل زعيمهم .. انه يستنجد :

ـــ انقذونى .. انقذونى .. الثعبان يعصرنى .

اقترب منى .. ســـجد .. قبل قدمى .. ابتهل .. خلع قلنســـوته السوداء .. عفر راسه بالتراب .. صرخ :

ـــ انقذنى يامولاى .. انقذنى فانا لست سوى عبدك الذليل .

للناس دهوش .. هاموش .. لا يفهمون مغزى مايحدث .. ولكنهـــا الحقيقـــة مارآها زعيمهم . الســـيخ يتحول الى ثعبان يحاول قتله . حـــل الصمت .. علا الوجوه الوجوم .. التساؤل .. وانا أسأله :

ـــ ماذا تظن أنى فاعل بك ؟

ـــ مولاى ورب نعمتى .

ـــ اذهب فانت طليق .

الصمت من جديد يطبق على الساحة .. لا تســـمع فيها سوى همهمة الحيوانات المقدسة .. النار تخبو .. قلت والدهشة تحتوى الجميع :

ـــ اشـــعلوا النيران .

اســـتطردت بعدها قائلا :

ـــ عليكم بالحيوانات المقدسة .. تخيروا منها ما شئتم .. ارسلوها الى النار .. أكلا شـــهيا للقاطنين .. فاليوم هو عيد الضـــحية الأكبر .. عيد الانقاذ .

تعالت الهتافات .. الصرخات .. وانا استطرد قائلا :

وهذا الوادى المقدس الذى حرم على الناس أن يطئوه .. واســـتأثر فيه الخاصـــة بالنعم والخيرات .. واستمتعـــوا فيه بأكل « البغاشـــة » و « البقلاوة » !! من اليوم يصبح مشاعا للجميع .. ملك لكل شـــعبى من

اقاصى الأرض ومغاربها .. بكل مافيه من متسع طعاما كان أو شراباً امراة او ولدانا لا فرق بين الخاصة والعامة .. الكل سواء . صرخات التاييد .. عبارات الثناء .. صلاة شكر طويلة .. تعالت فيها كلمات المساواة .. الحق .. العدالة .

- ٢٠ -

شردت افكارى .. ذلك المعبد الذى يتوافد عليه الناس فرادى وجماعات .. يطوفون حوله .. يتزاحمون ليقبلوا جدرانه .. يبصقون فى وجه الشيطان .. يصرخون طالبين المغفرة .. انهم يتالمون بلا دموع .. بلا مشاعر الم الحيوان .. عذاب القرود .. رجال الدين يرتدون الرداء الأحمر والقلنسوة السوداء .. يطوفون معهم يصرخون صرخات الالم والعذاب .. يتطوحون .. يترنحون فى سكرة .. كسكرة الموت .. وفى داخل المعبد حيث تمتد ساحته آلاف الأمتار .. يتسكعون .. يتجالسون .. يعاقرون الخمر يأتون النساء والاطفال .. يعربدون انها الجنة .. كل شىء مباح .. سالت مناع الشكوك تزاحم عقلى :

— الى متى يا مناع هذه الطقوس ؟

رد على فى ريبة :

— سبع أيام وسبع ليالى .

— لماذا يا مناع ؟

— التقيضان يا مولاى عندما يجتمعان .

— تقصد الحب والكراهية .

— نعم يا مولاى .. النور والاظلام .. سبع أيام وسبعة ليالى .

— ولماذا سبعا ؟

— الارض خلقت فى سبع ويوسف حلم بسبع والالوان سبع .. والسماوات سبع هذه مشيئته ..

الشـــكوك مازالت تزاحم عقلى .. تقهـــره .. هل هذه هى الجنـــة حقا .. مجـــوعة من البلهاء يقبلون الحائط .. يبصـــقون على الشـــيطان

سألت منـــاع :

ـــ اين هذا الشيطان يا مناع ؟

ـــ مســـجون فى قمقمه .

ـــ خذنى اليـــه .

اتجه بى الى باب مولاذى ضخم .. فتحة على مصراعيه لأجد أمامى فوق قاعـــدة من العقيق صـــندوق من الذهب صـــنع ببراعة .. وقد طوقته السلاسل والأصفاد .. ضحكت .. استطالت ضـــحكتى .. دمعت عيناى قلت بعد أن سكتت ضحكاتى :

ـــ فى هذا الصندوق يسكن الشيطان .

ـــ هل تشك فى هذا يا مولاى ؟

ـــ وتطوقونه بالسلاسل خشية أن يهرب .

ـــ تسخر من عقيدتنا التى أوحيت بها الينا .

ـــ خرافة .. خرافة يا منـــاع .

ـــ تقصـــد الشـــيطان !

قلت له فى حسم :

ـــ أتنى ببلطـــة .

حملت البلطة الى قمقم الشيطان .. رفعتها فى الهواء .. صرخ مناع :

ـــ لا تفعل يا مولاى .

توقفت وجسد مناع ينطرح على القمقم وأنا أحذره :

ـــ أبتعد يا منـــاع .

مناع يستجدى .. يقبل قدمى .. يتضرع :

ـــ سيتحرر الشيطان من سجنه الى عقول الناس يوسوس لهم .

دفعته بكل قوتى صرخت وأنا أشـــق الهـــواء بالبلطـــة اهـــوى بها على القمقم :

ـــ لن تجد فيه ســـوى الهواء العفن .

الجموع التى صـــمتت منذ دقائق وهى تســـمع حوارى مع مناع ..
تجرى مذعورة .. تصرخ :

ـــ الشيطان .. الشيطان .

توجست خيفة خامرنى الشك للحظة قصيرة فى جدوى ما أفعله .. فى حقيقة هذا الشيطان .. ترددت قبل ان أهوى بالضربة التالية .. حسمت ترددى وانا أهشم الصندوق الى شظايا صغيرة .. وصيحتى تسبقنى :

ـــ أنظروا ماىبداخله .

ايقونة وخرقة باليه خيطت جيدا بداخلها بقايا قضيب رجل متهرىء .

* * *

حادثت مناع .. سألته عن الأرض الملعونة الححت فى الســـؤال .. استعصى على .. اسواره محصنة بالرفض والاصرار أجابنى :

ـــ أنك تبحث عن الفناء يا مولاى .

ـــ لمـــاذا يا منـــاع ؟

ـــ لأن الحقيقة تعنى الموت .

ـــ وصفوة القوم الذين ارسلوا للضياع .. كيف نستردهم ؟

لم يرد على .. نهض فجأة من مكانه .. اختفى .

- ٢١ -

زحام .. هتافات .. اصوات غاضبة متناثرة .. جماعة من النسوة يقتحمن على القصر فى غضـــب جامح .. فزعت من نومى .. اسرعت خارج الحجرة .. مناع وقد علا وجهه الشحوب .. يحاول وقف التيار العاتى .. يصرخ فى فتاة جميلة :

ـــ ما دهاك يا يســـمينة ؟!

النساء .. ساخطات .. شققن الثياب فبانت الصـــدور والنهود .. والبطون .. عبثا ما يفطون ياسمينة تصرخ فى وجه مناع :

ـ خلى بنا المكان نرى مولانا .

تقدمت نحوى .. تمتمت :

ـ جئنا نستعيذ بك من الشيطان .

ـ اى شـــيطان ؟

ـ الرجل يا مولاى .

ابتسمت .. غمغمت :

ـ بات الرجل شـــيطانا .

ـ ولسنا له سوى سقط المتاع .

ـ تناوشـــين القـــول .

ـ مولاى .. ما نصيب المرأة من الجنة .

ـ الكثـــير .

ـ بل اقل القليل .

ـ كيف وانتم تشاركون الرجل فى كل المتع .

ـ مولاى .. للرجل أن يختار المرأة التى يشـــتهيها ولة منها اثنان واربعون جارية .. اما المرأة فمســـلوبة الارادة والحقوق .. ليس عليهـــا الا أن تقنع بامتاع الرجل والطاعة العمياء .. قلت بحسم :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ العدل يا مولاى أن يكون للمرأة مثل ما للرجل .

ضحكت .. استرابت يا سمينة .. وأنا اسالها :

ـ تريدين أن يكون للمرأة اثنان واربعون رجلا محظياً .

تغامزت النســـوة .. خبط منـــاع كفا على كف تعالت الهمســـات واحداهن تعقب :

ـ وماذا تفعل المرأة اذا رغبها كل هذا العدد فى ليلة واحدة ؟

شـــهقت الثانيـــة :

ـ يا وليتاه كيف ولا تملك سوى ثقب واحد !!

قالت باســـمينة بذكاء :

ـ أليس هذا مقصدى يامولاى .

ـ اوضحى .

ـ نعود الى قانون الأرض .. امرأة لكل رجل .

ـ وماذا بعد ؟

ـ المطلب الثانى .

ـ تكلمى .

ـ الأومة يامولاى .

ـ تقصدين المطلب الثانى .

ـ نريد ان نعود لطبيعتنا الأولى .. نحمل ونلد .

تساءلت فى دهشة :

ـ لكن الأومة تعنى عودة العذاب .

ـ وماذا تقول عن العمل .

حلت فترة صمت قصيرة .. قبل أن تستطرد ياسمينة قائلة :

ـ لم ننس غرائزنا يامولاى .. نريد أطفالا نشقى بهم .. نسعد معهم .

ـ لكن ألا تعلمين أن الانجاب يعنى الموت .

الأصوات تتعالى .. تتحد فى حزمة الاصرار :

ـ نريد الأومة .. نريد الموت .

تزاحمت الصرخات .. تداخلت الآهات :

ـ الموت .. الموت .

قلت بضيق مكتوم :

ـ جثة قاطعوها مجانين وأنا لست سوى واحد منهم .

البسطاوى متهم بالسرقة .. أول سرقة تحدث فى تاريخ الجنة ..

أتانى مكبلا .. سألته فى لين :

ـ ألا تعلم أن السرقة جريمة .

ـ ليس بعد للجوع شىء يامولاى .

ـ ولماذا لا تعمل حتى تأكل ؟

ـ وعدتنا بالجنة التى لا عمل فيها واخلفت وعدك .

ـ كل ما اريده لكم هو الجنة الحقيقية .

ـ الناس راضون .. سعداء .. بجنتهم .

ـ رضـــاء مؤقت بالتخلف .. لأنهم لم يعرفوا الحضـــارة .. فاذا مارسوها لم يعد فى استطاعتهم للعودة الى قانون التخلف .

ـ دعهم وشـــأنهم يامولاى فهم يأكلون ويشربون وينامون ويتمتعون بمتعهم الحســـية ..

ـ من اجل هذا فقدتم الابتسامة .

ـ الابتسامة تعنى العذاب والعمـــل يعنى العذاب .. ارحل عنا .. فمنذ أن حللت ديارنا .. حلت علينا الفـــوضى والخراب ووودعنا ســـفينة الســـلام .

ـ ما تسميه الفوضى والخراب هو نتاج التحول .. هو آلام الوضع .

ـ لماذا .. وقطوف الجنة دانيـــة .

ـ ضاق صدرى بنقاشك .. فقد جئت الينا متهما بالسرقة والامتناع عن العمـــل .

ـ للمتهم الحق فى الدفاع عن نفسه .

ـ بماذا تدفع تهمتك .

ـ اننى لم أخرق قانون الجنة .. فكل شىء فيها مباح .

ـ الاباحة مرتبطة بالعمل .. ومن يرفض العمل ليس مكانه هنا .

ـ اى مكان أفضل من هذا الجحيم .

ـ اننى لن اســـجنك .

قال بســـخرية :

ـ اذن فاقتلنى !!

ـ بل سأرسلك للأرض الملعونة .

فى تلك اللحظـــة .. جثا على الأرض .. قبل قدمى عادت انظـــاره

لتفرش وجهى .. انه يرتجف ارتجافات الخوف .. يبتهل يستجدى :
ـ لا .. لا يامولاى .. اننى امتثل لقانونك .

* * *

مـــدت الى ســـفين الخاطر .. بعد أن فككت عن بســـطاوى قيوده وافرجت عنه .. كيف حوله الرعب من موقف العناد الى استسلام كامل ..

ما هذه الأرض الملعونة التى يرفض الجميع الحديث عنها .. لماذا يخشى الناس منها .. سفين الخاطر بلا ربان بعيدة عن الشاطىء عن بر الامان .. تتلاعب بها الأمواج يظلل ســـمائها الغمـــوض .. تهب عليهـــا اعاصـــير الفضول .. لا تجد من ينقذها .. يساعدها ليصـــل بها الى بر الحقيقة .. معى الأيقونة التى عثرت عليها فى صندوق الشـــيطان .. أطالعها علنى اعثر على اجابة شافية لما يعتمل داخلى من اسئلة .. هذه الرسوم ماذا تعنى ؟! الجمجمة تعنى الموت .. المصـــباح يعنى المعرفة .. ولكن هذا الوجه الذى اراه محفورا بعناية ماذا تعنى رموزه انه وجه قرد فى جســـد انسان .. فهل هذا تنبؤ لمستقبل الانسان هل يستحول الانسان الى قرد ؟! وذلك النهر الى أين ينتهى .. انه ينتهى الى الجمجمة .. الى الموت .. هل الأرض الملعونة هى نهاية هذا النهر ..وتلك الشمس التى تشـــع فوق صـــفحة المياه .. تحرقها كيف ؟! الأسئلة تحاصرنى دون ان اعثر على اجابة شافية .. ولكن هناك فى هذا الوادى الملعون ينام السر تحت قشرة من الغموض .. سر هؤلاء الناس .. سر وجودهم .. خلودهم .. كلهم يخشـــون الحديث عن هذا الوادى الملعون .. على أن اعثر على الحقيقة ..

- ٢٣ -

حاول منـــاع أن يثنينى عن عزمى دون جدوى فقد قررت الرحيـــل .. اعددت كل شيء الطعام والماء .. ومعدات التســلق والحفر .. تدفعنى ارادة المعرفة لتخطى هذا المجهــول الجاثم على بعد أميـــال .. وفى فجر أحـــدى الأيام .. حملت امتعتى فوق بغلين وبدأت رحلتى .. وقبل أن اصـــل الى نهر الشيطان وجدت شبحا فى انتظارى .. لم يكن سوى ياسمينة ســـألتها أجابتنى :

ـــ اريد صـــحبتك !!

اصرت .. اســـتسلمت لاصرارها .. بدأت معها مســـيرة رحلـــة المجهول .. سألتنى فى فضول :

ـــ الى أين يا مولاى ؟

ـــ الى الحقيقـــة .

ـــ الحقيقة لن تجدها .

ـــ حتى اذا عجزت من العثور عليها .. فهى تســتحق المحاولة .

ـــ مولاى .. أنك تبحث عن الحقيقة فى اعماق الوهم ..

* * *

وصـــلنا مجرى الشـــيطان .. ثلاثة أيام .. نواصـــل فيها الليـــل بالنهار .. مجـــرد ســـويعات قليلة نقضـــيها فى الراحـــة نعود بعدها الى السير .. اقتربنا من دغل كثيف استطلعت المكان .. مستنقعات هائلة .. فى عمق مياهها يحوم الخطر .. الثعابين والتماسيح عدت الى مكانى .. رأيت ياســـمينة تنتفض .. تتمتم « اللعنة .. اللعنة » على مقربة منها البغـــل « أرقم » يهتز اهتزازات الموت .. وعلى مسافة قريبة ثعبان ضـــخم يتلوى مبتعدا عن المكان .. ربت على كتفها .. أخفت راسها فوق صدرى ..

ـ لن نحتاجه بعد الآن فطريقنا الماء .

بدانا في صنع قارب بدائى .. بعض فروع أشجار ربطناها جيدا .. سفينة نوح .. قذفنا بها الى مجرى الشيطان فوق سطحها احمالنا واجسادنا .. البغل « انشراح » ينظر الينا فى عتاب لفراقنا له والموج يحملنا الى المجهول .. يومان والموج يلاطم القارب .. اخرجت الأيقونة .. ارتعدت ياسمينة فور رؤيتها صرخت !

ـ أيقونة الشيطان .

سألتها :

ـ ماذا تعنى بكلماتك ؟

اجابنى :

ـ طريقها طريق الشيطان يامولاى .

* * *

احسست بالرغبة فى النوم .. رسوت بالقارب على الشاطىء .. ياسمينة تعد مكانا بجوارى .. وضعت جسدى .. رحت فى نوم عميق .. قمت من نومى مفزوعا .. صوت فية بحة ألم ورعب .. يردد .. « ملعون .. ملعون » فرشت بعينى المكان .. ياسمينة تنام بجوارى نوم الملائكة .. نهضت من مكانى ربت شبحا يجرى كأنه الشهب .. ترددت وأنا احاول اللحاق به .. أسرعت أعدو خلفه .. توقف عندما اقتربت منه عاد يمتطى الرياح .. والسؤال الحائر .. ما هذا الشبح .. لماذا يدفعنى الىتعقبه ؟! صرخت بأعلى صوتى :

ـ من أنت وماذا تريد منى ؟!

ما سمعت سوى الصمت .. وهمسات الريح المجنونة .. الشكوك تساورنى .. هل ما أراه حقيقة أم أنها خيالات .. اضغاث احلام .. ماهذا الشىء الذى أعدو خلفه .. انسان .. حيوان .. شبح .. طيف مجرد

سراب ؟! وفى اللحظـة التى قررت فيها العـودة .. اقترب الطيف منى .. ازداد اقترابا .. التصـاقا .. حاولت تبين ملامحة .. خطـوت نحوه .. انتابنى الذعر ارتجفت .. وانا اراه يرتفع فى الفضـاء لسان من لهب يحرق فى طريقه الاشجار .

بدات اتحسس طـريق العـودة .. لقد ضـللت الطـريق .. درت دورتين .. عـدت من حيث بـدأت .. حـل الظـلام .. صرخت .. « ياسمينة .. ياسمينة » صـدى الصـوت يتردد .. لا اسمع سوى زفرة الريح .. حفيف انفاس الكائنات قبل ان تغفو .. احسست بالأعيـاء .. الحمى تجرنني الى مؤرتهـا جسـدى يشـتعل حرارة .. راسى تنفجر .. لم اسـتطع الوقـوف .. تهاوى جسـدى .. ارتطمت بالأرض غبت عن الوعى .. افقت .. راسى تتوسد فخذ ياسمينة .. نظرت اليها من خـلال سحابة داكنة .. سالتها :

ـ كيف عثرت على ؟

تمتمت .. لم اسمع كلماتها فقد رحت من جديد فى غيبوبة .

* * *

اجتزت مرحلة الخطر .. بعد ايام كنا نسـتقل القارب من جديد .. فوق موج مجرى الشيطان .. بدانا نجدف .. ياسمينة تسالنى ؟

ـ مولاى .. ان الالهه لا تصيبهم علة .. ولا مكروه .

ضحكت .. استرابت .. وانا اجيبها :

ـ اذا كانوا حقا آلهة يا رفيقتى .

ردت متسائلة والدهشة تعصرها :

ـ قلت رفيقتك يا مولاى .

ـ مهلا يا ياسمينة ما قصدت بك سوءا .

ـ مولاى .. فداك نفسى وحياتى ان تشرفنى بكل هذا المقام الرفيع فكيف للعابد ان يرتقى للمعبود . ضـممتها الى .. رغبتهـا .. قبلتهـا

استسلمت ليدى .. همست لى :

ـ خذ من أعماق البحر كنوزه .

تلت لها وأنا اغطى جسدها العارى :

ـ الاله لا يسطو على نفائس البشر .

القارب المتسكع ينحدر فوق صفحة المياه بسرعة مجنونة نحو شـــلال هادر .. بدأت استجمع ارادتى .. خيوط أفكارى .. انه الموت .. وهـــذا الشىء من جديد .. لسان اللهب على بعد أمتار يتراقص فوق الشـــلال .. يجذبنا .. يشدنا .. سألت يا سمينة :

ـ هل ترينـــة .

أومأت بالنفى .. صرخت :

ـ انقذنا يا مولاى قبل أن نضيع فى الأعماق .

لا أدرى هل هى الصدفة عندما تلعب دورا مهما فى حياة المخلوقات .. أم انها صرخة يا سمينة .. أم انها احد معجزاتى وفرس النهر يحمل القارب فوق جســـده الضخم الى الشـــاطىء .. الى بر الامان .. وياســـمينة تقبل قـــدمى :

ـ احدى معجزات مولاى .. انتشيت .. سرى بداخلى اعتقاد أننى هذا الاله .. ابتسمت وياسمينة تستطرد قائلة :

ـ كم أحب مولاى .

كم هو رائع ذلك الشـــلال نقاط من الفضة تتســـاقط فوق مياه النهر الزرقاء .. تذوب فى بحيرة واسعة .. نهاية نهر الشيطان .. الأرض أمامى منبسطة .. شاســـعة .. أين أنا من هذه الأرض الملعونة .. لاشىء ســـوى السماء وهى تنطبق على الأرض .. وقول مناع مازال يتردد فى أعماقى عندما تصل اليها تفقد اثرها .. كيف أصل اليها ثم أفقد اثرها ؟! بدأت اجـــول الأرض .. ثلاث ليالى ونحن نتخبط فى ارجائها .. وصلنا جبل شاهق .. ياســـمينة تصرخ :

ـ جبل الشرود .

بدأت أصـــعده .. ابيض اللون .. على قمته تتراكم كتل الجليد ..

الياس ينشـــب مخالبه وانا اعتلى القمـــة .. لا شيء خلفها .. كثبان رملية تحيطها من كل جانب .. هبطت الجبل .. خطواتي حذرة فوق سطح الجبل الاملس .. فجاة تقفز الى دائرة رؤيتي ظبيا ابيضا ... دهشـــت .. ازدرت ريقي .. لم اذق اللحم منذ ان رحلت الأرض .. اقتربت من الظبي .. او اقترب مني .. لا ادري .. لم يجفل لرؤيتي سحبت الســـكين من غمده .. ازددت اقترابا منه .. للتصاقا .. امسكت برقبته هويت بالسكين عليه .. رفع راســـه نحوي ذعرت فقد كان راســـة يحمل وجة انســـان .. حاولت الســـيطرة على مشـــاعري والظبي يختفي من امامي .. يذوب في شـــعاب الجبل .. للحظات قصيرة تسمرت قدماي .. لم اســـتطيع للتقدم خطـــوة واحدة .. اســـأل نفسي .. هل ما رأيت حقيقة ام هو التعب والارهاق .. مجرد خيالات .. لكن الظبي كان حقيقة لمســـتها .. وهـــذا الســـكين الذي شهرته ومازال في قبضـة يدي حقيقة .. وتلك آثار حوافره فوق الصُـــخور الجيرية المساء ايضا .. حقيقة .. اذن فاين هو الوهم ؟!

عدت الى السفح .. ياسمينة في انتظاري .. الشحوب والقلق باديان على ملامحي .. سألتني .. لم اجبها فالاله لا يشكو .. ولا يعترف بضعفه وقلـــة حيلته .. في تلك الليلة بت افكر .. اين تلك الأرض الملعـــونة .. الأيقونة .. نعم الأيقونة .. بتلك البحيرة الصامتة التي يصـــب فيها النهر وهذه الأصـــابع الممتدة التي تقبض على شعاع الشـــمس الساقطـــة فوق المياه .. ماذا تعني تلك الأصابع .. هذا الشعاع الساقط ؟!

كيف يعجز الاله عن تفســـير سر أيقونة الشـــيطان .. لا يمكن ان يكون مثل هذا العجز لاله .. ضـــقت بنفسي .. ياســـمينة تواســـيني .. تخفف عني :

— مولاي لا تحمل هما .

— ياسمينة أنها هموم البحث عن الحقيقة .

- ٢٤ -

استيقظت من نومى .. حاولت النهوض .. لم استطع .. لم اقدر .. قبضات قوية غير مرئية تشـــل حركتى .. ســـاقى .. قدمى ... يدى .. تعوقنى عن الحركة .. عن التقدم .. وطنين فى اذنى .. لا تطأ تلك الأرض الملعونة ــ حاولت التخلص من تلك القبضـــات القوية .. بلا جـــدوى .. اصفاد كبلت بها اطرافى .. صرخت صرخة مدوية :

ــ كيف تفعلون هذا بالهكم !!

انفكت القبضات .. ورياح عاتية تقتلع الأشـــجار .. اعقبهـــا دوى هائل .. فرقعـــة .. فرقعات . الأرض تميد بى .. تهتز ... تتشـــق .. ما هذا .. ماذا اســـمع ؟! صـــليل ســـيوف .. ضربات خناجر .. ازيز ســـهام .. قوى هائلة تحيطنى .. تحمينى انهـــا معركة بين قوى الخـــير والشر .. غير مرئيـــة ولكنى احس بلهثات المحاربين .. بالحـــركة تموج حولى .. بسنابك الخيل اعتليت ربوة .. صرخت :

ــ قاتلوهم .. اذبحوهم .. هيا جنودى .. الموت للشياطين .

احتدمت المعـــركة .. علت صرخات الموت وصـــوتى مازال يحث .. ويشـــجع :

ــ تعقبو فلولهم .. لا تتركوا شيطانا واحدا يفلت من عقابكم .

بعدها هدأت الأصوات .. عم السكوت .. احتوى المكان الصمت .. ياسمينة تقف مشدوهة .. والســـماء تنزف قطراتها .. لم تكن ســـوى قطرات دم !!

انها نهاية المعركة .. والطنين من جديد :

ــ مولاى .. نحن جندك المخلصين .

احســـت بنشـــوة غريبة .. جند متخفى .. تذود عنى .. تصـــون ذاتى .. ترفـــع رايتى تســـتشهد من اجلى .. بات الكون ملكى .. تحت قدمى .. طوع ارادتى .. أسيره .. احركه .. صرخت باعلى صوتى :

ـ انا الاله .. انا الاله .

لن تستطع بعد اليوم اى قوة على الأرض مهما عظم شأنها أن تتحدى ارادتى او تنال منى وتلك القوى الخفيـة تحمينى .. وهذه الجنـود المؤلفة قلوبها على حبى تدافع عنى .. صرخت من جديد :

ـ الالة يناديكم .. انصتوا جيدا فلتخشـع الكائنات .. وليسـجد الوجود .. للاله الأعظم . فى تلك اللحظة سمعت انشودة شكر .. سيمفونية رائعـة .. صـوت الريح وهفهفة الأشـجار وزقزقة للعصـافير وهمس المجهـول .. كلها فى حزمة صـوتية واحدة .. خلعت على الكون ثوبا من الألفة .. من المحبة .. من السعادة .. تراقصـت افنين الأشـجار .. سجدت الكائنات فى صـلاة صامتة .. اتجهت بانظارى الى السـماء .. رفعت يدى شدتهما الى اعلى .. قفزت قفزة هائلة .. صرخت :

ـ لقد ملكت الكون .. لقد ملكت الكون .

انزلقت قدمى .. لم ادر بعدها الا وجسدى يتدحرج لسفح الجبل .. الألم ينشب اظفاره فى جسدى .. لقد التوى كاحلى ولأول مرة ارى ياسمينة وقد كلل وجهها الحزن والألم تتمتم :

ـ كنت قلقه عليك يا مولاى .

احتنتها فى احضـانى .. طفرت الدموع من عينيها .. صـحت مهللا :

ـ ياسمينة انت تبكين !!

قفزت فوق الأرض .. ترقص .. وتغنى .. وتزغرد .

* * *

جاءنى للهاتف .. اللطيف من جديد :

ـ عد الى قومك .

سـألته :

ـ لمـاذا ؟

ـ ساء حالهم .. وتبدلت امورهم .. انظر .

استيقظت وبد ياسمينة تهزني .

ـ مولاى .. مولاى انك ترتجف .

هدات انفاسى تمتمت :

ـ ما رايته افزعنى .

ـ ماذا رايت يا مولاى ؟

ـ كان كل شىء حطاما .

* * *

تجادلت وياســـمينة .. شـــقت على عصـــا الطاعة .. اغوتنى .. اتهمتنى بالخنوثة .. صرخت محتجة :

ـ لماذا ترفضنى .. الست فى جمال تلك المرأة التى اختليت بها وانجبت منها طفـــلا !!

ازدادت حدة ثورتهـــا .. حاولت تهدئتها .. لكنها رحلت عنى وهى تهدد .. وتتوعد ..

الهاتف من جديد يأتينى فى صورة لم اعهدها .. جســـد انسان وراس طائر له شفتان .. وعشرات من الأجنحة تحملة وهو يهفهف بها فوق رأسى !!

تعجبت فكيف للطيف هذه الابتسامة الغريبة .. انه يبتســـم لا ادرى ســـخرية ام رثاء .. وقـــد قبض باحـــدى يديه على شىء لامـــع .. اثار انتباهى .. وهو يهمس لى :

ـ انظـــــر ..

ـ أنظـــر الى ماذا ؟

ـ الى هذا اللوح المكتوب .

فك قبضته .. لم تكن ســـوى الأيقونة .. اســـتيقظت مفزوعا .. لأبحث عن الأيقونة .. انها مازالت معلقة حول عنقى .. حقا انها تحمل سر الملكة الملعونة .. نهضـــت من مكانى .. مازلت ارتعد .. همس المجهول يتحول الى صرخات .. زعقات داخلى .. « انت منقذ الناس .. « خفف عنهم

آلامهم .. امسح عنهم احزانهم » تمكن منى هذا الهاتف .. لست سوى الاله فى ثوب بشرى .. حل بك .. وحللت به .. انت هو .. وهو انت .. صانع المعجزات القادر .. القادر .. الخالق .. ارتقيت ربوة عالية رفعت يدى الى اعلى زعقت :

ـ يا شمس اغربى .. ويا سماء امطرى .. كررتها مرة واثنتين وثلاث .

احتوتنى الدهشة .. لا الشمس انصاعت لأوامرى ولا السماء نفذت ارادتى .. أن الطبيعة تتمرد على الهها .. ليس أمامى الا أن اعاقبها .. صرخت من جديد القى بأوامرى :

ـ أيا فرسان النار الى السحاب اذيبوه .. بددوه .. حتى لا يتمرد مرة ثانية .. ايا فرسان الظلام الى الشمس اظلموا افقها .. امتنو اجزائها وانثروها فى الكون .. عقابا على غرورها ..

بعد أن هدرت كلماتى فى الفضاء .. رأيت الرعد يدوى .. والبرق يأتى .. والشمس تختفى خلف السحاب .. والمطر ينهمر .. ثيابى يبللها الماء وانا اقفز فرحا .. واصرخ :

ـ عفوت عنكم .. عفوت عنكم

* * *

فككت الأيقونة عن عنقى .. تجولت عيناى فوق تقوشها .. تلك الأشعة التى تخترق المياه .. هل هى المعرفة .. هل تخفى تلك المياه سر المملكة الملعونة وعلى المعرفة ان تصل لأعماقها .. ثم ماذا تعنى تلك الأصابع التى تقبض على الشعاع .. هل هو العقل .. أم هى الارادة .. وتلك البحيرة الراكدة التى اراها الآن امامى اليست هى هذا المخطوط المحفور بعناية فوق الأيقونة ؟؟ . لهفة المعرفة ترفع راياتها .. وأنا انزحلق حول شطئان البحيرة .. اين حدودها .. الى اين تنتهى ؟؟ انصرم النهار ومازلت أتجول .. الشمس ترسل أشعتها الى البحيرة .. المياه راكدة .. على بعد امتار ابصرت نافورة ضخمة المياه تتدفق منها .. تذكرت .. اننى رأيت تلك

النافورة على الوجه الآخر من الأيقـونة .. فحصـــتها بدقة .. حقا أنهـــا هى .. ساءلت نفسى وقتها هل أنا فى الطريق الصحيح ؟!

* * *

استيقظت على أصوات ولولة .. وبكاء .. نظرت حولى .. بجوارى امرأة عجـوز .. ضـــاعت ملامحها وقد حفرت الســـنون خطوطهـــا فوق وجهها .. ارتعدت فرائصى وصوتى يضج بالسؤال :

ـــ من أنت ؟!

لم تجبنى .. بكت .. عاودت سؤالها وأنا ابتعد عنها .. أجابتنى بصـــوت ومن :

ـــ لا تذهب هناك يا مولاى .

ـــ أى مكان تعنين ؟ .

ـــ المدينة الملعونة يا مولاى من وطئها ملعون ومن عاد منها ملعون .

قلت وقد احتوانى الذهول :

ـــ انت ياســـمينة .

ـــ لم أعد كذلك بعد أن واريت الخلود قبره .

شقّ على أمرها وهى تبكى .. تولول .. تستعطف :

ـــ انقذنى يا مولاى .. أعد لى صـــباى .

سألتها فى نهم شديد بالمعرفة :

ـــ أين .. أين تلك الأرض الملعونة .

تبخر تســـاؤلى وهى تبتعد عنى بسرعة يذوب طيفها فى جوف الآفاق تصرخ وقد احتواها اليأس :

ـــ لست سوى أكذوبة .. أكذوبة .

فى تلك الليلة لم يغمض لى جفن .. وفى اللحظـــة التى قررت فيهـــا العودة الى شعبى .. أتانى الهاتف يهمس لى :

ـــ انهض .. انهض . فقد حان ميعاد الرحيل .

وعنـــدما سألتهِ :

ـ الرحيل الى اهلى وعشيرتى ؟

اجابنى :

ـ بل الرحيل للحقيقة .

ســـألته من جديد :

ـ اية حقيقـــة ؟!

اجابنى فى رتة ونعومة :

ـ لتباركها وتطهرها من لعنتها .

تجادلت مع نفسى .. جدالا شرســـا .. عنيفا .. قاسيا .. معركة احتدمت فيها الحجج والأســـانيد ســـاحة صراع بين العودة والبقاء رغبتى الجارفة فى الوصول الى الحقيقة .. ياسمينة التى تحولت الى عجوز شمطاء بعد ان وطئت الأرض الملعونة .. عجزى عن اعادتها لشـــبابها .. خشيتى أن اصبح مثلها .. لكن الآلهة لا يعتريهم الوهن ولا تصيبهم الشيخوخة .. وقبل أن تنتهى لحظات الصراع .. سمعت صرخة .. صرخات .. أسرعت أتعقب صدى الصوت .. انها ياسمينة تنزع شعر راســـها تلف وتدور حول نفســـها .. تمســـك بحجر تهشـــم به راسها .. اسرعت نحوها أحاول منعها صرخت :

ـ دعنى وشـــأنى .

لقد خبلت ياسمينة .. حاولت من جديد تطويقها فكت تبضـــتى عنها ابتعدت .. صرخت من جديد :

ـ اكذوبة .. اكذوبة .. كل الآلهـــة اكذوبة اندفعت ترتقى قمـــة الجبل .. بعد ذلك بلحظات رايته جسدها يتدحرج فى الهواء الى سفح الجبل وصـــوتها يردد :

ـ اكذوبة .. اكذوبة .

* * *

اخيرا .. داســت قدماى الأرض الملعونة .. نثرت ترابها .. نجلت ارجائها .. ابحثُ عن حقيقة تهديني لسر اللعنة .. تطلعت الى وجهى على صفحة مياه جدول مازلت كما انا لم يعترينى الوهن أو الكبر ابتســمت .. هكذا الآلهة لا تصيبهم اللعنة .. بدا للظلام يكســو كلشيء بردائه الرمادى وصمته المهيب .. انتحيت ركنا فى سفح الجبل لاقضى فيه بقية الليل وقــد ملك اليأس على نفسى أن أعثر على سر هذه اللعنــة .. عدت بذاكرتى الى الأحداث التى مرت بى .. الأيقونة وياسمينة والهاتف للذى خاصــمنى منذ ان حلت الأرض الملعونة .. لم يعــد يأتينى .. غفــوت لعلّه يحادثنى دون جدوى .. وعندما اســتيقظت .. كنت احمل هما ثقيــلا .. انتابنى فزع هائل .. بريق يخطف بصرى .. على بعد امتار .. الأرض تشــع ضــوءا كيف .. اتجهت الى الضــوء .. اين مصــدره .. هــل هى حيــوانات نوسفورية !؟ امســكت بحفنة من التراب .. نثرتها .. تناثر عقود من الضوء فى الفضاء .. ضحكت بهستيريا .. اهتز جســدى .. وجدانى .. صرخت :

ــ حتى الأرض تحتفى بالالة .. وقبل ان تسكن كلماتى فى فضــاء الصمت رأيت أمامى كهفا .. بنلية .. مسحت عنها التراب .. نفس رسم الأيقونة .. للشعاع النافذ الى الأعمــاق فى هذه اللحظــة .. تأكد لدى .. ان الأعماق باطن الأرض .. وليست اعماق البحيرة .. بدأت من فورى فى فتح باب الكهف .. صــخور مدببة تعلق عنى الحقيقة .. احاول بالمعول ان افتح ثغرة .. يوم كامل وانا اكرر محاولاتى .. اخيرا نجحت .. وقبل ان اعبر الى داخــل الكهف لملمت حاجياتى وأشــيائى المبعثرة .. المؤونة والماء والمعــدات .

مســيرة يوم داخل الكهف دون ان أصــل لشيء تعــودت عينى على الظــلام .. بدأت اتبين معالم الطريق الذى أســلكة .. انحدار هائل .. تشبثت بالصخور .. تدحرج جســدى .. الى أسفل الى الأعماق .. فوق سطح بحيرة آسنة .. صــخت فرحا وأنا أسبح الى شاطىء البحــيرة .. وشعاع يفيض بضــوئة على ســطح مياهها لقد قاربت الحقيقــة .. لكن

ما عثرت عليـــة .. اصـــابنى باليأس .. بالاحباط .. فلم اصـــل لنبع الشعاع .. ولم اســـتطع ترجمة رســـم الأيقونة لأصـــل للحقيقة وسؤالى الحاضر .. وماذا بعد .. اى طريق أســـلك وامامى عدة سراديب .. بدأت استطلع المكان بعين فاحصة علنى اهتدى الى سرداب الحقيقـــة .. خارت قواى وأنا اطعم بعض الاعشاب بعد أن تبعثرت مؤونتى فى شـــعاب الكهف ولم استطع العثور عليها .. احساس غامض ينتابنى أننى صريع هذا المكان وأنا اعثر على جماجم بشرية وســـؤال يهز وجدانى .. كيف بالعودة .. والى متى ساظل صامدا ؟! .. فى الليل جاءنى الهاتف مبتسما .. ســـعدت برؤيته .. فقد هجرنى فترة طويلة .. طمأننى :

ـــ لا تخشى فكلنا فى حراستك .

قررته بعدها ان أخاطر .. أن اكمل مسيرتى بلا طعام او ماء فالقوى الخفية تحرسنى حتى من الجوع والعطش .. بدأت أتحسس طريقى .. نعم هذا هو الطريق الذى على أن سلكه .. خطوات سريعة .. واثقة .. التعب بدأ يحل بى .. الجوع والعطش ينشبان مخالبهما فى جسدى كم أريد قطرة ماء ترويني .. لم أعد استطيع التقدم خطوة واحدة .. أنها النهاية لا ريب فى ذلك .. صرخت قبل أن تحتوينى الغيبوبة :

ـــ كيف تتخلون عن الهكم !!

ـ ٢٥ ـ

صور غريبة مشوشة تمر بى .. رجل وقد ثبت فوق جبهته مصباح كهربائى .. صاح لزميله :

ـــ أنظـــر ماذا وجدت .

زميله يرد عليه ســـاخرا :

ـــ جئنا نبحث عن الآثار والمخطوطات لا عن بقايا القرود .

قال وهو يسلط على وجهى شعاع مصباحه :

ـــ هل رايت هذا الوجه من قبل .. او هذا الشعر الكث .. هيا احمله

معى . فقد يفيد معامل الأبحاث . الصور تتابع .. سيارة اسعاف تحملنى بسرعة رهيبة الى احدى المستشفيات .. اودعونى فى احـدى حجراتها .. جرعات قوية من العـلاج .. فقد كنت فوق قارب الموت .. وعندما استفقت رايت جسدى مشدودا الى سرير .

* * *

سـألت :

ـ لمـاذا ؟ ؟

اجابنى أحدهم :

ـ انت الانسان القرد .

ضحكت .. دهشت الممرضـة .. استدعت الطبيب .. سـألنى ان اضحك مرة ثانية .

ـ غرقت فى الشكوك .. اين أنا ؟ وما هؤلاء الناس ؟!

انهم من عوالم متقـدمة .. فكل شىء لديهم يدار بالأزرار .. حركة الأبواب .. النوافذ .. الجدران .. الاثاث .. ما على الانسان الا ان يضغط على زر .. فيلبى طلبه فى الحال زر للطعـام .. للشراب .. بل اكثر من هذا نوع الطعام أو الشراب .. او اسلوب الترفية .. المستشفى كله يعمل بالكمبيوتر والانسـان الآلى .. لا يوجد فى المسـتشفى من البشر سـوى ثلاثة .. المدير ومساعداه .

فور لقائى بالطبيب الح على ان اضحك سالتة :

ـ لمـاذا ؟ !

اجابنى والفضول يعصره :

ـ كيف للقرد القدرة على الضحك ؟

ـ لا أدرى من منا هذا القرد !

لم يمر لأهانتى انتباها .. سألنى من جديد :

ـ حاول أن تضحك فقد يفيدك هذا عند محاكمتك .

امامى ممرضـــة جميلة .. رفعت طرف ثوبها .. مثل ما كنت افعل عنـــدما كنت نزيل احدى المستشفيات .. ساعتها كانت ضـــحكتى ترن .. لكننى اصبت بالدهشـــة فلم ار سوى كمبيوتر بين فخذيهـــا .. أصـــابنى الوجوم .. كيف هى بهذا الاتقان وتلك الدقة فى الصـــناعة .. للدرجة التى لم اكتشف أنها امراة آلية .. صاحت الممرضة معلقة :

ـــ أنظر يادكتور ماذا اعترى القرد ؟

فى تلك اللحظـة انفتحت كوة صـــغيرة فى جدار ذاكرتى .. حقا اى مستشفى تلك التى كنت أمارس فيها هوايتى المفضلة .. فى أوقات ينحسر الثوب عن فخذان لا يسترهما سروال .. ويتحول وجه الفتاة الى قطعة من اللحم الأحمر خجلا .. وفى مرات اخرى أرى سروالا كله ثقوب .. مهلهل .. لينفذ منه الهـــواء والماء !! وتلطمنى كلمات الســـباب .. والتحقـــير .. بلا جدوى .. لقد اصبحت احدى عاداتى السمجة عندما اكون نزيل أحـــدى المستشفيات .. الكوة تزداد اتساعا .. نوال الحكيمة عندما اختليت بها فى حجرة بالمستشفى .. كنت وحيدا .. اتت الى تعرض بضاعتها .. خلعت ملابســـها أخذت تخطـــو امامى عارية .. رائحة غارية .. جسدها قـــوى البنيان ..رائع التقاسيم بالونتان لم تتهدلا بعد .. الشعر يكسو أســـفل البطن .. شعر اســـمر داكن .. اغرتنى .. ثم بدأت تربت على جســـدى بيدها الرقيقة .. تهمس لى :

ـــ كم أنت عنيـــد .

يدها تنزحلق الى اسفل .. الى اسفل .. وأنا اغوص الى الاعماق .. الى أسفل .. الى اللحظة التى انفتح فيها الباب لنرى امامنا مدير المستشفى وهو يقف متاملا للجسدان العاريان جسدا واحدا لا يسترهما سوى فضـــاء الحجرة .. وضجيج تاوهات نونو الخليعة .. الكوة تزداد اتساعا .. نوال فصـــلت من عملها .. اتت الى باكية .. تطلب الثمن .. رفضـــت زواجها انتحرت .. استيقظت والممرضة تصرخ :

ـــ انه يبكى يادكتور .. القرد يبكى .

عادت الكوة تنغلق من جـــديد .. والدمـــوع تنهمر .. لا ادرى لم .. ولكننى كنت فى حالة من اليأس غريبة .

* * *

بعد أيام وبعد أن اســـترددت عافيتى بدأت الابحاث .. تحليلات .. واجهزة .. وصور أشعة .. وعينات من كل جسمى حتى الشعر اخذوا منه عينة لتحليلها .. كنت اشـــبه بفأر التجارب وهم يجرون على ابحاثهم .. ويدرسون عن قرب كل ظواهرى الانسانيـــة .. من ضـــحك وغضـــب .. وابتسام .. وكلام .. وانفعالات حزن أو فرح .. وانعقـــدت المؤتمـرات العلميـــة للحديث عن هذه الظاهـــرة الفريدة كيف لفرد كل هذه الظـــواهر الانسانية ؟! كيف لفرد أن يتكلم ؟! افردت الصـــحف والمجلات صـــفحات للحديث عنى .. وبث التليفزيون والراديو برامج تتحدث عن تطـــور الفرود الى هذه الحالة التى شق عليهم تفسير ظواهرها .. وأسلوب حياتى .. كيف انام .. وآكل .. وأشرب .. والهـــو .. اعتبروها معجزة المعجزات التى عجزوا عن تفسير أسبابها .. شهور وأنا تحت الملاحظة الدقيقة .. الى ان بدأت الشـــكوك تنتابهم .. فقد قاموا بتحضـــين حيوان منوى مأخوذ منى داخـــل رحم قردة .. وآخر داخـــل رحم امرأة وكانت النتيجـــة مذهلة غير متوقعة .. فقد نجح زرع للحيـــوان المنوى داخل المرأة بينما مات مثيله فى رحم القردة .. وقتها قامت القيامة .. وخابت معظم التوقعـــات وبـــدأت افتراضات جديدة .. تضمنتها مانشيتات الصحف .. « زائر من كوكب آخر » « جاســـوس من كوكب متقدم » « الفرد الانســـان » « اين الحقيقة فى القرد الآتى من السماء ؟ ! »

أخيرا وقفت متهما أمام محكمة الحقيقة .. أو كما اطلقوا عليها محكمة التاريخ .. رئيس المحكمة يســـاعده قاضـــيان .. وكمبيوتر تغذيه أقوالى واقوال الادعاء واسئلة هيئـــة المحكمة .. وأجاباتى .. ليساعد القاضى فى اصـــدار الحكم .

سـألنى المـدعى :

ـــ من أنت ؟

ـــ انا زائر من الجنة .

ـــ وأين الجنـــة ؟

ـــ خارج هذا الكهف .

ـــ وكيف أتيت ؟

ـــ بمساعدة جنودى .. للقوى التى تحرسنى !!

ـــ وكيف هى ؟

ـــ قوى خفية .. لا يمكن وصفها .

ـــ وأين هم الآن ؟!

ـــ معـــى !

ـــ هل تستطيع ان تدلنا عليهم ؟

ـــ نحسهم لكن يتعذر علينا رؤيتهم .

ـــ اذا كنت لا تستطيع رؤيتهم .. فكيف عرفتهم ؟

ـــ الاله دائما له حراسة وجنوده .

ـــ كـــلامك غريب .

ـــ والاغرب منهُ حديثكم .

قال المـــدعى :

ـــ ان ما تقوله تهويمات وخرافات .

ـــ بلْ ما أقـــوله حقيقة .

ـــ أنت اذن الاله .

ـــ أنا هو .. وهو أنا .

عاد الصمت يطرق ابواب المكان .. وأنا اسأل :

ـــ لكن ما هى تهمتى ؟

ـــ التخلف والبدائية .

ـــ اذن لماذا هذا السجن الزجاجى ؟

ـــ ليس ســـجنا .. بل صـــندوق زجاجى نقى به الناس احتمالات

للعدوى التى قد تنتقل منك .

ـــ ولكنكم قضيتم على كافة الفيروسات التى كنت احملها بتعقيمى .

ـــ معظمها .. وليس كلها .

ـــ ومتى يتحدد مصيرى ؟

ـــ بعد انتهاء المحاكمة .

قلت ساخرا :

ـــ اعددتم أذن مسودة حكم الاعدام .

فى تلك اللحظة ارتجت ارجاء القاعة .. عدة انفعالات متباينة تنتاب الجمهور وهيئة المحكمة .. شعور بالغضب بالازدراء .. بالدهشة .. بالحيرة . مرت لحظات كانها دهر .. خلت بعبارتى تلك أننى قد أتيت أمرا فريا والمدعى يسألنى يستوثق من كلماتى الفائته :

ـــ ماذا قلت ؟

ـــ قلت أنكم اعددتم مسودة حكم الاعدام .

فاجأنى بقوله :

ـــ الاعدام كلمة شطبت نهائيا من قاموس قانون مملكتنا منذ آلاف السنين .. بل اكثر من هذا لقد شطبت نهائياً كلمة العقاب .

ـــ تقصد أنه لا عقاب على جريمة .

ـــ المجرم عندنا مريض نعالجه ونقومه ولكن لا نعاقبه .

ـــ وتتركون عقابه للاله

ـــ أى اله تقصد ؟

ـــ لكل عقيدة الاه يذود عنها ويحميها .

ـــ الهنا هو القانون .

ـــ أذن فلا ثواب ولا عقاب ولا بعث .

ـــ الاثابة احدى المبادىء الأساسية التى تقوم عليها حضارتنا .. وكذا البعث .. لكن ما نقصده بالبعث هو بعث الانسان أثناء حياته لا بعد الموت .

ـــ والشياطين والملائكة والجن الصالح والطالح .

ـــ وهو ما تعنية بجند الله .. خرافات دفنت منذ ثلاثة آلاف عام .

ـــ وللجنة والنار ؟

ـــ الجنة هى ما تراها امام عينيك .. حضارة شعبنا .. والنار هى التى نشوى عليها للحم .

ـــ وهذه الحضارة كيف وصلتم اليها ؟

ـــ بالعلم واعمال العقل والارادة والاستفادة من عبر التاريخ .

ـــ رغم انكم تعيشون فى باطن الأرض .

ـــ لهذا المكان تاريخ وحضارة وذكريات مريرة .

ـــ كم أود أن اســـمعها .

ـــ هجرنا الى باطن الأرض هربا من الموت .

ـــ مثلكم مثل نـــوح .

ـــ شتان مابين الأثنين فنوح هذا أشهر على الناس تهديده ليبتز منهم ايمانهم .. اما نحن فلدينا اختيار تام تؤيده وثائق ومستندات .

ـــ لكن انكار الاثابة والعقاب بعد البعث يعنى الفوضى .

ضحك بسخرية أعقبها قولته :

ـــ كما تراها الآن فى مجتمعنا !!

ـــ قد تكون حضـــارتكم مؤقته .. كالبرق الذى يومض فجأة لينطفا بعد ثـــوان .

ـــ تقصد بحديثك حضارة الأرض .

تفكرت قليلا فيما قاله .. سألته فى ريبه :

ـــ وهل هى كذلك ؟

ـــ يا اله القرده .. أن أنكار فكرة الاثابة والعقاب يوم البعث العظيم وحتى أنكار وجود الاله لم ولن يهدم مجتمعا .. انما الانحلال ياتى من داخل المجتمع نفسه بتحلل خلاياه .. فالحضارة بعناصرها الأساســية من ارض وشعب وارادة عمل لا صـــلة بينها وبين الاعتقاد بوجود الجنـــة أو النار أو انكار وجودهما .. بمعنى انه لا ارتباط بين الحضـــارة وبين هذه المعتقدات فقد توجد حضارة بين شـــعوب لا تؤمن بهذه المعتقدات .. وبالعكس قد تجد

البدائية والتخلف فى شعوب تتمرغ فى وحل هذه الخرافات . والدليل على ذلك انتم ونحن .. وبعض الشـــعوب القديمة التى كانت تمثل قمة الحضارة رغم انها لم تكن تعتقد فى وجود الاله كما صـــورته الأديان فالثواب والعقاب بعد البعث لم يعد حافزا للمجتمعات على الأخذ باسباب الحضارة .

بل وانقلب لضده واصـــبح الوســـيلة لاجترار الظلم ، الحمار الذى يمتطيه الحاكم وحوله حواريه من رجال الدين يخوض به برك الفقر والجوع ممنيا قاطنيها بالجنة بعد الموت .. طالبا منهم الصـــبر على بلائهم انتظارا للآخرة التى ســـيجدون على جنتهـــا الراحة التى افتقدوها فى حياتهم والتى ســـينعمون فى ظلهـــا بكل متع الدنيـــا التى حرموا منهـــا .. من لم يتزوج ســـيجد الحور العين .. ومن لم يعثر على حظـــيرة يسكن فيها ســـيقطن الجنـــة .. وتدفع هـــذه الآمال الكاذبة قطعـــان البشر للاســـتسلام للظلم والاستبداد والقهر والاســـتذلال والجـــوع والحرمان املا فى جنة اخرى غير ارضية يقطف ثمارها الانسان بعد موته وكان هذا هو الحادث عندنا قبل أن نثور .. الحكام يمتطـــون شـــعوبهم .. يهزون ارجلهم وحولهم حواريهم يتشدقون بالجنة دون أن يســـألهم ســـائل « ولماذا لا تحرمون أنتم انفسكم من متع الدنيا .. املا فى تلك الجنة العذراء » . والغريب أن الناس صدقوا وصدقوا من كان يطعنهم من الخلف بكلمات المواساة والتى تحمل فى ثناياها كل الغش والخداع .

هل قرات او ســـمعت عن مجتمـــع إنهار لانة لا يؤمن بوجـــود يوم البعث والحســـاب ؟!

لم ارد .. استطرد قائلا :

ـــ المجتمعات تنهار عندما تنهار اخلاقياتها وتسمو عندما تســـمو .. الأنهيار والحضـــارة مرتبطة اساسا بارادة الشـــعوب فى البقاء ومقـــومات الحضارة ليس من بينها هذا الاعتقاد ومع ذلك فان فلسفة العقاب والثواب لا يمكن انكارها فى القوانين الوضـــعية فهى التى تضـــع حد المســـموح به والممنوع .. وعن فلســـفة العقاب الدنيوية هذه اخذت الأديان فكرة العقاب الى مابعد الموت وأخذت ايضا ما ارتبط بفلسفة العقاب تلك .

قلت متسائلا :

تقصد القانون والحكم الذى ينفذ القانون .

اجابنى :

ـ هذه بديهيات .. بل اقصد بعض الأمور التى يشترك فيها الحاكم مع الاله حق العفـــو المقرر للحاكم ويقابله حق المغفـــرة لله .. للحاكم يملك الأرض ومن عليها .. ويقابله الله ملك السموات والأرض .. الحاكم يرى بعيـــونه (جواسيسة) والله يرى ويســـمع هو الآخر واخـــدى وســـائله ملائكته .. الحاكم يخرج عن طاعتـــه خـــوارج .. والاله خرج عن طاعته ابليس .. وفى نهاية المطاف نجد تطابق غريب مع تحـــوير ذكى فى الأديان . وهذا ما يدفع للتساؤل لماذا فشـــلت فكرة الاثابة والعقاب فى دفع الانسان للتحضر .. أن الذى ينتظم تصرفات الفرد باعتباره احدى الخلايا فى نسـيج مجتمعه ليست فكرة الجنة والنار .. بل الاختيار .. فعندما يمتنع الانسان عن ارتكاب جريمة فليس مبعث هذا الامتناع الايمان بفكرة الاثابة والعقاب يوم البعث .. بل مبعثه الآختيار الممنوح له من خلال التفكير فى آثار الفعل والمحاذير والضوابط والممنوعات التى وضعت على هذا الاختيار .. قد يكون الأحساس الدينى فى بعض المجتمعات البدائية وما يستتبعه من فكرة الجنـــة والنار .. قد يكون هذا الاحساس احد أسباب الممنوعات .. لكن لا يمكن أن ننكر حتى فى وجود مثل هذا الباعث الأسباب الأخرى التى تدخل فى بلورة صورة الاختيار النهائى .. كوضع الفرد الاجتماعى وقدرته على وزن الأمور والأختيار بينهما .. وقوة الردع الوضعى كالخشـــية من عقاب القانون .. أو لاعتبارات أخلاقية قد يدخل فيها الشعور بالخوف من الاله أو الغضابة .

قلت متسائلا :

ـ ومع ذلك فتوجد أمور لا يعاقب القانون مرتكبهـــا ومع ذلك فقـــد اجمعت المجتمعات على نبذها وأنكارها فمثلا الكذب والنفاق والغش والخداع والنميمة لا عقاب دنيوى عليها فاذا كنا ســـنرفض بشأنهـــا عقاب الله .. فما عقاب مرتكبها ؟؟

ـ طرح السؤال بهذه الصورة يعنى فهم خاطىء لمعنى العقاب .. ذلك

انه توجد قاعدة جوهرية علينا ألا نتناساها وهى أن الكذب .. والغش .. والخداع .. والنميمة مسميات قديمة .. الحد الفاصل فيها بين الحلال والحرام حسب صيغة الأديان .. وبين الخطأ والصواب حسب صيغة القوانين الوضعية هو عنصر الضرر .. اذا تحقق ضرر نتيجة الاتيان بهذه الأفعال .. اى نوع من الضرر سواء أكان ماديا أو معنويا يعتبر خطأ .. اما اذا لم يحدث فيتراجع الفعل الى دائرة النية التى لا يعاقب الانسان عليها .. والنميمة التى وصفت فى بعض الاحيان بأنها أكل لحم الميت .. اذا كانت تقييما يحدثه الواقع فلا خطأ فيها ولا حرام .. تماما كمن ينعت السارق بوصفه .. فهو لا يخرج عن نطاق التقييم المباح .

ـ معنى هذا أن يفلت المجرم الذى لم ينله عقاب القانون اذا كنا سننكر عقاب الآخرة .

ـ أيها القرد الكبير لو استطعت ان تفهم بعقلك فلسفة الحياة لما وجدت غرابة وأنت تطرح مثل هذا السؤال .. أن أخذ نواميسها الصراع بين قوى الخير والشر .. فالشر واحد من أعمدة الحياة لا تستقيم بدونه وجه قبيح له وجه آخر حسن . فالموت شر يحاول العلم الاجهاز على أسبابه بشتى الطرق ومقاومته وتأجيل يومه وهو ايضا خير . فماذا يحدث لو اجهزنا على الأمراض وبالتالى على أسباب الموت فى تلك الحالة لن يكون أمام المجتمع الا خيارات صعبة منع الانجاب أو التقتيل .. فما يعتبر شرا قد يكون واحد من أسباب ابقاء .. واذا انتهى الشر كواحد من نواميس الحياة .. فلن تستقيم الحياة بدونه .. رغم أنه من ألد أعدائها .. تحاربه وتحاول ان تقضى عليه .. ولكن لا يمكن القضاء عليه لأن فى القضاء عليه نهاية لمعنى الخير .. نهاية لمعنى الصراع .. نهاية لمعنى التقدم الانسانى ولا عجب اذا كانت الزهور تزهر .. والأوراق تخضر على مخلفات الحيوان .

ـ لكن هل تنكر ان الايمان بالجنة والنار كانا من أحد اسباب التقدم الانسانى على مر العصور :

ـ ليس هذا بالضبط .. لكن الايمان بهما كان حافزا للانسان ليموت

من أجل تثبيت دعائم الأديان .. فقد سيطرت هذه اللحمة الفريدة على كل صـــغيرة وكبيرة فى حياة الناس فى حقبات معينة .. وانبثق من هذه اللحمة امتناع الناس بالبعد عن المعاصي فاصـــبح المحور الرئيسي للمحظور والمباح هو الخوف من نار حارقة أو الرغبة فى جنة وارفة وليس من داخل مسببات التحريم أو الابلحة ـــ لذلك فعندما بدأت فكـرة الاثابة والعقاب تضـــمحل وبقل تأثيرها بدأ موج الدين ينحسر تدريجيا خاصـــة بعد أن فقدت فلســـفة الترهيب والترغيب والتى كان لها مفعول السحر فى العصور المتقدمة تاثيرها فى العصور اللاحقة ذلك انه اذا كان منطقيا ترغيب الانسان البدائى المتعطش للماء والجنس والطعام بالجنة التى تجرى من تحتها الأنهار بقطوفهـــا الدانية وجواريها والخمر المتقة .. لم تعد مثل تلك المغريات تثير اهتمام الانسـان المتحضر .. فالماء حتى مثلجا والمرأة حتى عارية والفاكهـــة فى غير أوانها لم تعد تلك الأمور تجتذب حتى الفقير او تشحذ ايمانه ليفعل الخير او ينتهى عن الشر بعد أن دانت له قطوف العلم واختراعاته .. ومع ذلك فالعقل يقف حائرا أمام تساؤلات عدة تنخر بنيان فكرة الجنة والنار التى عشعشت على العقول وهيمنت على التفكر الانسانى خاصـــة ونحن لا نجد اجابة شـــافية على تلك التســاؤلات لا من خـــلال العقل البشرى ولا فى الكتب .. ولا فى الحـــواش والهوامش .. العقل يقف امام باب سد بالاسمنت المســـلح يحتاج لعشرات من اصابع الديناميت . اول ما يخطر على بال اى مفكر كيف يعود الانســـان للحياة فى هذا الفندق الالهى .. ثم ماهى صورة الانســـان عند بعثه ؟! ثم ماهى نوعية هذه الاجساد ؟ .. هل ســـتخضع لناموســـها البشرى ام ان قانونا جديدا سيشملها .. ويغير من خصائصها البشرية .. عجينة اخرى لا تحمل من البشر سوى الاسماء ؟؟ ثم ماهى اللغة التى يتحدث بها قاطنى الجنة ؟ . واين يقطنون ؟ . هل فى بيوت مؤثثة تاثيثا حديثا بأحدث الأجهزة من تكييف وثلاجات أم أن قاطنيها سيقطنون الخلاء ؟ . ثم ماهى نوعية هذا المجتمـــع أى قانون ســـيحكمه ؟! .. وماذا عن الخـــلافات التى تحدث بين الناس ..كيف تحسم .. وماهى اداة الحسم .. شرطة ام قضاء ام حاكم ديكتاتورى ؟؟ وماذا عن حاجة الانسان اليومية من طعام وملبس ومسكن ..

مئات من اللماذات والتساؤلات تختلج بها النفس .

فى هذه اللحظـــة خط على قلبى نسر يمزقة .. ان كل ما يثـــيره ليس ســـوى انكارا للجنـــة التى اعيش بين ســـكانها !! ان الأجابة على هذه التساؤلات من خلال ما رأيته .. وما اعيشة يعنى أمر واحد اننى لست على أرض الجنة .. شردة قصيرة عدت بعدها الى محدثى وهو يستطرد قائلا :

ـــ فلنبدأ بصورة الانسان عند بعثة . الاقرب الى التصـــور العقلى ان الانسان يبعث بالصورة التى مات عليها الطفل طفلا .. والشاب شابا .. والكهل متكهلا لكن فى اطار قانون النمو وخاصية الشبوبية .. فلكل شباب رغم أنه ينمو .. ترى على الكهل آثار السنين بتعبيرات وأخاديد بشرته .. لكنه يحمل جسد شاب .. بتوقد ذهنه .. بوميض خاطره .. بقوة جسده المحصـــن بطبيعته ضد الأمراض والتى لا وجود لها !! وبالتالى ســـيصبح للطفل لعبته .. وحضـــانته .. ومربيته ولفة .. ومدارســـة .. وللكبار هواياتهم من الطعام والمراة وضروب اللهو المختلفة ..

قاطعته متسائلا وعقلى تدوسه الحيرة .. وتنهشه التساؤلات :

ـــ لكن كل هـــذا يحتم وجـــود مرافق من مبانى .. وملاعب وادوات مدرسية ومواد اولية كالأسمنت والحديد والطوب والورق .. فكيف يتسنى ذلك وأهل الجنة لا يعملون بل يستمتعون فقط بملذات الحياة ؟!

أجابنى بسـخرية لاذعة :

ـــ الأقرب الى التصور ان الذى يعمل لخدمة اهل الجنة هم أهل النار هم الكادحون .. ينظفون الشـــوارع .. ويقيمون المبانى .. وينشـــئون المرافق .. ويجمعـــون القمامات .. ويطهـــون الطعـــام .. ويعملـــون فى المصانع .. كل المصانع من الابرة الى الصاروخ عدت اسأله من جديد علنى أضـــيف الى معارف مليثرى عقلى ويبـــدد عنـــه الســـحابة القاتمـــة .. للغموض الجاثم :

ـــ معنى هذا أن اجساد المبعوثين ستخضع لناموس الطبيعة البشرى بمعنى أنسجة وخلايا ودم وأجهزة وبالتالى مخلفات صـــلبة وســـائلة ..

وما يستلزمه هذا من وجود دورات مياه .. وحمامات للاغتسال من الجنابة ورائحة العرق !!

قاطعني رئيس المحكمة قائلا :

ـ وقد تخضع لقانون آخر غير بشرى .. أجساد بلا مخلفات سائلة او غازية كعادم السيارات .. لذلك فلا ضرورة لأجهزتهـــا الداخلية من قلب وامعاء ومعدة . ومن ثم يخضع الجسد لقانون آخر غير قانونه البشرى .. وبالتالى يتحول هؤلاء المبعوثين الى نوع آخر غير انسانى لا يحمل صـــفات البشر .. مجرد عجينة اخرى لا تحمل من البشر سوى الأسماء والسؤال من اذن سينعم بالجنة .. ومن ســـيتعذب بالنار وقد تحول الانسان الى بديل آخر لا يشترك مع الأصـــل الا فى الاسم فقط؟! وبعد ان يتحول الشيء الى نقيضه كيف نثيب هذا النقيض او نعاقبه على فعل ارتكبه غيره !! ؟

مرت فترة صمت قصيرة .. استطرد بعدها متسائلا :

ـ فهل هذا هو ماعندكم فى الجنة ؟!

لم أنطق .. حل الصمت بالقاعة وهو يوجه الى سؤالا آخر :

ـ واللغـــة التى تتحادثون بها فى فندقكم .. كيف يمكن التفاهم بين بدائى لا تصدر عنه سوى همهمات .. وبين متحضر ارتاد الفضـــاء .. بين قاطن القمـــر وقاطن الكهف .. كيف اســـتطعتم فى جنتكم التغلب علـــى تلك الصـــعوبة ؟

قلت فى بهجة المكتشف :

ـ اراك تحاول أن تدق بهذا التحليل مسمار الأخير فى نعش جنتنا .

قاطعنى فى حماس زائد :

ـ واين تقطنون .. فى العراء أم داخل كهوف ام فنادق مكيفة أم داخل اكواخ من الطين .. أم فيلات فوق السحاب !!

ثم ماهى نوعية المجتمع لديكم .. اسرة وأولاد أم مجتمع فردى انانى يغيب عنه الاحساس بالتضحية والســـعادة والحب والاخلاص والتفانى .. لأنها معانى مفتقدة لدى مثل هذا النوع من البشر لأنه لا يمكن الاحساس بها الا مع الألم .. وبالتالى يصـــبح الانســـان مجرد حجر صـــلد أجوف ..

فلا اجهزة داخل تجويف بطنه او صدره او رأسه .. فهو ليس سوى تمثال من الصلب الأجوف .. ثم كيف يزوح الانسان عن نفسه لديكم .. اسرافيل يغنى على انغام جوكة الملائكة مع رقصـــات الســـامبا للجن الأزرق والأحمر رزعقات الشياطين وهز بطن ابليس العاق .. الذى ســـيمتطيه رواد الجنة كما يمتطى السائحون الجمال .

ضجت القاعة بالضحك والتصفيق ورئيس المحكمة يستطرد قائلا :

ـــ والثياب .. هل يمكن اقناع القردة بارتداء الثياب والسراويل .. خاصة وان احدى المحرمات شديدة اللهجة تقضى على الفتيات بارتداء الملابس « الحشـــمة » ثم كيف بتجهيز هـــذه الثياب .. وتلك السراويل هل لديكم مصانع لتصنيعها .. يديرها الملائكة والجن الطالح !!

لم أرد .. مسخريته لاذعة .. عاد الصمت يلف القاعة .. وعاد صوته جمهوريا .. قويا .. واثقا :

ـــ لقد قلت ان الانسان لديكم خالد لا يتألم .. فى هذه الحالة ستراه على طبيعته العذرية بعد ان فقد احاسيس الحيـــاة .. من حب .. وخجل والطعـــام .. الحق يقـــال انه لا يمكن أن يقتصر على ثمار الفاكهة فقط فكل ما يطلبه الانسان يجاب فى غمضة عين .. يصفق بيجية فتأتيه الوائد كما فى الف ليلة .. اما كيف فهـــذا سلـــم لدنى !! لا يعرفه البشر .. فهـــل عرفته انت يا اله القـــردة وعرفتنـــا به .. كيف يأتيكم الطعـــام مطهيـــا مزخرفا انواعه .. ام يأتيكم فى الاحلام فقط ؟!

قلت مقاطعا :

ـــ خلاصة قولك انك تنكر الجنة .

لم يأبه لسؤالى بل استكمل حديثه قائلا :

ـــ ثم أين يقع هذا الفندق الالهى .. اين موقعه فى الاجرام السماوية ؟

اجبتـــه :

ـــ فى السماء السـابعة .

ـــ واين تلك السماء السابعة ؟

ـــ يفصلها عن الأولى ست سماوات !!

ـ تقصد بالسماء الأولى تلك التى بنيت بغير عمد .. وعليك أن تعد سبع اسقف بعد البدروم .. لكم نود جميعا رؤيتها .

سألته فى بلاهة :

ـ الجنة أم السـماء ؟!

ـ ما أقصـده هو الجنة .

ـ اشحذ ذهنك فقد تستطيع ذلك كما فعل الأولون !!

فى تلك اللحظة أضاء الكمبيوتر بعبارة :

ـ « اجابة تدل على عقل بشرى متقدم » .

اعقب ذلك قول رئيس المحكمة :

ـ قم بوصـفها لنا .

ـ ليست سوى حديقة وارفة الظـلال .. تجرى من تحتهـا انهار العسل واللبن والخمر .. ويلبس قاطنوها ثيابا سندسى واستبرق ويتحلون بالجواهر ويتكئون على الارائك ويطوف عليهم ولدان مخلدون وتنحنى اغصان الاشـجار ليلقم قاطنوها الفاكهة .. وتجد أيضا قاصرات الطرف لم يطمثهن انس ولا جان كانهن الياقوت والمرجان وكواعب اترابا اجسامهن من المسـك مبرأة من نقائص البشرية وآثامها لم تنقص الأيام ولا الأعمـال ولا الموت من جمال أجسادهم .. ولكل رجل من الصالحين اثنتان وسـبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل ..

قاطعنى رئيس المحكمة :

ـ يا اله القردة لسـتا فى حاجة لهدم هذا المفهـوم الى ادلة خارج مقاطع الحروف بعد ان استكشف الانسـان بعقله آفاقا اخرى للاسـتمتاع الحسى والعقلى تفوق مثل هذه الأوصـاف والتى أصـبحت نقطة فى محيط الأعاجيب والتى نراها كل يوم فما عاد الانسان يشغله أن يكون طوع بنانه الطعام متمثلا فى الفاكهة والتى تنحنى اغصانها ولا عشرات من النسوة اغفل السلف الصالح عن تبيان كيفية الاستمتاع بهن هل بالقبل والأحضـان أم بالمعاشرة أم بالنظرة الزانية .. ولا الجواهر والنفائس التى يمتلكها اهـل الجنة .. رغم أن مثل هذا التملك يحمـل معنى الردة والانانية وحب للذات

والصراعات من خلال غريزة التملك والتى تنبع من احساس الانسان بقيمة الشئ الذى يرغب تملكه نتيجة التنافس عليه بعكس ما اذا كان هذا الشئ مباح .. ومتوفر فلا يصبح لاقتنائه معنى أو مضمون ذلك أن قيمة الشئ ترتبط وجودا وعدما بالتنافس على اقتنائه .. ولن يحدث هذا التنافس طالما ان الشئ قد فقد قيمته نتيجة توفره فى أى وقت حال طلبه .. يعنى هذا ان الوعد بالفضة والذهب لن يحمل أى معنى للاغراء طالما أن هذه المعادن تفقد قيمتها نتيجة تلبية حاجة طالبها وقت طلبها دون عناء ..

حل الصمت .. داعبت الحيرة العقول .. وهو يستطرد قائلا :

ـ ان المتفقهين حاولوا سد هذه الثغرات بالالتجاء الى قاعدة نادوا بها حتى بحت أصواتهم من كثرة الزعيق رغم أنها قاعدة تخالف التفكير العقلى ومى الايمان بكل مافى الاديان من نقائص تحت حجة مظلة حظر النقاش لكل امر يصعب على العقل ادراكه حتى لو خالفت أحكامه البديهيات المنطقية .. وانتهكت حرمة قدسية العقل .. لأن من يجرؤ على مثل هذه الفعلة الشنيعة مآله النار خالدا فيها حيا أو ميتا .. وبالتالى يصبح اليقين فى الخرافات أقوى من اليقين فى المنطق .. وكان أن وقعت تحت هذا البند مئات من جرائم الدعارة الفكرية واستبيح كل ما يرفضه العقل وذبح التقدم بنصل التخلف واريقت دمائه .. واستفحل غول الارهاب الفكرى الدينى محاولا تحطيم البديهيات العقلية تحت ستار هذا الخطر الالهى المفروض على كل نقاش لأحكام الأديان .. ولكن ماحدث لحيننا غريب .. لقد حاول البعض اعمال العقل والفكر والمنطق .. ولكن قوبل من رجال الدين بالاتهام بالكفر والردة .. والسحر الأسود !!

لكن ذلك لم يثنه عن عزمه .. وظل يضرب فى قسوة بسياط العقل على أجساد هذه المسلمات الهشة لاستظهار الحقيقة خلف كل صرخة الم .. وبدءا اختفت اشباح كثيرة من المسلمات فى جب النسيان وبدانا عهدا جديدا اصبح العقل هو الفارس الوحيد الذى يعتلى صهوة الفكر يقفز به فوق مياق الجهل وتمهم الخرافات .

قلت فى سذاجة عفوية :

ـ لقد انكرت الجنة رغم أنفى آت فيها .. فما بالك تالنار ؟

فى تلك اللحظة ضجت القاعة بالضـــحك .. والتصـفيق .. حتى الكمبيوتر علق على شاشته الصغيرة « نكتة ظريفة » ..

المدعى يتصدى للاجابة فى لهجة غرورة :

ـ تقصد احدى المســلمات التهويمية التى انشــغل علماء الفقه منذ مئات الســنين فى تثبيت دعائمها وتقوية اساسها لتصــبح واحدة من اعتى اســاليب الارهاب والتخويف من العــذاب فى الدار الآخرة مع أنها تستمد جذورها من فكر بدائى قــديم يقــوم على التعذيب الجســدى .. انتقلت عدواها الى الأديان بعد أن تحورت فكرتها من التخويف البشرى الى التخويف الالهى .. فقد هيمن هذا الفكر الالهى على الأديان لأن اصحاب الدعوة اليها لم يكن يملكون السلطة او القوة لتطبيق تعاليمهم .. لذلك فلم يكن أمامهم سوى الالتجاء الى الترهيب أو الترغيب الغير منظور .. فتحدثوا عن الحيــاة الأخــرى التى يحياها الانسان .. اعتمدوا على الفكر الخفى ليدعموا دعوة حقيقية لا تسندها سلطة او قوة على ارض الواقع .. فلجأوا الى التخويف بالنار بعد البعث أو الترغيب فى الجنة بعد الموت .. وكان ان سيطرت فكرة الجنة والنار على العقلية السائدة فى العصــور القديمة واستحوذت على كل نبض فيه الى أن خاض الفكر الانسانى عندنا معركة رهيبة فى مضمار ملعب الحقيقة واستطاع فى النهاية ان يطرح هذه الأفكار ارضــا .. ويدوســها بقدميه زاعقا زعقة الانتصار فوق الجســد المحتضر أما عن فكرة النار فهى ليست سوى هرطقة عقلية .

قلت بأسى وألم وضيق افق :

ـ كيــف ؟!

ـ العذاب بالنار يستلزم لتحقيقة وقوعة على شىء محسوس . بعد الموت يقع هــذا العذاب على الجســد بعد بعثه حيا .. اما داخل القبر فقد اصــطدم الفكر الدينى بعقبه كؤود .. كيف يتحقق مثل هــذا العذاب المادى على ذرات .. مخلفات بشرية لا تحس الألم !! لذلك لم يكن أمام هذا الفكر سوى الالتجاء للفكر الخفى .. القول بعذاب الروح .. واساس هذه التفرقة

الغريبة بين مذاهب الجسد فى الآخرة وعذاب الروح فى القبر .. هو عجز الفكر الدينى عن تفسير مدلول هذا العذاب داخل القبر . فربط العذاب وهو معنى محسوس بالروح وهو معنى خفى غامض من شأنه تمويت القضية . .ولتصبح مثل غيرها من الخرافات غير محددة .. وغير مفهومة لكن على العقل أن يقبلها على علاتها دون أن يناقش صحتها مع مافى هذا القول من خطل .. وخطر كثير فالقول بعذاب الروح وما يحمل العذاب من معانى محسوسة يتنافى مع ابسط قواعد العقـــل الواعى .. ذلك أنه لا يمكن بناء حقيقة على وهم فكيف يقـــع العـــذاب وهو « معنى نعرفه جميعا » . على الروح التى نجهـــل كنههـــا أو مدلولها مثل هذا القول يدل على هروب الفكر الدينى من مواجهـــة الحقائق الملموســـة والتى يدركها الانســـان العادى فهو يرى الجســـد بعد أن يوارى التراب والدود ينخر فيه ليتحول بعد ذلك الى رماد وهو يدرك أن الجسد بعد الموت يفقد الاحساس بأية مؤثرات خارجية من زمهرير أوحر أو لفح نار مع هذه الحقائق الملموســـة لم يكن أمام الفكر الدينى ســـوى لم أذيال الخيبة والهروب الى كهف الوهم والمنادة بعذاب الروح حتى لا يصـــطدم بالحقائق الملموسة والحجج الدامغة .. ثم اذا كان الفكر الدينى قد نفى علمه بمدلول هذه الروح فكيف أذن يتحدث عن النار التى تسوم هذا المجهول ؟ !!

فى تلك اللحظة تملكنى العناد .. التحدى .. رغم أن مايقال لا يخالف العقـــل ولكنى صرخت بأعلى صـــوتى .. لا دفاعا عن القضـــايا التى يثيرونها .. بل دفاعا عن نفسى .. عن وجودى .. عن كينونيتى .. أن كل ما يقال يهدمنى :

ـــ تنكرون علينا عقيدتنا .. وايماننا واسلوب حياتنا .

لم يابه رئيس المحكمة لتعليقى بل استطرد قائلا :

ـــ واذا انتقلنا الى صورة هذا العذاب البعث العظيم .. الانســـان الذى يشوى ويقلى على جنبيه .. ويكوى على جبهته .. ويتغير جلده لتعود عليه الكرة .. الانســـان الذى يشرب من ماء النار والوقـــود الذى هـــو الناس والحجارة .. والطبقات السبع الذى ينقســـم اليها المعذبون .. كل طبقـــة تتناسب مع الذنب الذى ارتكبه الانسان العاصى .. والزمهرير .. والأحذية

التى تصنع من النار .. كل هذه صور مادية بحتة على الانسان أن يؤمن بها دون أن يناقش صحتها او جدواها بل عليه أن يتقبلها وان يؤمن معها بالبعث والذى ستكون من علاماته ضعف ايمان الانسان وفساد أخلاقياته وكثرة حروبه .. وسيكون الانذار بنفختان فى الأولى يهلك كل الناس ماعدا جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت والذين يموتون بعد حين .. ثم يحيَى الله اسرافيل فيامره أن ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيقوم الموتى ويتهيأون للحساب .. فى تلك اللحظة يتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جمعاء .. ثم توزن الحسنات أمام السيئات « ولا ندرى أى ميزان هذا الذى يمكن أن يزن الأعمال » .. الا اذا كانت الأعمال ستترجم فى النهاية الى أثقال وموازين !! ثم يحاسب الانسان على ماقدمت يداه .. هل يداه فقط أم ماقدمه عقله ويشهد الأنبياء على الكافرين ثم يسير الأشرار والأخيار على الصراط المعلق فوق الجحيم وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف فيسقط فى الجحيم الأشرار ويجتازه الصالحون الى الجنة .. كل هذه الأوصاف المادية لو اخضعناها لميكرسكوب العقل لوجدنا آلاف الفيروسات التى تقضى على الفكر قضاء مبرما ..

أول هذه الفيروسات .. هو غياب الحقيقة العقلية من خلال ماورد من أوصاف لا تتفق والعقل لغياب الحكمة التى تكمن وراء هذه الأوصاف .. ثانيها اذا ما حاولنا ربط كل هذا بقضية الوجود المطلق والوجود الحقيقى لما وجدنا حقيقة تؤيد هذا المجهول أو الموجود المطلق ليتحول الى وجود حقيقى لذلك فيبقى مجهول غير معلوم لا يمكن تصديقه .. ثالثا أن فلسفة العقاب من اختراع الانسان .. فاذا ما تغيرت تلك الفلسفة على أساس أن المجرم مريضا وليس مخطئا تبدلت جهنم لتصبح مصحات للمرضى والخطائين .. كما هو عندنا .

سكت محدثى .. اتجه نحوى .. ابتسم . سألنى :

ـ الآن جاء دورنا لاكتشاف حقيقة تخلفك من خلال أسئلة نوجهها لك :

بلع ريقه .. أخذ نفسا عميقا .. استطرد متسائلا :

ـ الانسـان .. ماذا كان قبل أن يصبح انسانا ؟

ـ للاجابة على سؤالك توجد نظريتان متعارضتان متصـارعتان .. الأولى الانسان ليس سوى مخلوق أرضى جاء نتيجة تطـور مذهل فى عالم مدى عمره ملايين السنين نتيجة تفاعلات كيميائية منذ اللحظة التى انقسمت فيها خلية الاميبا ليشملها التطور الى الانسان أرقى الحيوانات ..

رد المدعى معقبـا : « برافو .. برافو » ورايت بعدها على شاشـة الكمبيوتر عبارة (تفكير علمى مطلق) .

قلت مسـتطردا :

ـ اذا كانت تلك النظرية صحيحة فالانسان ليس سـوى نظرية مادية بحتة .. وجد بالصدفة وسيموت بالصدفة وبموته يصـبح مجرد ذكرى فى اروقة الحياة فلا اله ولا ثواب لا عقاب ولا جنة ولا نار ولا جن ازرق أو احمر ولا ملائكة بيضاء أو خضراء تهفهف بأجنحتها والرسل ليسو سوى مجموعة من المحتالين .. والأديان صيغ بشرية ذكية .. والانسان ابن الطبيعة .. خلق نفسـه . هو الأوحـد والأقـوى والافضـل والجبـار والمتكبر وبالتالى فقد وجد بالصدفة .. وسيفنى جنسه البشرى ايضـا بالصـدفة وعلى البشرية فى هذه الحالة الأخيرة أن تبدأ للمرة الثانية من نقطة الصفر .. اى من نقطة البداية .. وقد يختلف شكل المخلوق القادم عن الانسان المندثر بعد فناء العالم .

علق رئيس المحكمة قائلا :

ـ ومن ادراك قد يكون هذا الانسان الذى يسيطر الآن على مقدرات عالمنا خليفة فصيلة من البشر سبقته الى حضارة واندثرت هى الأخرى بعد ان قضت عليها الكوارث نتيجة فشلها فى تحقيق رسالتهـا على الأرض .. اكمل .. اكمل .

اسـتطردت قائلا :

ـ ما قلته هو الفرض الأول أما الفرض الثانى هو وجـود ارادة عليا ترسم لهـذا الكون تابلوهاته الرائعـة وتخطط وتهندس له مشاريعـة وان الانسان ليس سوى صورة من الصور التى ارتضاها هذا الرسـام الماهر

لتحقيق مبادئه وان صلة الله بالانسان هى تماما كوصلة تيار الكهرباء من محول ضخم يغذى مصابيح صغيرة .. هذه المصابيح ليست سوى البشر .. تنطفا وتموت اذا انفصل التيار عنها .. يرتبط بهذا الفرض الثانى قضية الخلق .. صلصال منبعث للروح فى الصلصال .. فحياة .. فما رأيك أنت .

سحب رئيس المحكمة نفسا عميقا اجابنى فى هدوء غريب :

ـ ما تحدثت عنه ليس سوى حديثا بالشفرة نستطيع حل رموزه من خلال متناقضات عدة أولها أنه تصوير مادى ساذج لخطوات فى الخلق يعجز العقل البشرى عن فهمها صلصال فتمثال .. فنفخ .. فانسان .. كيف يتسق هذا التصور مع حقيقة القانون الكامل أو الوجود المطلق ثم كيف يتفق هذا التخيل مع الحقائق العلمية .. ثم ماهى الحكمة التى تكمن خلف اتباع هذه الوسائل بعينها ثم لماذا لم يخلق الانسان كما خلقت الأرض كما يقال من العدم ؟! واذا كان الانسان قد خلق حقا من قطعة صلصال بعد النفخ فيها .. فماذا كانت الوسيلة فى خلق الحيوان هل صنعت منه اشكالا واحجاما وانواعا مصلصلة ثم نفخ فيها هى الأخرى . فانبتت الأرض سحالى وديناصورات وقرود .. واسود .. وظباء وثعالب أم ان الارادة الالهية تدخلت بصورة من الصور نجهلها فخلقت الحيوان وانبتت النباتات اذا كان هذا كذلك فلماذا تحبس عنا كيفية نشوء الحيوان بينما يولغ فى وصف نشوء الانسان .. ثم اين كانت تلك الجنة التى هبط منها آدم .. ثم كيف هبط . بباراشوت أم بصاروخ ؟! القضية فى الحقيقة هى قضية القانون الكامل ..

قضية القانون الكامل تعنى ان قانون الحياة على الأرض قانون صارم وضع بدقة شديدة لا يحتاج من الارادة الالهية التدخل كلما عن لها ذلك .. والا كان ذلك معناه .. نقص أو عيب شاب أحد فروع الناموس الالهى يستدعى التدخل الالهى بين كل آونة واخرى لسد هذا النقص .. او رتق هذا العيب .. ورواية الخلق التى تحدثت عنها ليست سوى تدخل مباشر من الله لصنع انسان وتعنى فى النهاية أن قانون الله ناقص استدعى

تدخله المباشر لصنع انسان .. مع أن قانون التطور من الامبيا الى الانسان يسد مثل تلك الثغرات وهـــذا النقص .. فالكون ليس فى حاجـــة لتدخـــل مباشر او غير مباشر من الارادة العليا لعلة اصـــلاح ما أفسده الدهر .. لأن القانون الالهى ليس ثوبا يبلى يحتاج بين كل آونة وأخرى الى رتوق تغطى بحنه العارى ورواية الخلق بهـذه الصـــورة تعنى أمر واحد فقط عقل بشرى حاول ان يجد لنشـــوء الخلق اسبابا مقنعة .. فانتزعها من عادات وتقاليد وأساطير .. وخرافات شعوب سبقته بمئات السنين ثم عاد ليؤكدها بدعوة ألبسها ثوب الهى .. حتى يصـــدقها الناس .. ولم يجد بديلا آخر فالبديل تحكيم للعقـــل ثم انصراف عن الداعية لها لذلك فقد لجأ العقـــل البشرى الى المصاق مثل هذه الروايات للعاجزة وغـــيرها بالقدرة الالهية حتى يكســـبها حصانة ضـــد اى مناقشـــة علمية .. منطقية .. وحتى تصـــبح الاجابة دائما .. هكذا أراد الله .. ردا على أى نقد او تحليل او تجريح او استنتاج عقلى يخالف أســـاس العقيدة .. اذن فالقانون الالهى قانون كامل متكامل لا يختلف على صحته اثنان وتعثر الانسان فى رحلته نحو حقيقة هذا القانون وهو يخطىء ثم وهو يصحح ليستكمل مسيرة ملايين السنين .. مثل هـــذا التعثر لا ينتقص من القانون الالهى الكامل أو يقلل من قيمته .. فهى عثرات البشرية للوصول الى المعنى الحقيقى للقانون المتكامل .. فاذا ما وصـــلت البشرية لحقيقـــة معناه .. فلا تغيير ولا تبـــديل فقانون كقانون الجاذبيـــة الأرضية لا يختلف حول صحته أحد .. ودوران الأرض حول نفسها ايضـــا قانون متكامل ومثله قانون التطور .. كثير من هذه القوانين ثبتت اقدامهـــا امام عواصف البحث والاستقصاء .. وباتت فى ســـجل العلم قوانين كاملة لا يعتريها .. ولا يشوبها عيب ..

سكت محدثى يســـتعيد انفاســـه اللاهثة .. عدت انغزه بســـؤالى الحاضر :

ـــ ما حدثتنى به هو القانون الكامل .. فكيف بالوجود المطلق هنا .

ـــ حتى يتحول الوجود المطلق للغير معلوم الى وجود نسبى ملموس يجب ان يستند الى حقيقة علمية او استنتاج عقلى .. وقضـــية الخلق كما

صورتها الأديان لا تستقيم مع الحقائق العلمية ولا مع الحقائق العقلية .. لذلك فتبقى هذه الروايات وغيرها فى جعبـــة الخرافات حتى تؤكدها حقيقة علمية أو تاريخية او انسانية أو يسندها استنتاج عقلى .

ـــ ورسالات الأنبياء والرسل .. أو ليست من عند الله ؟!

سكت محدثى قليلا ثم استطرد قائلا :

ـــ حتى نعرف اذا كانت تلك للرســـالات من عنـــد الله أو منْ تأليف البشر .. علينا أن نبحث أولا هل ما تثيره الأديان من قضايا تعتبر حقائق كاملة لا يختلف عليهـــا أحد بحيث يمكن أن نطلق عليها القـــوانين الالهيـــة الكاملة .. ثم هل هذه القضـايا تسندها حقيقة أو استنبـاط عقلى .

ـــ الأجابة بالنفى على السوالين معا . ومع هذا فالبعض ينكر وجود الله .. فهل ينفى هذا الاختلاف وجوده ؟!

ـــ قضـــية وجود الله .. ليســـت قانون سنة الله لدوام بقائه .. واستمرار حيواته على مر العصور .. بل هو قانون لا ينفصل عن ذاته .. بمعنى أنه اذا كان لا يوجد خـــلاف حول وجود قانون يحكم الكـــون بحتة شديدة .. وان خلف هذا القانون ارادة منظمـــة .. امتزجت به حيث يمكن القول ان القانون هو الله .. والله هو القانون .. وأن البديل لغياب هـــذا القانون هـــو الفوضى .. اذا قلنا بذلك وقلنا أيضـــا ان محاولات البعض لتصوير الاله بالصـــورة البشرية لتقريب مفهومه للعقـــل البشرى قد باءت جميعها بالفشل ونتيجة لهذا باتت صـــورة هذا الاله غامضـــة .. تناولتها الشكوك .. واذا كان الاستنباط العقلى هنا تتوفر اركانه من حيث قيامه على حقيقة حتمية وهى وجود القانون الذى يحكم الكون وارتباط الله بهذا القانون وجوداً وعدماً .. بحيث يمكن القول انه تعبير لمضمون واحد سمه ماشـــئت الله .. القانون .. الوجـــود .. فهى كلها أسماء بشرية لا دخـــل للاله فيها لكنها تعبر عن فكرة جوهرية .

قلت مقاطعا :

ـــ نعود الى موضوعنا الرئيسى .

اكمل محدثى بنفس الهدوء الغريب :

ـ نستطيع القول بلا لف او دوران ان القانون الالهى قانون متكامل غير منتقص يصلح دائما لكل زمان ومكان .. لا يحتاج لتدخل مباشر او غير مباشر لتبديله أو تغييره لأنه يحمل فى ثناياه الكمال الدائم .. والحل الأمثل . والرسالات ليست قانون الله لأن ذلك يعنى اذا اعتبرناها قانون الهى امر واحد فقط أن القانون الالهى منتقص غير كامل .. يقوم الله بتعديل نصوصه ونسخ أحكامه كلما تبين له خطأ فى المنهج الذى وضعه لتسيير دفة الكون .

ـ خطير كلامك .. خطير .

المدعى يحاول استدراجى من جديد فى شرك صنعه ببراعة :

ـ نعود الى سؤالنا الذى سبق ان طرحناه وخاب ظننا فى اجابتك حتى اننا اعتقدنا انك احد القردة .

سكت قليلا ثم استطرد قائلا :

ـ قلت أنك الاله ؟

ـ نعم .

ـ وكيف اصبحت كذلك .

ـ الناس نصبونى الها .

ـ تقصد ملكا !!

ـ لا .. بل الها .

ـ وما صفات الاله ؟

ـ الآمر الناهى .. أمره لا يرد .. وكلمته نافذه .. وله حق الموت على البشر فى تلك اللحظة اضاءت شاشة الكمبيوتر « ما يتحدث عنه جاء فى صحائف التاريخ الاله من البشر ثم انتقلت عدوى هذه الفكرة لصحائف الاديان .. الاله الخفى القادر الماحق والذى لا يحد سلطته قانون ولا يقف فى طريقه بشر » .

عاد المدعى يستكمل اسئلته بهدوء شديد :

ـ لكن كيف للبشر بقدرة الاله ؟

اجبتـه :

ـ الله يحل فى اجســـادهم فاذا هم مثله او ابنائه يحملون صـــفاته وقدراته .

ـ حدثنى عن تلك القدرات .

ـ بعضـــهم احيى الموتى وشـــفى المرضى والبعض الآخر قاد ثورة فى الفكر والعلم والسياسة والنظريات الاقتصادية والفلسفية ..

ـ وانت ؟

ـ احرك الريح والمطر واخسف بالشمس واعيـــد الحياة للانســان والطـــير !!

ـ الله قانون .. فهل انت هذا القانون ؟

ـ انا الكل داخل الجزء .. وانا الجزء داخل الكل !

ـ ازاهد انت !!

قلت وقد تملكنى الضيق :

ـ الى اين تتجهون بمحاكمتكم ؟!

ـ الى الحقيقة .

ـ وما شان التهمة بما نتحدث عنه .

ـ انهـــا ليســـت محاكمة لشخصـــك .. بل محاكمة لعصرك .. فالحضارة تحاكم التخلف .

ـ وللنهاية ؟

ـ قبلها تعطيك المحكمة فرصة اخيرة لتثبت فيها صدق دعوتك .

بعد لحظات كان رئيس المحكمـــة يقبض بيده على طائر .. ذبحه ثم اعطانى اياه وهو يتمتم ساخرا :

ـ هيا اكشف لنا عن قدراتك .. ارنا كيف يطير الذبيح .

نشـــلت .. بكيت .. اول مرة التقى بالدموع والعجـــز والاحبـــاط ورئيس المحكمة يرفع الجلسة بعد ان اصدر قراره ..

ـ يسمح للمريض بزيارة المدينة ومعالمها .. ليتعرف على اســـباب حضـــارتنا .

- ٢٦ -

سيارة لا تسير على الأرض بل على وسادة من الهواء سمكها نصف متر تتحرك فى الشوارع .. الأطفال والرجال والنساء على جوانب الشوارع يلوحون لى بأياديهم . الشوارع نظيفة .. عارية من ثوب للقذارة .. مرصوفة بطبقة بلاستيك بيضاء .. البيوت زجاجية .. النوافذ بلاستيك ملونة .. الاشجار والأنبتة تغطى مساحات كبيرة .. الملاعب وحمامات السباحة والحدائق والملاهى منزرعة فى الميادين . أشياء لا يصدقها عقل بشر .. ولا يصل اليها خيال شاعر أو كاتب .. ان ترى الشوارع خالية الا من البشر .. أما كافة وسائل المواصلات .. من سيارات ومترو .. فهى تسير فى الأنفاق .. ان تجد الجو مكيف والهواء الرطب يداعب وجهك .. أن ترى الابتسامة دائما على الوجوه .. لا غضب ولا حزن ولا الم !!

السيارة تتوقف أمام بناية ضخمة .. مرافقتى تفتح باب الزنزانة الزجاجى .. تطلب منى ارتداء بذلة .. كبذل رواد الفضاء .. فجأة انفتح كهف ذاكرتى عن كوة صغيرة ثلاثة رواد أنا واحد منهم يسبحون فى الفضاء داخل سفينة احدهم يصرخ « لقد انقطع اتصالنا بالارض » الكوة تزداد اتساعا والسفينة تحط على ارض ذلك الكوكب .. نعم ذلك الكوكب الغريب الذى استقرت عليه السفينة بعد أن فقدنا نهائيا الاتصال بالارض .. ولكن كيف ولماذا ؟؟

بدأت الكوة تزداد اتساعا .. ازيز الصاروخ .. ابتسامات اصدقائى ايلديهم تلوح لى قبل ان ارحل فوق السفينة .. والكوة تنغلق .. أحاول أن افتح الثغرة من جديد .. بلا جدوى .. لقد توقف كل شىء حتى قطار الذكريات على محطة المجهول .. وأنا اسأل نفسى أسئلة لا أستطيع لها اجابة .. كيف رسوت على ارض الجنة .. هل هو بعث جديد بعد أن انفجرت المركبة وقضى على لأبعث من جديد فى ثوب حياة هذا الانسان الذى اكونه الآن .. حاولت مرارا ان أحرك قاطرة ذكرياتى .. بلا جدوى فقد نفذ كل مالدى من طاقة .. ميسورة تطلب منى بأدب جم أن ارتدى الرداء

النضائي .. وبعد ان ارتديته همست برقة ونعومة :

ـ هيا معـــي .

ســـألتها :

ـ الى اين ؟

ـ ارشيف الحضـــارة .

هبطنا من السيارة الى بناية ضخمة .. دلفنا من بابها .. مجرد ان تمتمت ميسورة بكلمة للسر انفتح الباب على مصراعيه .. ميسورة تسألني :

ـ بأى جناح تبـــدأ ؟

أجبتهـا :

ـ العلـــم .

تحركنا .. ميســـورة تسألني ونحن ندخل لقاعة هائلة .. ارشـــيفا هائلا تنتشر فيه شاشـات الكومبيوتر . ميسورة تهمس لى وهى تضغط على احد الازرار :

ـ هيا اطرح ما تشاء من اسئلة .

قلت بلا اكتراث :

ـ نيل ارمسترونج ؟

ذهلت والأجابة تضيء فوق شاشة الكمبيوتر « عام ١٩٦٩ أحد رجلين مشيا فوق سطح القمر .

سألت من جديد :

ـ نيكولاس ؟

ـ الأجابة تضيء حروفهـــا فوق شاشـــة الكمبيوتر .. نيكولاس كوبرنيكس .. اول من نادى بان الشمس مركز الكون .

ـ اورانوس ؟

ـ كوكب يبعـــد عن الشـــمس ٢٨٧٠ مليون كيلومتر طول قطـره ٤٧١٠٠ كيلومتر .

سألته من جديد :

ـ هل صعد اليه رواد فضاء ؟

أجـــاب :

ـــ اربعة بدات رحلتهم فى يناير ١٩٩٠ .

قلت بلا تفكير وبتلقائية غريبة :

ـــ ليسوا اربعة بل ثلاثة .

الكمبيوتر تضىء كلماته :

ـــ حقا .. ثلاثة .. لكن كيف استطعت تحديد هذا العدد بهذه الدقة ؟

ســـألته من جديد :

ـــ متى وصـــلوا ؟

ـــ لا اجابة .

ـــ ما مصـــيرهم ؟

ـــ لا اجابة .

بدات اوجه له كل ما تخايل على ذاكرتى من اسئلة والاجابات تصلنى دقيقة .. حاسمة .. الى ان سألته :

ـــ اينشـــتين ؟

دهشت وأنا أرى أمامى فوق الشاشة فراغ .

ســـألت منَ جديد :

ـــ كيف تجهلون انشتين، وهو مكتشف نظرية النسبية ؟

ســـألت من جديد :

ـــ التفجير الذرى الانشطارى .

ـــ لا اجابة .

سألت ميســـورة اجابتنى :

ـــ كل هذه معلومات تعمدنا اسقاطها من ارشيف العلم .

ـــ لمـــاذا ؟

سألتنى هى الأخرى :

ـــ كيف لك بكل هذه المعرفة ؟

اجبتهـــا بصـــدق :

ـــ لا ادرى !

تمتمت ونحن نتوقف داخل جناح التاريخ :

ـــ انك تخفى سرا .

عاودت الاســـئلة وانا اقف مبهـــورا أمام ما يحتـــويه الجنـــاح من معلومات .. واجهزة .. وامكانيات .. بدأت بسؤالى :

ـــ التاريخ ؟

اجابنى :

ـــ كمادة أم علم ؟

ـــ كمـــادة ؟

ـــ وقائع حدثت ودونتها الاجيال .

ـــ الملائكـــة ؟

ـــ خيـــال بشـــر .

ـــ للشياطين والجن ؟

ـــ خرافات .

ـــ الجنة والنار ؟

ـــ لا دليل عليها .

ـــ البعث لحياة أخرى ؟

ـــ تنبـــؤ .

ـــ الكتب السماوية ؟

ـــ الهـــام .

ـــ الحرب العالمية الثالثة ؟

لم اكن أقصد من طرح هذا السؤال سوى المزاح .. الا اننى فوجئت بشاشة الكمبيوتر وقد نقش عليها :

ـــ ما بين سنة ٢٥٠٠ حتى ٢٥٠٥ !!

للحظات تسمرت فى مكانى .. كنت أشبه بقطعة جماد .. صخر .. قذف بها من قمة جبل الى السطح فتحولت الى شظايا صـــغيرة .. للحظات

احسست فيها بالعجز .. بالضـــعف .. بالهوان وانا اعجــز عن فهم كل ما يدور حولى هل حقيقة ما قرأته على شاشة الكمبيوتر .. هل حدثت هذه الحرب ؟ وكيف انتهت ؟ خرجت من شرفتى وميسورة تســـحبنى من يدى الى الخارج .. الى السيارة .. لحظات توقفت بعدها الســيارة غادرناها الى مكان فسيح .. أمام بناية ضـــخمة .. تحيطها الاشـــجار وتنمو فى ثنايا ساحتها أزهار .. ورياحين .. وياسمين .. فى تناسق غريب .. وفى رسم هندسى بديع .. دلفنا الى الداخل ميسورة تتمتم :

ـــ احدى المصـــحات .

ـــ احدى المصـــحات ؟!

استطردت ميسورة بعدها :

ـــ سنبدأ بزيارة الحالات الصعبة ثم نتبعها بالحالات البسيطة .

سرنا فى سرداب طويل .. انتهينا الى حجرة .. انفتح بابها على شاب بشـــوش يبتســـم لنا وامامه كمبيوتر يحـــرك مفاتيحه يلعب عليه مباراة كرة قدم ..

سألت ميســـورة :

ـــ ما جريمته ؟

ـــ تقصد ما مرضـــه .. لقد تأخر عن عمله دقيقة .

سألت فى دهشـــة :

ـــ من أجل دقيقة واحدة تودعوه مصح ؟!

ـــ الثانية لها حساب عندنا .. لقد ترتب على تأخيره تشابك الدوائر الكهربائية وانصهار احد الصهاريج التى تغذى المدينة بالماء .

ـــ وكيف يعالج ؟

ـــ أولا نتقصى الاسباب التى دفعته للتأخير .. ثم نوصى له بالدواء المناسب .

ـــ وهل وصلتم الى اسباب المرض ؟

ـــ ارهاق عصبى .

ـ والدواء !

ـ جبـــال الباهاما .

ـ عقاب هـــذا ام اثابه ؟!

ابتسمت عادت واكدت على قولها :

ـ كم انا معجبة باسلوبك الفريد فى الحديث .

قالت ذلك ثم استطردت قائلة :

ـ هناك فوق هذه الجبال فندق عشرة نجوم يقضى فيه المريض فترة نقاهتـه .

واجهتنا حجرة اخرى .. اســـتقبلتنا فتاة جميلة .. ما رايت اجمـــل منها قدا .. ولا أهيف منها جسدا .. ميسورة تسألها :

ـ كيف حال مريضتنا اليوم ؟

لم تجب .. ابتعدنا عنها وميسورة تجيب عن تساؤلى :

ـ لأنها صرخت فى وجه حبيبها بعد أن اشتهته ورفضها .

سألت فى دهشـــة :

ـ وهذه ايضا جريمة .. اقصد مرض ؟

ـ نعم فالصراخ واحد من الامراض البدائية .

قالت ذلك .. اخذتنى من يدى .. استطردت قائلة :

ـ هلم معى .

سرت خلفها الى احدى الحجرات .. رايت جثة رجل ضخم تنام على سرير .. غطيته عال .. سألت مرافقتى :

ـ ما جريمة هذا السجين ؟

ـ بصق فى الطريق .

ضحكت .. مال جذعى الى الوراء .. قلت معقبا :

انهم يبصقون على الناس .. ويضربوهم بالبرطوشة .

ابتسمت ميســـــورة :

ـ اعجابى يتزايد بك .. هيا الى الحالات البسيطة .

جناح دخلنا اليه .. رجـــل وامراتان .. جلســـنا قدموا الينا مشروبا ساخنا .. سألت مرافقتى :

ـ ما بالهم ؟

ـ هذه المرأة الجميلة تشكو من ســـوء معاملة زوجها وذلك الرجل زوجهـــا .. وتلك الفتاة طبيب تحاول راب الصدع بينهما ..

اسرعنا الى الخارج .. الى حجرة اخرى .. شـــاب نحيل يجلس وفى يده كمان يلعب عليه لحنا شـــجيا .. بقينا دقائق نستمع وفور ان انتهى صفقنا له .. ابتسم .. تمتم فى حزن :

ـ اشـــكركم .

قلـــت :

ـ لحن جميل ولكنه حزين .

ـ هيـــا .

اخذتنى مرافقتى من يدى وهى تبتعد .. سألتها :

ـ وما جريمتـــه ؟

ـ نافق رئيسه .

خذينى الى الخارج .. قبل ان يغمى على .

وفى المساء كنت فى احضان ميسـورة ارتشف اللذة .. نصـــف ساعة واذا بها تنتفض فى حزن وأسى .. سألتها :

ـ ماذا دهاك ؟

ـ لقد انتهى الوقت المحدد .

ـ لكننى لم انتهى بعد معك .

ـ سنزودك بفتاة ميكا آلية فافعل معها ما يحلو لك .

ارتدت ملابسها .. تركت الحجرة على عجل .. فى نفس اللحظة التى شرعت فيها الفتاة الآلية .. رفعت طرف فستانها .. قالت :

ـ شبيك لبيك أنا فتاتك بين ايديك .. كيف تريدنى ؟!

ضحكت .. اول مرة اضـــحك من كل قلبى .. تمنيت فى قرارة نفسى ان ابقى .. وصوتى يرن فى ارجاء الحجرة :

ـــ لا اريدك .. ولكن كل ما اريده فنجان شاى يافتاة الجيشا ياحلوة

اختفت من الحجرة وصوتها يسبقها :

ـــ اشـــكرك .

ـ ٢٧ ـ

فى قاعة المحكمة من جديد .. القاضى والمدعى والكمبيوتر والناس .. تقاطر الناس فى ذلك اليوم تقاطر الذباب على عسســل امتـــلأت القاعة عن آخرها والمدعى يسألنى .. لا ادرى لقد تغير اسلوب استجوابه .. بعد ان انتحى به منحى الاتهام :

ســـألنى :

ـــ من اين اتيت ؟

ـــ من الجنـــة .

ـــ واين هـــى ؟

ـــ فوق هذه المدينة وعلى بعد أميال قليلة .

ـــ فوق هـــذه المدينـــة وعلى مدى آلاف الأميال لا يعيش احـــد فمن اين أتيت ؟

ـــ سبق ان اجبتك .

ـــ تصر على اقوالك .

ـــ لأنها الحقيقة .

ـــ وكيف وصـــلت الى هذه المعرفة العلمية .

اجبتـــه :

ـــ لا ادرى !

ـ هل اتيت من كوكب آخر ؟

ـــ لا .

ـــ اذن فكيف عرفت كوكب اورانوس ؟

ـــ لا ادرى !

وكيف استطعت تحديد عدد رواد ذلك الكوكب ؟

ـــ ايضـــا لا ادرى .

ـــ لقد غذينا الكمبيوتر بمعلومات خاطئـــة من عدد زواد ذلك الكوكب حتى نعرف هويتك وكان تصـــحيحك للعد ســـليما .. فكيف وصـــلت الى هذه المعرفة .

فى تلك اللحظة دهمنى خاطر .. حقا كيف تسنى لى تصويب الخطا .. كيف عرفت انهم ثلاثة رواد .. وليسوا اربعة .. والكوة من جديد تنفتح فى جدار ذاكرتى .. نعم ثلاثة حطوا على كوكب اورانوس .. انا واحد منهم .. لكن كيف والوصول اليه يستغرق عشرات السنين .

المـــدعى يردد ســـؤاله من جديد .. دون أن يعثر على اجابة .. عاد يسألنى من جديد :

ـــ هل كنت احد الرواد الذين حطوا عليه .

همهمات غريبة .. الرؤو ، تتقارب ثم تتباعد .. والكمبيوتر يضىء بعبارة « احتمال قوى » .

ـــ لكن كيف استطعت الحياة هذه الحقبة الطويلة دون ان تموت ؟!

اجبتـــه :

ـــ لا ادرى !!

الكمبيوتر يرد على السؤال :

ـــ قد يكون لأسباب خارجة عن ارادته او لأســـباب علمية .. ولكن لا توجد اجابة حاسمة .

فى تلك اللحظة فجر المدعى اتهامه :

ـــ هل انت جاسوس ؟

ضحكت .. شر البلية ما يضحك اجبته :

ـ انت تخـرف .

حل الصمت والمدعى يضغط على زر .. امامنا شاشـة صـغيرة .. بعدها .. كان صدى صـوتى يتردد فى ارجاء قاعة المحكمة وصـورتى انا وميسـورة عاريان على الشاشـة .. صرخت فى حدة :

ـ اوقفوا هذه الخسـة والدناءة .

صوت رئيس المحكمة يعلن فى حسم :

ـ على المتهم أن يلزم الصمت ..

الصورة على الشاشة الصغيرة .. ميسورة تتقلب فى أحضـانى .. تبتعد والرعب يسيطر عليها وهى تتملى جسدى تهمس :

ـ انت لست فى حاجة الى فتاة بل الى بقرة !!

ـ لا تخشى منى فانا قوى كالثور ناعم كاللحن .

الصمت يطبق على القاعه .. ذابت حتى الهمسـات وانا اطبق عليها بجسدى وصوتها وقد دغدغته الرغبة :

ـ ليس هكـذا .

ـ ذوبى فى احضانى حتى ينقشع عنى ضباب الماضى .

ـ اريدك كما انت بحاضرك وماضيك .

ـ انا رجل بلا ماضى .

ـ ايا كان فانت رجل لحظتى .

الجسـدان يتلامسـان .. يتلاصـقان .. يتداخـلان .. وصـوتها ندى رطب :

ـ انت تؤلمنى هكذا .

ـ الم اللـذة .

وتتوه معى .. واتوه معها .. وهى تغمغم فى غنج :

ـ كم ارغبك رغم أنك تمزق احشـائى .

لحظات وصوتها يصلنى فى حيره :

ـ من أنت ؟

اجبتهـا ضاحكا :

ـ أنا الحاضر اعانق المستقبل .. استروح عطره ونسماته .. ولذعة لفته .. كم اريد أن التهم كل شطيرتك !!

ابتعدت عنى متألمة وهى تتمتم :

ـ لقد اصبتنى بنزف .

تعالت الضحكات والتعليقات .. والكمبيوتر يعلق على شاشته الزجاجية :

ـ اتهام الجاسوسية يحتاج الى اسانيد وادلة جديدة ؟!

صرخت محتجا :

ـ عمل حقير .. حقير .. فليست هذه هى الحضارة .. بل التخلف .. الردة .

رئيس المحكمة يسألنى :

ـ ما اوجه دفاعك ؟

سألته ؟

ـ فى مواجهة أى تهمة ؟

ـ الجاسوسية !

ـ اتهام بلا اسانيد .

ـ ودخول المملكة عنوة ؟!

ـ انا لم ادخل فقد نقلنى جنودى اليكم بعد ان أصبت بالأغماء .

ـ تقصد عمال الحفريات .

ـ لم يكونوا سوى اداة فى يد جنودى .

تعالت الضحكات من جديد والمطرقة فى يد القاضى تدق بعنف وهو يعلن :

ـ الحكم بعد المداولة .

سبع ساعات وهيئة المحكمة داخل الحجرة المغلقة .. بعدها خرج القاضى ليصدر القرار :

ـ يتأجل اصدار الحكم مدة ثلاث أيام .. يزور المتهم خلالها ارشيفا التحضر والحضارة .. يتعرف على أسبابه .. فقد يساعده هذا على التعرف على الفصيلة التى ينتمى اليها .

* * *

عشـــت فى ذهـــول .. وميســـورة تطوف بى ارجاء الارشـــيف .. وســـؤالى لها :

ـــ أو ليس هذا ما مررنا به .

اجابتنى مبتســـمة :

ـــ هذا ارشيف التحضر .

ـــ وما الفرق بين ارشيف التحضر والحضارة ؟

ـــ ارشيف الحضـــارة تاريخ .. أما التحضر .. فعلم .. اســـباب واسانيد وادلة .

امامى كل ما يشـغل الانســـان .. تطـوره من الامبيا الى القـــردة الى الانســـان بالصـــورة .. بالكلمة .. بالحفريات .. اســـانيد وادلة ومقارنات واســـتنتاجات ارشـــيف هائل .. به من ثمار المعرفة الكثير .. وميسورة تشرح لى الغامض من الأســـباب .. أمامى التحضر انهل من مائة العـذب .. ادب وفن وعلم واختراعات وفلســـفة ومنطق .. الاســـئلة تتزاحم .. تتراص وميسورة تجيب على كل خاطره .. شاردة فى ذهنى .. سألتها فى نهاية جولتنا :

ـــ هذه حضـارة ثلاثة آلاف عام .

ـــ نعـــم .

ـــ وكيف وصلتم الى هذه الحضـارة .. اقصد نقطة البداية .

ـــ ســـؤال يدل على ذكاء .. أعنى ذكاء القردة .. ويدل على خواء أقصد خواء العقل البشرى .

ـــ الحضـــارة تعتمد على ثـلاث الانســـان والأرض والعمـل .. اما التحضر فيعتمد على فكره .. على دعوة .

ـــ وأنتم كيف وصـــلتم .

ـــ بدعـــوة التنوير .

ـــ من صـــاحبها .

ـــ نجهل صاحبها .. فقد اختلفت الروايات بشأنه .. فمن قائل انه أتى من الســـماء ثم اختفى .. ومن قائل انه دفن فى مكان مجهول ومع ذلك

لقد بقى فكره على مدار السنين محفوظا لا يتغير ولا يتبدل .. تلقفه تلاميذه لينتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم .

مرت فترة صمت قصيرة قبل ان تستطرد قائلة :

ـ هل تريد ان تسمع المزيد .

ضغطت على زر .. اضاءت الحجرة كلها بالأنوار ثم عادت وانطفأت .. وهى تهمس لى :

ـ انظر الى الشاشة .. وسترى مفكرنا بالصوت والصورة .

سألتها مندهشا :

ـ لقد قلت منذ لحظات انكم تجهلونه .

قالت فى سخرية :

ـ انه تسجيل للأحداث يا اله القردة اسمع ماذا يقول .

فور أن القت ميسورة بتلك الكلمات بدأت الصور تتتابع فى هوادة ورفق .. وانا إسمع واتامل .. وارى .

* * *

- ٢٨ -

افقت من غيبوبتى لأجد نفسى فى العراء .. الشـــمس تصـــهرنى .. الرمال تحرقنى .. فى مكان لم اطاه من قبل . ســـاورتنى الشكوك .. اين انا .. وماذا حدث بدأت أســـتعيد الأحداث الفائتة .. آخر ما اتذكره اننى مثلت أمام المحكمة .. واصـــدر القاضى حكما بابعادى عن المدينة مبعوثا الى قومى انتـــقل اليهم ما بشـــوه اياى من علم ومعـــرفة .. لكن كيف اتيت هنا .. بدأت أستعيد الأحداث منذ اللحظـــة التى دخلت فيها الكهف .. اين ذلك الكهف .. بدأت ادور حـــول الجبل .. لاشىء .. لا أحد .. تحســست لحيتى .. ملساء ناعمة .. الشكوك من جديد تزاحم عقلى .. والشريط يمر بطيئا .. هل كنت احلم .. اهذى .. كيف !!

الشكوك تهز شجرة يقينى من جذورها . وأنا احاول ربط الأحداث هل ما مر بى كان مجرد حلم .. وميسورة .. والمدينة الفاضلة بشوارعها وانفاقها وأناســها .. لا .. لا .. لم يكن حلم .

بدأت اســتجمع ارادتى .. استنهض نفسى من خلال عشرات الأسئلة التى تناوبت على وانا أرى على ذراعى آثار حقن .. ومع امتعتى كتاب .. تصفحته .. انه كتاب «التنوير» الذى اهدتنى اياه ميسورة .. حملت امتعتى لاعود الى ديارى وعشيرتى .. لأجد فى انتظارى نمرود وعصابته يتبضـــون على يضعون فى يدى الأصفاد .. وفى رقبتى مقود يســـحبونى الى ســـجن العاصى .. انتظارا للمحاكمة .

* * *

لم يكن الطريق الموصـــل الى المحكمة طويلا .. باب واحد انفتح على دهليز طويل الى قاعة المعبـــد الرئيســـية حيث تعقد جلســـات المحاكمة .. القاعـــة معـــدة .. مكتظـــة بالبشر .. فى الخارج وقف الآلاف ينتظـــرون

للحكم .. حتى هذه اللحظـــة لم أكن اعرف اعضاء المحكمة .. وممثـــل الادعاء .. دوى التفير يعلن قدوم هيئة المحكمة .. ابتســـمت .. بسطاوى فى المقدمة وخلفه سليم والدهل وسليط ودحروج .. وفى الطرف الآخر نمرود ممثل الادعاء . يتجـــه نمرود نحوى متباهيا .. طاووس عجـــوز أجرب .. ينذرنى بقولته :

ـــ ســـاعصرك .

لم يكن أملى سوى أن ابصق عليه .. وانا اتمتم :

ـــ سنرى من سنيفعل ذلك بالآخر .

بسطاوى ينظر الى شذرا يتمتم فى وقار :

ـــ فكوا اغلاله .

ثم يستطرد بصوت جمهورى :

ـــ باسم الله .. مولانا .. ورب نعمتنا .. وباســـم الحق والعدل تبدا المحاكمة .. المتهم حاضر .

أخيتـــة :

ـــ نعـــم .

يقال من جـــديد :

ـــ الادعاء يتلو التهمـــة .

نمرود فى غرور :

ـــ انتحال صفة الاله والتجديف .

سألنى رئيس المحكمة :

ـــ مذنب أم برىء ؟

أجبت :

ـــ مذنب .

اسقط فى يد الجميع .. حجر ثقيل سقط على رءوسهم المقدهم التوازن الصـــمت المطبق معبق بالقلق والحذر .. بســـطاوى يســـألنى من جديد :

ـــ دون أن تبدى دفاعا .

ـ لماذا والحكم قد صدر باجماع الآراء قبل ان تبدأ المحاكمة .

نمـــرود ينزحلق من على المقعـــد واقفا على قدميـــه يروح ويجىء ثم يشير الى وهو يحادث هيئة المحكمة :

ـ سيدى الرئيس .. انها مناورة خبيثـــة من المتهم .. حتى يؤلب علينا الناس . . وايضا لأنه لا يملك دليلا واحدا يدحض به الاتهام .. لذلك لمانا مصر على استجوابه حتى يثبت أمام الجميع صدق الاتهام الموجهة اليه .

بسطاوى بســـأل :

ـ ما رأى المتهم ؟

ـ أريد نقاشا الغلبة فيه للعقل لا استجوابا .

عـــوى نمرود :

ـ يا سيادة الرئيس انه شرك جديد يريد المتهم أن يوقعنا فيه .

قلـــت :

ـ لماذا تخاف أيها القرد وقد اعددتم مسودة حكم الاعدام .

قال بسطاوى مهددا :

ـ نحذر المتهم من اهانة الادعاء مرة ثانية .

اعقب ذلك فترة صمت .. اقتربت فيها رؤوس هيئـــة المحكمة ليطن بسطاوى بعدها :

ـ المحكمة ترى اجابة المتهم لطلبه بشرط ان لا يخرج بمناقشـــته عن موضوع التهم الموجهة اليه .

سأل نمرود فى صدقة :

ـ حدثنا عن الاله الذى هو أنت .

قلت معقبا والابتسامة لا تفارق شفتى :

ـ انتم الذين صنعتم منى الها .

فى تلك اللحظة هاج نمرود .. صرخ :

ـ سيدى الرئيس يجب منع المتهم من الابتسام وهو يدلى بأقواله .

قال بسطاوى فى ضيق :

ـ على المتهم الامتنـــاع عن اتيان اى افعال تؤثر على ضـــهير هيئة المحكمة او الادعاء سواء كان هذا بالابتسام او الايماء .

سكت بسطاوى يلتقط انفاسه ثم استطرد قائلا :

ـ الآن تكلم .. ولكن أوجز فخير الكلام ماقل ودل .

قلـــت :

ـ تريدون حديثا عن الله .

رد بسطاوى :

ـ نعـــم .

ـ فلنبدأ اذن بماهيته .

ـ نحن منصـــتون .

ـ هذا الاله الذى تتحدثون عنه تفكره الاغلبيـــة بينما الاقلية مازالت تدرس وتتامل لذلك فانا اريد منكم الصمت والاصغاء .

قاطعنى نمرود بصوته المتزز :

ـ لتفاهاتك .. الاصغاء لتجديفك .

اسكته بسطاوى باشارة من يده وبكلماته :

ـ لك هذا الحق ايها المتهم .

ـ فلنبدأ بلفظ الله .. الذى اختلفت فيه لغات العالم مما جعل البعض يردد انه لو كان الله موجودا لأطلق على نفسه لقبا واحدا تشـــترك فى نطقه كل لغات العالم بلهجاتها المختلفـــة ولكن لفظ الله يختلف من لغة الى اخـــرى ويدللون بهذا على ان الله كجوهر ايضا صيغة بشرية من اختراع الانسان .. اللفظ والجوهر معا ..

قال نمرود فى زهو المنتصر :

ـ البـــداية حرجة .

ـ وحتى تكون لغتى مفهومه لديك ولبـــاقى البشر الاغبياء امثالك فليس امامى الا ان اكون مترجما للقانون الالهى الى اللغـــة البشرية العادية لماذا ؟ لأن الانســـان لا يســـتطيع ان يفهم قانون الله الا من خـــلال انسان

آخر .. لذلك كان الوسيط فى صورة انســـان .. مخترع .. فنان .. اديب موسيقار .. مصـــلح .. مبدع وليس مخلوقا من نوع غير بشرى .. ذلك حتى يتمكن البشر من فهم قوانين الاله الأعظم .

قال نمـــرود :

ـــ لقد افترضت منا وجود اله .. وقانون يضعه هذا الاله .. وبهذا نكون قد اعطينا الحكم قبل الحيثيات .

ـــ كل ما ارجوه ان لا تتعجـــل وتصـــمت حتى لا تضيع منى الكلمات بثرثرتك الفارغة .

قال بسطاوى بحسم موجها حديثه الى :

ـــ لك هذا الحق .

استطردت مستكملا :

ـــ قبل ان نخوض فى تعريف محدد لله .. ماهيته وجوهره .. نقول ان الأكوان منظورة او غير منظورة تحكمها انماط معينة من القوانين التى تنظم سيرها ومسيرتها وحركتها ..من هذه القوانين الثابتة على مر الدهور والأزمان ان لكل شيء سببا .. ولو شـــبهنا الله بخلية ابدية لا تفنى وان مخلوقاته ليست ســـوى انقسام لهـــذه الخلية الأبدية ولكن بعد اضـــافة مواد اخرى كيمائية (مواد بشرية) اكتسبت بها خواص جديدة ظاهرية بالاضـــافة الى خواص الخلية الأبدية .. اذا قلنا بذلك فنحن لم نبتعد عن جادة الصـــواب ولكننا فى نفس الوقت لم نقترب كثيرا من الحقيقة ..

ثم اذا اعتبرنا الانســـان قبل ان يتوحد بثوبه البشرى جزءا من نظرية الله الهندسية ثم البسنا هذا الجزيء الثـــوب البشرى بما فيه من غرائز .. فتتغير بالتالى خصائص تلك الخلية الأبدية لتصبح خلية بشرية تحمل صفات جديدة .. هذه الصفات الجديدة لا تمحى الخاصـــية الجوهرية الالهيـــة بل تمتـــزج بها .. اذا قلنا ذلك فقد قطعنا شـــوطا كبيرا نحو المعرفة الكليـــة لحقيقة الاله .

ســـألنى بسطاوى بتؤده :

ـــ حتى الآن لم تقل لنا ما هو الله ؟

ـ الله هو تلك الخلية الأبدية وكذلك مخلوقاته من انسـان وحيوان ونبات وجماد لا فرق فى ذلك بين الشمس والبقرة والقمر والشـجرة والنجم الثاقب والطفل الخائب .. كلها مخلوقات الله انقسـمت من الخلية الابدية بعد ان ارتدت ثوبها المادى .. كلها حتى الجماد يحكمها العقل الواعى رغم ان ظاهرها الجمود .. وحتى نقترب أكثر من مضمون تعريف الله نسأل اولا ماهو الانسان ؟! هو ذلك المخلـوق المتطـور العاقل الذى دنس الأرض منذ ملايين السنين والذى هو جزء من هذا العقل الواعى حتى ولو اكتسب ظاهريا صفات لا يحملها الله وهى صفاته المادية التى ترتبط به وجـودا وعدما ويختلف بها عن الله .. فالله لا يجوع .. ولا يعطش .. ولا يأكل .. ولا يرتوى ولا يرغب امراة .. ولا يبول .

سأل نمرود وكأنه امسك بالذئب من ذيله :

ـ اذا كان الله فى تلك المخلوقات فكيف يسن القانون الذى يعاقب به نفسه فى مخلوقاته ؟!

قلت فى برود :

ـ مثل هذا التساؤل سـطحى ويمكن الرد عليه بالرجوع الى القاعدة الفكرية البشرية واحد اعمدتها ان القاعدة الصـحيحة تسـتمد وجودها من قاعدة اعم واشمل صحيحة ايضـا .. فرع من فروع قانون الاله .. فالأب ينجب الأولاد من صلبه ومع ذلك لا يتوانى عن عقابهم وبتطبيق تلك القاعدة البشرية على الله .. نجد ان عذاب الله لأبنائه من البشر ليس بمستعبد .. ولكن حتى مثل هذا الرد سطحى .. ذلك ان الحقيقة تكمن فى أعماق البحر فى سن العقاب كمبدأ .. هل هو من صـنع الله أم صـيغة بشرية تداولها البشر بعد أن قاموا على تاليفها .. وبالتالى فلا عقـاب فى الآخـرة .. ولا جهنم .. ولا نار .

قال نمرود فى غرور .

ـ اراك تقفز على حصان اشـهب فوق تلال السـحاب لتنزلق الى الادانة .

ـ يا صديقى اللدود .. اذا اردت رؤية الله مجسـما فتامل الشمس

والنجوم والحيوان والانســـان والنبات .. اما القول بان الله يجلس على عرش .. وان له مكانا محـددا يجلس فيـــه يمكن التحـــدث معه بلســـان طلق .. فهذه اوهام صنعت بمهارة وصدقتها عقول تعيش فى دروب الجهلة المفرطة .. ولكن اذا اردت معرفة الله فليس امامك ســـوى أن تعـــرف كل القوانين التى تحكم الكون ولن يتســـنى لك ذلك الا اذا تحولت لكينونتك السابقة على ارتدائك للثوب البشرى .. وحتى فى هذه الحالة لن تستطيع نقل هذه المعرفة للبشر لأنك لن تكون سوى قانون ؛

ـــ تقصـــد نص قانون .

ـــ اذا قلت لك قانون عاقل فستضرب رأسك فى أول جدار يقابلك .

ـــ قانون وعاقل كيف ؟؟

ـــ فى منتهى البساطة .. القانون يفهمه الانسان ويقوم على تفسيره وشرحه ... والنظرية الهندسية أيضا يستظهرها ويستنتج منها المنطوق . هنا عقل الانســان منفصل تماما من النظرية الهندســـية او نص القانون .. ولكن فى حالة القانون العاقل بالقانون يمتزج تماما بالعقل .. وحدة واحدة والنظرية الهندسية هى الانسان قبل ان يدخل اطار بشريته المادية .. هنا لا توجد تفرقة بين القانون ذاته وبين العقل فيعتبر قانون عاقل .

ـــ لقد مسخت كل ما تلقنته البشرية اياه عن الروح التى تهفهف على الميت بعد وفاته .

ـــ الروح ماهى الا كلمة تحمل معنيان العجز والتاريخ .

ـــ تقصد التاريخ من خلال العجز عن تفسير كينونة الانسان .

ـــ نجحت فى استنتاجك لذلك لن ابخل عليك بمعلومة اخرى .

ـــ ان كلامك كله يدور حول ماهية الله .. ولكن اما كان من الاجدى ان نبحث عن وجود الله قبل ان نبحث عن ماهيتـــه .. فهل حقا يوجد اله ينظم هذا الكون ... ام ان هـــذا الكون ينظم نفســـه ذاتيا دون ما حاجة لقوة منظمة .. متحكمة .

ـــ ان السؤال المطروح خطير .. والاجابة عليه حرجة ذلك لأنه ليس فى جعبتنا أمام هذا التاريخ الطويل ادلة مادية ملموسة على وجود الاله ..

كل خصيلة الانسانية مناقشة تاريخية مثيرة بين المادين والعنين لم تنته الى نتائج حاسمة تكل له حجه القوية .. ونحن تنحى تلك المناقشات جانبا .. لنبدأ حوارا مع انفسنا حول قضية وجود الله .. والتزامنا فى هذا الحوار الصعب يعتمد على الأخذ بأسباب العقل والمنطق .. بمعنى رفض ما يرفضه العقل .. وقبول ما يستسيغه العقل والمنطق الخلاب .

قاطعنى بسطاوى فى ضيق :

ـ نعود الى سؤالنا هل الله موجود أم غير موجود .

ـ قبل الاجابة على هذا السؤال أود ان اطرح عليك انا الآخر سؤالا آخر .. ماهو مآل الأسرة خلية المجتمع الأولى اذا لم ينتظمها قانون يلتزم افرادها به .

ـ وما صلة هذا بذاك .

ـ من فضلك اجبنى .. ماذا يحدث لو استباح كل فرد فى الأسرة لنفسه أن يفعل مايريد دون ان يحد رغبته قانون .. فيطىء الشاب اخته .. ويمتنع الأب عن الانفاق على افراد الخلية .. وتهمل الأم صغارها ويعبث الاطفال بكل مايقع فى أيديهم .. يحطموه أو يتذفوا به .

ـ انها الفوضى اذن .

ـ واذا انتقلنا من نوعى هذه الخلية المصغرة الى فوضى اوسع نطاقا .. فوضى المجتمع كله .. عندما يرفض الانسان العمل فى مصنعة او حقله او مكتبه .. عندما تضاء اشارة المرور لا تجاهين متضادين فى وقت واحد عندما يزج بالبرىء فى السجن .. عندما يحكم القاضى حسب اهوائه ومزاجه الشخصى .. عندما يقتل القوى الضعيف دون حساب .. عندما تنفث الوساطة والمحسوبية سمومها السرطانية داخل خلايا المجتمع .. عندما تترك السيارات فى عرض الطريق .. ويتوقف المرور .. عندما ترمى القمامة على ارصفة الشوارع .

صرخ نمرود بدهشة :

ـ هل تسمعون حديث الملحد .. والغازه عن المرور والسيارات والقمامة .

ـ ان ما قلته ليس سوى مدخل لقضيتنا الوبيصة بعد ان انتهينا

الى انه فى غيبة القانون تحل الفوضى . فلابد لأى مجتمع كبر ام صـــغر ان ينظمـــه قوانين ويحكم تصرفات البشر الالتزام بهذه القـــوانين .. ومن هذا المنطلق نســـتطيع القول انه اذا كان القانـــون والالتزام به ضرورة حتمية للاسرة كخلية من خلايا المجتمع ... وبالتالى ضرورة حتمية لجسد المجتمع الذى ينتظم هذه الخلايا .. فما بال هـــذا الكون الهائل الذى يمثل الانسان داخله احد عناصره .. لقد ثبت علميا أن هذا الكون تنتظمه قوانين عـــدة تسير حركته يقوم العلماء باكتشافها على التوالى ... وما اســـتطاع العلم اكتشافه رغم ضـخامته .. وتنوعه ليس سوى نقطة فى محيط .

ـــ انى لم أفهم حتى الآن الصلة بين وجـــود الله وتلك القوانين التى تحكم الكـــون .

ـــ رويـــدا .. رويـــدا .

صـــاح نمرود :

ـــ سفسطه سيدى الرئيس .. سفسطه .

ـــ عـــودة معى الى الأسرة .. الخليـــة الأولى .. اذا تمعنا نجد انه يوجد داخل الاسرة ثلاث عناصر اساسية تمثل مثلث الحيـــاة .. قاعدة هذا المثلث الانسان وضلعاه القانون الأسرىومنفذ القانون . فوجود القانونيستلزم وجود منفذ القانون وكذا من يطبق عليه هذا القانون.. واذا عبرنا خطوة اخرى تجاه تطبيقات تلك النظرية الى الكون نجد ان المثلث ينقصه ضلع وهو منفذ القانون على اعتبار ان الكون احد أضـــلاع هذا المثلث والقانون هو الضـــلع الثانى فالقانـــون لا يختلف عليـــه احد وهو الذى ينظم حـــركة الكائنـــات الذاتية وكذلك ينظم كيفية وجـــود ونشـــوء وبقاء تلك المخلوقات .. وكذا علاقتها بغيرها من الكائنات .. فالانسان والقمر والشـــمس والنجوم لها خصائصـــها الذاتية وقوانينها التى تحكم حركتها ووجودها .. وايضـــا تحكمها قوانين تحدد الصلة بينها وبين غـــيرها من الكائنات .. لأن حتمية وجود مثل هذه القوانين يترتب عليها انتظام الكون فلا الشمس تقترب من الأرض فتصهرها ولا الكواكب تتناطح كالثيران فيفنى الكون .. ولا الأرض يتوقف دورانها فتضمر فيها الحياة فلو لم ينتظم الكـــون كل هذه القوانين

لحلت الفوضى ... هذه القوانين ليست وليدة الصـــدفة .. لأن قانون تلده الصدفة يصبح هشا يمكن ان يتغير بعكســـه تماما بين لحظة واخرى .. وتصـــبح الفوضى هى قانون الكون .. لذلك فان هذه القوانين التى تحكم الكون قوانين عاقلة ملتزمة .. وكذا الكائنات التى يطبق عليها هذا القانون حقيقة لا خـــلاف على وجودها .. فبدون الكائنات تنتفى الحكمة من وجود القانون ذاته .

ـــ حتى الآن تلف وتدور كالنحلة دون ان تلـــدغ .. فاين مكان الله فيما اثرته من قضايا .

ـــ اثبات وجـــود الله هنا لن يكون عن طريق التهـــر الفكرى الذى لا يحتاج لاثباته الا لكلمات قليلة « الله موجـــود ومن ينكر وجوده فهو ملحد مآله النار خالدا فيها » بل اثباته سيتم بالطريق العقلى .

ـــ نحن فى شوق لمعرفة نتيجة هذا التجديف .

ـــ اذا كنا قد انتهينا كنتيجة حتمية بوجـــود قانون ينظم حركة الكون وعمله .. واذا كنا قد قلنا بحتمية وجود اجهزة لتنفيذ القانون .. كالعائل فى الأسرة .. والحاكم فى الدولة واذا قلنا بنظرية تطابق المثلثات نجـــد ان اضلاع المثلث الوضعى تتمثل فى القاعـــدة وهى المجتمع الذى يطبق عليـــه القانون وســـلفا المثلث وهما القانون والجهاز الممثل فى الحاكم .. وهذا هو المثلث الوضعى اما المثلث الالهى نجد انه مثلث ناقص ضلع ويتمثل هذا الضلع فى حاكم الكائنات .. اى الله الذى ينكـــره البعض . ذلك ان ضـــلعا المثلث الآخران وهما القانون والكائنات لا يجحدهما احد .... اذن فالخلاف حول الضلع الثالث هو الحاكم اى الاله .. وسبب هذا الخلاف ... او الجحود او الانكار هو الفصل بين القانون وبين الله .. وذلك انه فى المثلث الوضـــعى القانون ليس الحاكم بل منفصـــل عنه تماما .. أما الله فى مثلث الكائنـــات فهو غير منفصل عن القانون .. فالقانون هو الله .. والله هو القانون . وهذا هو وجه الخـــلاف بين النظرية الهندســـية الوضـــعية والنظرية الهندســـية الالهية ... فى النظرية الوضـــعية ينفصـــل الحاكم عن القانون .. ويتغير الحاكم رغم استمرار القانون .. بعكس النظرية الهندسية الالهية .. القانون

هو الله وبالتالى لا يتغير الله بل هو موجـود وباق لأن هذه أحدى صـفات القانون . بمعنى آخر هما ضلعان فى ضـلع واحد !! وبالتالى فانه اذا كان الحاكم فى المثلث الوضعى يحتاج لجهاز مستقل لتنفيذ القانون .. كالجهاز التنفيذى والتشريعى فان الحاكم (الله) فى المثلث الالهى لا يحتاج لهذا الجهاز المستقل لأنه مندمج فيه .. وبالتالى لا يمكن فصل الله عن قانون الكون بكل دقائقه والذى يحوى بداخله أجهزة تسييره فالانسان والحيوان والنبات وكافة الكائنات ينظمها قانون له بداخلها اعـوان (أجهـزة) تقـوم بتنفيذ هذا القانون .. هذا القانون ليس سـوى فرع من فروع القانون الاشمل والاعم وهو الله ..

بحيث ننتهى الى ان المخلوقات والكائنات سـواء التى ندركها أو التى لا نعرف عنها شـيئا محكومة فى نشوئها وفى حركتها .. وفى فنائها بقوانين مدة هى فى النهاية احـدى فروع القانون الأكبر وهو الله .. واذا كنا نريد معرفة كنه الله فعلينا أن نحيط بكل أفرع هذا القانـون الأكبر وان تتسـع مداركنا للمعرفة الكلية بهذه القوانين صـغيرها وكبيرها لأن هذه المعرفة هى الطريق الوحيـد لمعرفة ماهية الله .. هذه المعرفة معرفة علمية تقـوم على حقائق واسـتنتاجات .. وليسـت مجرد انشاد فى كتب دينية .. هذه المعرفة تتطلب الالمام بكل اسرار القوانين التى تحكم الكون ..

سألنى بسطاوى :

— وهل هذا ممكن .

أجبتـه :

— ولم لا .

— متـى ؟

— هذا هو جوهر المشكلة .. أن الفكر الانسـانى مازال متخلفا .. كما وان الوصول الى مثل هذا الهدف يستلزم تكثيف الجهود العلمية واحتضـان العلم للعقل .. وقد يستغرق ذلك آلاف السنين .. والانسـان يمكنه اختصار هذه المسافة الزمنية الطويلة اذا ماركز عقله على اكتشاف القوانين التى تحكم

المخلـوقات وربط بينها وخرج بنتائج محددة .. فكل قانون يرتبط بقانون غيره .. بل واعتقد ان العقل البشرى اذا تعمق للعلم وكشف المعرفة واستوعب العلوم الانسانية يستطيع أن يصل الى ما يعتبر معجزة من الصعب تحقيقها وهى صناعة الانسان .. فالانسان اختراع كالطائرة والتلفزيون .. بل يمكن تطوير هذا الاختراع بصورة افضل .. لننتقل صناعة الانسان من صورتها البدائية الى اخرى صاروخية .

قال نمرود فى غرور وثقة :

ـ سؤال اخير ياسيادة المتهم .. قلت انك وباقى المخلوقات تنتظمون فى قانون هو احد فروع القانون الاشمل الذى هو الله .

ـ صـــدقت .

ـ اذن فانت لست سوى فرع من فروع هذا القانون .

ـ صـــدقت .

صرخ من جديد :

ـ كيا سمعتم انه يدعى الالوهية .. أو كما قال بعضـــهم ليس فى الجبة غير الله .

قال بســـطاوى بتحدى :

ـ حتى الآن لم تجبنى على تساؤلى .. كيف الله ؟؟

ـ للاجابة على هذا الســـؤال سـنتبع هنا قاعـدة اساسـية تحكم المجتمعـــات منذ وجـودها منطقيـة فى نشـــوئها وفى اســتمراريتها على مر الاجيـــال هـذه القاعـدة تســـتلزم ان يكـون للحاكم ادواته فى تسـيير دفـــة البشر فى المجتمـــع وهى ما عبرنا عنهـــا بالأجهـــزة التشريعية والتنفيذية .. وكذلك للكون لابد أن يكون هو الآخر له أدواته .. هذه الأدوات هى الاجهزة الذاتية التى تسير حركة الكون من شموس وأقمار وكائنات والعقل الانسانى ليس سوى واحد من تلك الاجهـزة باكتشافاته واختراعاته وحتى لا نضيع وسط هذا الزحام الهائل المتلاحق من الاســئلة والاجابات نعود الى السؤال ماهو الله خاصـــة وقد جاءت الاديان خلوا من

اجابة مقنعة لهذا التساؤل .. وهذا ما حدا البعض أن يتســـاءل فى خبث « اذا كانت الاديان من قبـــل الله والرســـل قد تحدثـــوا الى الله مباشرة او بواسطة ملائكة فلماذا لم يسر لهم بكينونته .. لماذا لم تصل الينا صـــورة هذا الاله الأعظم .. ولسنا هنا فى مجال الرد على هذه الاتهامات فانها تحتاج لشرحها مجلدات .. ولديكم والحمد لله شيوخ وكهان يفطون فى سبات الكتب القديمة ويرتمون فى احضـــان الخرافات والخزعبلات .. ولكن ليس أيضـــا مستحبا ان يتصـــف الله بالأوصـــاف البشرية .. فنطلق عليه أوصـــاف الجبار .. والمتكبر .. وغيرها وهى أوصاف يمجها الانسان العادى ويرفض اتصافه بها فكيف بالله اذن ؟؟ الصـــعوبة فى تحديد ماهية الله ناتجة اساسا من الفكر الذى يســـيطر على العقل وهى تحجيم الله بنظرة بشرية لذلك فقد شبهتموه بالملك الذى لا ينام ويجلس على العرش وحوله أعوانه المخلصين من الملائكة وغيرهم .. لذلك فعندما يوصف الله بأنه قانون الكون .. وان القانون هو الله يصـــبح لزاما علينا هدم اسس هـــذا الفكر ومنها تحجيم الله وكذا ما ارتبط به من أوصاف وبالتالى هجر ما ادمنته الأديان من وصف الله بالملك القدوس الذى يجلس على العرش ومعـــه اعوانه المخلصـــين فى الســـماء من الملائكة .. وعلى الأرض اعوانه من الأنبيـــاء ينفذون قانونه الذى اوحى به اليهم.. علينا أن نهجر هذا الفكر زللهاننا نجد فيه تعارضا بين المثلث الوضعى « الانســـان والحاكم والقانـــون » وبين المثلث الالهى « الكائنـــات والملك والقانون » .. ففى هذا الفرض ينتفى التعارض بين المثلثين بعد أن أصبح الله مندمجـــا فى (القانـــون) والقانـــون مندمجـــا فى الله وبالتالى لم يعـــد ثمة حاجة للاعـــوان من الملائكة والرســـل لأن قانون الله ينفـــذ تلقائيـــا ذلك لأن بداخلـــه كـــل مقـــومات تطبيقـــه .. أى أدوات التنفيـــذ .. ويقتصر دور الانسانية على اكتشاف اسرارها .. ويترتب على هذه التفرقة انه اذا كان الله هو القانـــون فهو قانون ابدى ازلى غير قابل للتغيير والذى يتغير عندما يكتشف العلماء نظرية ثم يتبين خطئها ليست جزئية فى هذا القانون الأبدى الأزلى بل هو تعبير عن عجز الانســـان أو هى مثرات للعقل البشرى

فى طريقه للوصـــول الى الحقيقة .. فمتى وصـــل العقل البشرى الى هذه الحقيقة فلا تبديل فيها ولا تغيير .. وهو مآ يعبر عنـــه بالقانون الكامل او القانون الالهى. .والله ليس هو أحد فروع هذا القانون . بل ان الله هوالقانون الكامل لهذا الكون الذى نعيش فيه او نراه .. وحتى نصل لحقيقة هذا الاله علينا ان نلم بكل القوانين التى تحكم الكـــون .. وبالتالى فاذا كنا بصـــدد قوانين تتعدل وتتغير فهى ليست قوانين آلهية وعلى هذا فاذا كنا قد ســـلمنا بوجود قوانين تحكم هذا الكون .. وبضرورة حتمية تلك القـــوانين لانتظام الحياة حتى لا تحل الفوضى .. وسلمنا بهذه الأمور تسـليما لا يقبل الجدل او النقاش واذا كنا قد انتهينا الى أن هذه القوانين التى تحكم الكون ليست من صـــنع البشر .. فهى قوانين سابقة على وجـــوده لها قواعـــد واسس ونظريات يقوم الانسـان باكتشافها واستيعاب مضامينها ثم تطويرها ايضـــا من داخل شعاب هذا القانون .. هذا التطوير ليس ايضـــا قانون صـــنعه الانسان .. بل هو احدى وســـائله فى الوصـــول الى حقيقة هذا الكون او القانون الشامل ... الله .. ولكن تجمد الفكر لحـــد معين يعنى فى النهاية قصور العقل البشرى عن اســـتيعاب الأسس العلمية والحقائق المتعلقة التى تؤدى فى النهاية الى المعرفة الكـــاملة بهذا القانون الأعظم .. لذلك فالاعتقاد الذى يسرى فى عروق احد الاديان أن كتابا ما او نظاما او دعوة هو نهاية مطاف البشر وان لا قبله ولا بعده .. ليس سوى دعوة للتجمد .. والجهل. .والعودة الى احضان التخلف والنكوص عن السير فى ركب هؤلاء الذين يبحثون بالعلم عن وجود الله حتى ولو لم يكن ذلك مقصدهم .. وعلى هذا فان توقف العقل البشرى على لوح الأديان واعتبار هذا اللوح امل البشرية المســـتقبلية مع انه فى الحقيقة ليس سوى مرحلة من مراحل محاولات الفكر للجادة التى بذلت على مر العصور لاكتشاف نصـــوص هذا القانون .. والتى كانت فى ذلك الوقت احـــدى الضرورات الحتمية لانقاذ البشر مما هم فيه من معاناة وتخلف .. لم تعد مثل هذه الافكار الوسيلة المثالية والحل الاشمل والأمثل للوصول بها

الى معرفة ذات الله او الالمام بكل قوانينة .. بل اصـــبح العلم هو البعث الجديد للوصـــول الى تحديد ماهية هذا الاله بعد ان يتم الربط بين النظريات العلمية المختلفة والوصول بها الى الوحدة الواحدة التى تمثل وحدة القانون اى وحدة الله ..

ان نهاية مطاف الاديان لو تقفنا العقل فى مغزاها وضـــمونها نجد انها تعريف للانسان بمضمون الخطأ والصواب .. هذا المضمون الذى يمر بمرحلة احتضار بعد ان هجرت القوانين الوضـــعية والعرف الســائد اغلب مافيه من احكام .. وبعد ان طرحت ارضا كثيرا من المسلمات الدينية التى استحوذت على العقل فترة ليست بالقصيرة واستطاعت ان تدفن تحت أرضها فى عصور الظلام بسطوة وقوة الداعين لها نور العقل وضياء المنطق ووضـــة العلم .. لم يعد ملائما العودة الى هذا المضمون او الدعوة الى الارتماء فى احضانه .. مثل هذه الدعوة اذا لم يواكبها فكر مستنير .. وتطور فى المفهوم تصبح مثلها كمثل الرحالة الذى يحاول الوصول الى القطب الشـــمالى باحدى الدواب فى عصر الفضاء والمركبات .

قال نمرود فى زهـــو :

ـ انت اذن تنكر الأرواح .

ـ هل تقصد بها بحر الاعاجيب .. البحر الذى لا تجد فية نقطة ماء واحـــدة .. والذى مازلنا ندرج على تســـميته بالزوح .. ام تقصـــد بها « الارواح » (البمبونه) التىكانت تبعينا اياها (أم الرزق) وانا تلميذ غر امام المدرسة الابتدائيـــة .. ام تلك الارواح الشريرة التى تتقمص البعض فتحيل حياتة جحيما .. حقا انا لا ادرى من أين أتت تلك المقولة الدارجة لكنها تعبير شائع ليس له أســـاس علمى .. ورد فى كتب الاديان وســـبقها الى الميدان بعض مخطوطات قديمة .. ثم تداولتها المفاهيم لتحاول الوصـــول بها الى تعريف جامع مانع .. ولكنها عجزت فبقيت تلك الكلمة الشـائعـــة على مدار القرون سبة للفكر .. حية رقطاء تبث سمومها فى العقـــل تعبر اولا عن عجز الانسـان من تفسير مكنون نفسه هل هو مجرد جسد يتطـــرح فى النهاية على

ارض او فى اعماق بحر ام ان بداخله قوة خفية جبارة دائمة غير منظورة وهو ما يطلق عليـــه الروح .. وتعبر ثانيا عن العجـــز البشرى فى فهم ماهية هذه الروح على فرض وجودها .. ويســـتدل بها ثالثا عن الادمان المســـتميت لتحويل هذا المجهول المطلق الذى لا يعرفه احد .. الى وجود حقيقى دون ان تسنده حقيقة او نظرية علمية او استنتاج عقلى .

سألنى بسطاوى خانقا :

ـــ وما رايـــك ؟

ـــ رايى ان الانسان مازال وسيبقى لفترة بعيدة مخلوق مستغلق على الفهم .. قد تفهم ظواهره .. ولكن تبقى اسبابه سرا يستعصى على عصا موسى تحويله الى حقيقة مرآه ... والدهش ان هذا المجهـــول الذى عجزت الكتب السماوية عن الاتيان له بقبس من نور يضىء ظلمة معانيه .. هـــذه الكتب تتحدث عن صعود هذا المجهول الغير معروف الى بارئه وتعذيبه بشتى انواع العذاب فى القبر .. كيف وهو مجهول غير معلوم .. غير معروف ... كيف يصعد الى السماء ما لا نعرفه .. وكيف يعذب ما لا نفهمه ؟؟

ـــ اذا كنت سترفض الروح .. فماذا بقى من الانسان .. جسد يتطرح فى البيداء ..

ـــ ليس امامنا سوى مفهوم آخر يســـتحوذ على الفكر بعقلانيته .. فالانسان ليس سوى نظرية هندسية محفوظة فى عقل الله .. وبامتزاج هذه النظرية الهندســـية بالنظرية المادية يتكون لدينا مخلوق يسمى بالانســـان تماما كالمخترع الذى صـــنع الانســـان الآلى .. نظـــرية هندســـية ومادة خام .. النظرية الهندسية لا تختلف من انســـان الى آخر .. ولكن الذى قد يختلف هو لدائن الصنع .. وبالقياس نجد ان الانســـان يتكون من نظـــرية هندسية وكذا مادة .. المادة فى الانسان واحدة .. لا تختلف من شـــخص لآخر .. لكن الذى يميز الانسان البشرى عن غـــيره من المخلوقات ليســـت المادة .. ولكن كيفية صنعها المادى وهو ما يطلق عليه بالنظرية الهندسية ..

وما تحمله من صفات وراثية .. وعندما يموت الانسان .. فالذى يموت فيه الخلايا .. اما نظريته الهندسية فتبقى خالدة .. تماما كما يحدث عندما يتحطم انسان آلى ويتحول الى قطع من الصلب . تندثر المادة أو تدخل من جديد فى صناعة أخرى كما يحدث الآن للانسان فى حالة التجديد الجزئى الذى يستعين فيها بعمليات الزرع لكن فى النهاية تبقى النظرية الهندسية خالدة .. باقية .

ـ هل تعنى بذلك ان الله هو تلك النظرية الهندسية .

ـ بل اعنى أن هذه النظرية الهندسية ليست سوى أحدى فروع القانون الآلهى .. وحيث ان هذا القانون يتوحد مع الله .. اذن فالله هو القانون والقانون هو الله .

قال بسطاوى :

ـ كم نريد أن نسمع مزيدا عن هذا القانون والذى عنيت به الله .

ـ ليس القانون الذى اقصده نصا فى كتاب .. بل هو قاعدة تسير عليها حياة الكائنات وحركة الكون .. بدونها تحل الفوضى .. فاذا قلنا ان الجاذبية يحكمها قانون علمى فليس المقصود بهذا القانون النظرية التى وضعها نيوتن .. لأن النظرية لم يخترعها بل اكتشفها . بمعنى ان قانون الجاذبية كان سابقا على استظهار نيوتن لها .. كل ما فعله انه استطاع بقدراته وملاحظته الدقيقة أن يكتشف وجوده .

سأل بسطاوى بذكه :

ـ تقصد أن الاكتشاف مسبوق بالقانون .

ـ بل أكثر من هذا ان القانون لابد وان يكون سابقا على وجود الكون والكائنات .. لأن تلك الأكوان لم تنشأ من فراغ .. بل كان سبب نشوئها قانون سابق على وجودها .

فى تلك اللحظة علا صوت نمرود معقبا بسخرية :

ـ ولماذا لا يكون العكس هو الصحيح يا ملهم .

اجبته بحـــدة :

ـــ كلامك يعنى أن وجـــود الكائنات ســـابق على وجود القانون مثل هذا الفرض لا يتفق مع مسلمات المنطق فالقانون هو الذىيحكم الأشياء وينظم سيرتها .. لا الأشياء هى التى تنظم القانون .. فضلا عن ذلك فان مثل هذا الفرض يتعارض مع نظرية الســـبب المتشيء .. فلكل شيء سببا .. فسبب نشاة الكون وجود قانون ينظم نشـــأته واســـتمراره .. وزوال الشيء الذى انشاه القانون لا يعنى البته زوال القانون الذى يحكمه .. فالقانون يبقى حتى مع انعدام الشيء أو موته .. كل مافى الأمر ان شروط تطبيق القانون على شيء بعينه لم تعد متوافرة لزوال هذا الشيء او انعـــدامه .. وعلى هذا فالقانون لا يتعرض للموت أو الانقراض او الزوال أى انه ابدى دائم .

عقب بسطاوى قائلا :

ـــ تقصد الله بحديثك ؟

اســـتطردت دون أن اعلق على حديث رئيس محكمة الجزايين :

ـــ كذلك نجد ان هذا القانون هو الذى يحكم حركة الأشياء من نقطة البداية وأثناء دورتها حتى النهاية .. يسيطر عليها وهى تتحرك داخل نطاق تطبيقاته وفروعه المختلفـــة .. لكن هل تعنى هـــذه الســـيطرة الغاء ارادة الكائنات .. هل تعنى أنها ليست سوى قطع شـــطرنج يحركها القانون .. لا .. بل تعنى أن الكائنات تســـير داخـــل نطاق هذا القانون لا تتعـــداه ولا تنفصل عنه ولكنها وهى داخل هذا النطاق لها ارادتهـــا وحريتها الكاملة .. أى الاختيار .. فالظواهر الطبيعية من حرارة وبرد وامطار ورعد وحركة الكون من شموس ونجوم واقمار .. وحركة الانسان والحيوان والنبات .. كل هذه الظاهر الطبيعية يشملها القانون بفروعه المختلفة .. وتدور فى فلكه لا تســـتطيع أن تتعدى نطاقه الى الفوضى .. لأن الفوضى لا ترســـم لوحتها الشريرة الا فى غياب القانـــون لكن هـــل يعنى وجود قانون يحكم حـــركة الأشياء ونشـــوئها ونهايتها التزامه بها .. هل يعنى هـــذا التزام القانون بنفســـه ..

صـــاح نمرود زاعقا :

ـ تخريف وتجديف سيادة الرئيس .. يريد ان يقـول ان الله يلتزم مثل التزام البشر .

قلت والابتسامة لا تغادر شفتى :

ـ مهلا يا نمرود .. مهـلا .. والله لو كنت كلبا لبترت ذيلك حتى لا تبصبص به لصاحبك .. ولو كنت قطا لقطعت لسانك حتى لا تموء ..

تاطعنى نمرود فى حده :

ـ هل تسمع ياسيادة الرئيس ؟!

قال بسـطاوى :

ـ المحكمة ترفض البذاءه .. وتطلب من المتهم الالتزام بالموضوعية .

ابتسمت فى اللحظة التى صرخ فيها نمرود من جديد :

ـ أنه يبتسم .. أمنعوه .

قال بسـطاوى :

ـ وبعدهالك يانيابة .. خلى عندك قليلا من النظـر .. أكمل يا متهم

اكملت قائلا :

ـ هل يعنى هذا تطبيق قاعدة الالزام والالتزام على المخلوقات والاله بمساواة مطلقة .. فلا يجوز أن يخرق القانون نفسه كما لا يصح أن تخرج الكائنـات عن نطـاق القانون .. بمعنى أن الالزام يقابله التزام .. فالله عندما يلزم البشر بقانون يلتزم هو الآخر بهذا القانون .. ومن ثم فلا يجوز تعديله او تغييره . لأن تعديله يعنى الاخلال الجسيم بقاعدة الالزام التى الزم بها البشر .. فاذا هو خرق القانون .. فليس عليه أن يطالب البشر بالالتزام بالقانون .. أى الزامهم به .

سـال بسطاوى فى هدوء :

ـ اذا كان حديثك صحيحا فلماذا تخرج الكائنات على القانون الالهى

ـ الكائنات لا تستطيع ان تخرج عن القانون الذى وضع بحكمة ومهارة لأن هذا يعنى الفوضى .. والانهيار والزوال .

ـ واتيان الشر أليس خروجا على القانون .

ـ أن الخـير والشر اثنان من فروع القانون .. للانسـان الاختيار

بينهما .. فالانسان عندما يسرق يرتكب جريمـــة .. وعندما يغتصـــب انثاه يرتكب معصية ..كل هذه تفصيلات .. لكن هل يعنى اتيانها خرق القانون الالهى وانهياره .. لا .. لأن الشر والخير توأمان متصـــارعان لذلك فمثل هذه الجرائم تندرج تحت نص القانون رغم أنها مرفوضة من المجتمعات .. وتعاقب عليها ..ومحظور اتيانها لأنها تسبب ضررا بالغير .. وبالمجتمع .. اذن فالقانون كامل .. والله لا يغير من كماله .. لأنه اذا فعل فسيتم تعديله لقانـــون ناقص لأن القانـــــون الكامـــل لا يتكرر كماله مرتين أو ثـــلاث فى موضـــوع واحد .

قال بســـطاوى :

ـ ـ اذا كنت تقصد بحديثك أن الله يلزم نفسه بنفسه فلماذا لا يلتزم الحكام بالقانون .

ـ صـــديقى رئيس المحكمة اللدود .. أن الاجابة سهلة يســـتطيع نمرود أن يجيب عليها .. فهلا وجهت اليه سؤالك .

تصدى نمرود للاجابة :

ـ اولا .. الاله يســـتطيع أن يفعل ما يشـــاء .. لا يلزمه قانـــون وضعه .. يغير فيه متى شاء وكيف ماشاء وبالتالى والحاكم يمثل الاله على الأرض له أيضا هذا الحق .

قلت فى استياء ظاهر :

ـ هل يصدق أحد هذه الخرافة .. ان الحاكم الذى لا يلتزم بالقانون يا سيد نمرود لا يفعل ذلك الا مع شـــعب من الماعز أو الخراف .. شـــعب لا يعرف حقـــوق الحاكم وواجباته .. فاذا تجاوز وخـــرج على القانون .. فرحوا به وهللوا .. بدلا من أن يمزقوه اربا .

فجأة دوت فى القاعة صرخة .. اتجهت بانظارى الى صاحبها .. لم يكن سوى مناع :

ـ والخوارق يا مولاى أو ليست خرقا للقانون الالهى .

بسطاوى يصرخ هو الآخر :

ـ اقعد .. اقعد .. انها محاكمة .. وليست ندوة .

اجبتـــه فى هـــدوء :

ـــ يا صديقى تصير القامة ان الخوارق التى يكتشفها الانسان أو تلك التى اكتشفها ليست سوى أحد فروع القانون الكامل .. وتتم فى نطاق هذا القانون وما ندعيه نحن من خوارق كالمخترعات العلميـــة .. أو النظـريات الهندسية او الكيمائية ومعجزات البشر ليست سوى واحد من فروع هـذا القانـــون العام الشـــامل .. لذلك فلا تعتبر خوارق .. لأن الخوارق معناه خرق القانون .. والعلو عليه بمعجزة ليست فيه وهذا يتنافى أصلا مع وجود قانون كامل يشمل كل شىء حتى ما ندعيه من خوارق ..

مرت فترة صمت قصيرة .. طلب منى بسطاوى استكمال ما أنقطع .

أجبته وقد حل بى التعب والارهاق :

ـــ فلنؤجل ذلك للغد يا سيد بسطاوى .

قال بســـطاوى :

ـــ اذن فلنؤجل القضية للغد .

* * *

فى اليوم التالى انعقدت المحكمة .. الهيئة تجلس خلف المنصـــة .. الناس يتابعون وقائع الجلســـة بشـــغف واهتمام .. مناع يبتسم لى .. الوحيد الذى يستطيع الابتسام فى جنة الشقاء .. رئيس المحكمة يطلب منى وصل ما انقطع .. قلت فى هدوء مريب وانا اقلب صفحات الكتاب :

ـــ موضوع الحديث اليوم مختلف يا سيد بسطاوى . بعد أن انتهينا من حديثنا عن الله .

ـــ المهم أن لا نخرج بالحديث عن نطاق التهمة . هيا اقرأ تعاويذك !!

الاختيـــــار

ـ قيل أن العقل هو ما يميز الانســان عن الحيوان .. لذلك وصــف الانســان بأنه حيوان عاقل .. هذا التميز ثوب فضفاض يســع كثير من المعانى .. فماذا يعنى العقــل ؟ .. هــل هو الفهم .. أم الادراك .. أم التمييز أم القدرة على التصرف .. أم هى تلك المعانى كلها وغيرها مجتمعة ؟!

قيل أيضا أن الانسان حيوان متكلم .. فهل النطق وحده يكفى للتمييز بين الانسان والحيوان مع تصــور هذا المعنى عن اســتيعاب كل اسـباب الاختلاف الجوهرى بين الانسان والحيوان .. فضلا عن أن اللغة والتحدث بها ليس ســوى نتاج تطــور طبيعى قد نجد مثيلا له فى لغــة التفاهم بين الحيــوانات التى نكتشــف بصيص نور من المعرفة عنها قد يوصــلنا الى اسرارها ..

لذلك كان الاختيار بمعناه حرية اختيار البدائل هو المعنى الكلى الذى يندرج تحته كل أوجه الاختلاف بين الانسان والحيوان هو البوتقة التى تصب فيها كل العلوم الانسانية .. والاختراعات العلمية عصارة فكرها ..

فمن خلال هذا الاختيار وما يعنيه اختيار البدائل أورقت شجرة المعرفة اوراقها ونبات الانسان يستظل بها قرونا طويلة .

وعودة الى التاريخ القديم .. الى الانسـان البدائى والذى كان يختار فى أسلوب حياته اليومية بين بدائل كائنة وموجــودة وبين انسان العصر الذى يختــار بكامل ارادته بين بدائل كائنه أو بدائل من اختــراعه هو .. بين هذا وذاك عصور أخرى هبت فيها عواصف الجهل .. تقتلع من أرض المعرفة شجرة الفكر وتقذف بها فى غياهب الظلام وعصور أخرى طرحت فيها بدائل الفكر علىساحة النقاشواستطاع العقل البشرىأن يغزو معاقل الفكرالأسود يحطمه وينحيه جانبا لينهل بعد ذلك من ينابيع العلم.. العلم هذا الامبراطور العظيم الذى اســتطاع وحده أن يســتحوذ على الساحة بكلل راســه تاج

المرئة .. ويزين صدره نياشين النظريات الحديثة فى الطب والهندسة وعلم الفضاء ولكن منذ متى يبدأ هذا الاختيار ؟! .

الاختيار يبدأ منذ مولد الانســـان وينمو بنموه ويتدرج حسب مراحل حياته من طفولة .. لصبا .. لشباب .. لكهولة .. هذا الاختيار يدخل فى تكوينه عنصران للشخصية وما يؤثر فيها من صفات موروثة ومكتسبة .. والموقف وابعاده النفسية وردود أفعاله .

ونتيجة لهذا يختلف رد الفعل للحدث الواحد من شخص لآخر .. بحيث يمكن القول أن رد الفعل هو ناتج مزج الموقف بالشخصية واذا ما خولنا هذا الكلام الى أمثلة نجد أن رد فعل الزوج الذى يضبط زوجته عارية فى أحضان عشيقها يختلف من شخص لآخر حسب توليفة شخصيته .. فقد يتمثل رد الفعل فى القتل .. وقد يقتصر على الصراخ أو البكاء .. او ابلاغ الشرطة .. رد الفعل فى هذا قد يختلف ايضا للشـــخص الواحد حسب ابعاد الموقف الذى يواجه نفس الشـــخص .. فرد فعل الزوج الذى يجد زوجته عارية تماما فى احضان عشيقها .. غير ذلك الذى يرى فيه نفس الزوج العشيق خارجا من حجرة نومه فقط !!

الاختيـــار .. بمعنـــاه الدقيـــق وهـــو اختيـــار البـــدائل يعنى بالضرورة الحرية فى اختيارها اى أن الحرية احد مســـتلزمات قيـــام مبـــدأ الاختيار لكن هى تعنى تلك الحرية استعمالها بلا قيود أو ضوابط .. بمعنى آخر هل لكل انسان أن يختار ما يشاء وان يفعل ما يريد ؟! .

فهم الاختيار بهذا المعنى الواسع يؤدى الى كارثة فى حالة ما اذا الحق فعل صاحب الاختيار ضررا بالغير .. لأن مثل هذا الاضرار الذى يفرض على الغير قسرا يعنى فى النهاية الحاق الأذى به دون أن يختاره .. وبالتالى فهو هدم للاختيار المكفول له !! فمثلا اذا ســـار شـــخص عاريا فى الشارع فهو يمارس حرية اختيـــاره .. ولكنه فى نفس الوقت يلحق ضررا بالغيـــر الذى يتأذى من هذا الفعل الفاضح ويرفضه وبالتالى يضع قيدا على اختياره يتمثل فى عنصر الاجبار الذى يفرض عليه برؤيته عاريا .

ولكن اذا كان ولابـــد ان يمارس حريتـــه فى التعـــرى فليكن ذلك فى مكان لا يلحق الضرر فيه بالغـــير .. على سرير رغبتـــه مـــع امـــرأته او فى الحمـــام مع الماء الســـاخن او البارد !! ومـــع ذلك فقـــد مر التاريخ بمراحل لم يكن الانسان ليتأذى من منظر العرى وكان الرجال والنساء سواء لا يستترهم حتى ورقة توت وهـــذا ما يدفعنا الى القاء الضـــوء على الموقف وابعاده النفسية .. فصاحب الاختبار عندما كان عاريا فى الحمام أو بجوار امرأته لم يلحق ضررا بأحد .. ومن ثم فينعقـــد له اختيار كامل فى العرى وارتداء امرأة لباس البحر (المايوه) فى احد الشوارع يرفضه المجتمع .. بعكس الحال اذا كان هذا المايوه يحيط جسد امرأة فى أحد حمامات السباحة او على احد الشـــواطىء .. فى الفرض الأول اختارت المرأة ارتداء المايوه فى الشارع فاحدث اختيارها هذا ضررا نتيجة تأذى جمهرة الناس من رؤية هذا المشهد .. وفى الفرض الثانى مارســـت المرأة اختيارها الكامل من خـــلال لائحة اجتماعية قبلها رواد هـــذا الحمام او هذا الشـــاطىء .. هذه اللائحة تتيح لها ارتداء المايوه وتوجب على الآخرين عدم استهجان مثل هـــذا الأمر لأنهم بقبولهم اللائحة الاجتماعية يفترض رضـــائهم بكافة النتائج المترتبة على ممارســـة غيرهم أحـــد الحقوق التى كفلتهـــا تلك اللائحة ومنها ارتداء لباس البحر ..

وما يقال هنا ينطبق على مستعمرات العراة .. فليس من المقبول ان يتأذى أحد اعضـــاء هذا المنتدى الخاص من العرى ويرفع شـــعار التحجب للمرأة التى ترتاد هذا المنتدى . وينعكس الحال اذا حدث مثل هذا العرى فى شارع أو زقاق .. لذلك فلا غرابة ان توصف قبلة الحبيبين فى شارع من شوارع بعض البلدان أو فى أحد المركبات العامة قبلة زانية غير شريفة !! بل وتعـــد من الجرائم الوضـــعية التى يجرمهـــا القانون ويســـجن من اجلها مرتكبيها .. بينما تعد مثل هذه القبلة فى مجتمعات اخرى من الأمور المستباح اتيانها .. رغم ان الموقف واحد فى الحالين ويمثل قبلة عاشقين !! فلماذا اذن اختلف الأمر من تجريم لاباحة ؟! السبب فى ذلك يكمن فى الضرر .. فمجتمع ينظر الى مثل هذا الأمر نظرة تحريم وتجريم اخلاقية تسندها تقاليد وعرف

ســـائد يرتب عليهـــا ضرر اجتماعى بغض النظر عن صـــحة هذه النظـــرة التجريبية .. بينما مجتمع آخـــر يجد فيه أحدروافد الاختيار يمتنع مـع حدوثها الضرر فاذا كنت لا تريد ان تقبل حبيبتك او لا تـستطيع فدع غيرك يفعل !! كما قلنا الاختيار يبدأ منذ مولد الانســان .. أما قبل ذلك فالاختيار كان معقـــودا لذكر وانثى فى مواقعة جنســـية ناتجها هذا الجنين الذى يولد نتيجة هذه العلاقة حتى ولو لم يكن قصد الاثنان الحمل والولادة حتى ولو كان ما يحركهما رغبة أو نزوة طارئة أو حتى اغتصـــاب مادام الحمـــل احد النتائج المحتملة لتلك المعاشرة الجنســـية لكن بعد ان يتم التخصـــيب ينعقد الاختيـــار للأنثى على اعتبار ان الجنين أصـــبح جزءا من جســـدها الى ان تلده .. لكن بعد الأنفصال الجسدى بين المولود ومنـــيمة الأم يبدأ اختيار الطفل نتيجة استقلاله .. هذا الاستقلال الجزئى الذى تستعمره الأم بتلبية احتياجات المولود تبدأ دائرته فى الاتســـاع رويدا .. رويدا وينمو تدريجيا حسب نمو الطفل .. وتزداد اوجه اختياره .. فيترك ثدى أمه الى لعبه .. ثم يهجرها الى أصدقائه حتى اذا ما بلغ مرحلة الشباب .. شدته المراهقة الى شـــباكها فاذا ما تخلص منها بـــدأت مرحلة النضـــج وتحقيق الذات والاستقلال الكامل عن المستعمر الغاشم .. الأم والأب ...

وحتى يكتمل الاختيار لدى الانسان يجب توفر عنصران التمييز والحرية

التمييز أى القـــدرة على الاختيار فالمجنـــون لا اختيار له .. والحرية أى الحرية فى استعمال هذا الاختيار بحيث يمكن القول ان الحرية أســـلوب ممارســـة .. وليســـت هدف فى حد ذاتهـــا .. انما الهـــدف الحقيقى هو الاختيار .. كما وأنها شرط لنشوء الاختيار وسبب لاســـتمراره ففى غيبة الحرية لا يمكن للاختيار رؤية النور ولا البقاء حيا .. فالحـــرية هى الهواء الذى يساعد الاختيار على الحياة .. بدونها يختفى .. لكن ممارســـة الاختيار مشروطة ايضا حتى تحقق هدف الاختيار بعدم الحاق الضرر بالغير .. وقيد عدم الاضرار بالغير هذا شرط جوهرى حتى لا تتحول الحرية الى فوضى .. لكن التوسع فى هذا الشرط بوضع ضوابط كثيرة على للحرية بحجة الضرر .. يعنى فى النهاية الغاء الاختيار والحرية .. لذلك كان لابد من استعمال هـــذا

القيد فى أضيق الحدود .. وحصره داخل دائرة الضرر الفعلى الحادث للغير وما يخرج عن نطاق تلك الدائرة فهو حق للانســـان له ان يباشره بحـــرية كاملـــة ..

والديمقراطية بصورها المختلفة من حرية التعبير الى تكوين الأحزاب.. الى التظاهر ليست سوى صـــورة من صور ممارســـة حرية الاختيار .. فى غيبتها يتوه المعنى الســـياسى للديمقراطية .. ويتوه الطـــريق الى هـــدف الديمقراطية وهو ادارة الانسان لشئونه وعلى هذا فحرية الاختيار لها معنيان انسانى فردى وسياسى .. الفردى يقصد به تحقيق الفرد لمطالبه دون الحاق الضرر بالغير .. والسياسى يعنى مشاركة فردية فى صـــياغة مجتمع يضـــم مجموعة افراد من خلال لائحة دستورية يشرعها .. لذلك فالنظام السياسى الذى تتقلص فيه قاعدة الاختيار أو تنعدم يطلق عليه نظام ديكتاتورى يعكس النظام الذى يتنوع فيه الاختيار .. وهـــذا هو المعيار الحقيقى للتفرقة بين الديمقراطيـــة والديكتاتورية .. لهذا فرفض الديكتاتورية كنظام حكم فى أية صـــورة من صـــورها ســـببه انها تمثل خرقا لقانـــون كامل وهو قانون الاختيار .. لأن الديكتاتورية تعنى القسر والارهاب ولوى ذراع الاختيار من اجل حكم الفرد ..

ضـــمنى الارهـــاق داخـــل عبـــائته الســـوداء .. الصـــور والاشكال تتأرجح أمام عينى .. أننى اتســـاقط .. تمالكت نفسى حاولت التماسك دون جدوى .. وجه بسطاوى وقد تحول لثلاث وجوه بستة أعين ضـغطت على جبهتى براحة يدى .. ساقاى تتخاذلان أننى اهوى .. اتساقط كورقة خريف .. ورئيس المحكمة يعلن :

ـــ ترفع الجلسة على أن تعقد غدا .

الساعى يزعق (محكمـــة)

الجميع يقف .. رئيس المحكمة « بســـطاوى » يتخايل وهو يدلف الى مكانه .. يجلس . حوله هيئة المحكمة المؤقـــرة . وفى الركن القصى يجلس نمرود بعباءته الحمراء .. رئيس المحكمة يوجه حديثه الى .. يسأل :

ـــ المتهم حاضر ؟

رغم انه فى كل مرة يرانى الا انها أصبحت عبارة مألوفة . هذه المرة لم اجبه .. استشاط غضبا صرخ من جديد :

ـــ اذا لم يجب المتهم فسنوجه اليه تهمة اهانة المحكمة .

ابتسمت .. فى تلك اللحظة صرخ نمرود :

ـــ انه يبتسم سيدى للرئيس ..

لا ادرى لماذا تستفز ابتسامتى نمرود رغم انها الصـــفة الوحيدة التى تميزنى عن هؤلاء القردة .

رئيس المحكمة يصرخ غاضبا :

ـــ هل انت حاضر يا متهم !!

قلت فى سـخرية :

ـــ نعم يا ســـيد بسطاوى .

ســـأل من جديد ؟

ـــ ماذا عندك من الطبخة ؟!

استفزنى بعبارته صرخت :

ـــ تطلق على الفكر طبخة يا جرسون الكلب .

حذرنى بقولتـــه :

ـــ تأدب يا متهم .. فانت تخاطب من يملك حياتك .

هل اعددت نفسك للقراءة اليوم .

اومات .. اســـتطرد قائلا :

ـــ اذن فاتلو علينا ماجاء بكتابك الملعون ..

امسكت بالكتاب قلبت صفحاته .. صـــوتى يهـــدر كانه الموج .. الطـــوفان .

ـــ هل للانســان قدر .. صفحة او صفحات مدونة لا يحيد عنها ولا يبتعد عن مضـــمونها .. ويلتزم بنصوصـــها .. وينفذها حرفيا دون ان يكون له حرية اختيار النص الأصلح له .

بمعنى آخر هل الانسان مسير .. اى ليست له ارادة فى تســـيير دفة اموره .. وانه ليس سوى منفذ لقدره المكتوب .. فالايماءة والابتسامة .. والغضـــبة والكلمة حتى تحريك الحاجبين لمغازلة امراة فاتنة .. كلها كتبت بمداد مجهول فى صفحة مجهولة .. تسمى القدر .. وبالتالى فان محاولات الانسان للتحضر والرقى لن تجد لها صدى ســـوى ما كتب بمداد هذا القدر المجهول .. بالمعنى الشائع .. « المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين » .

ان هـــذا الكـــلام مهما اكتســـب من قدســـية نتيجـــة تـــداوله والايمان به باعتباره أحدى القضايا الالهية التى لا يجوز الاقتراب منها او المساس بها .. لهو اشبه بتلك الألغاز التهويمية من شـــياطين وجن احمر واســـود واخضر .. وابليس ورقيب .. وعتيـــد .. وعـــوالم ما بعد الموت .. لماذا ؟

اولا لأن القدر يعنى أن الانسان يســـير فى فلك اعمال واقـــوال كتب عليه ان يفعلها .. بل ونتائج حكم عليه بها وهذا يعنى ببساطة شـــديدة أن كفاح الانسان مهما عظم شـــانه فهو مرتبط بنتيجة سبق أن رصـــدها القدر لا تغيير فيها ولا تبديل .. فالثروة والسلطان باعتبارهما هدفين يصبو اليهما البشر يتاتيان متى شـــاء القدر ولا عبرة بمحاولات تبذل او كفاح يحمى .. لأن ما هو مكتوب هو الحادث لا تغيير فيه ولا تبديل .. وبالتالى تصـــبح محاولات الانسانية على مر العصور فى مجالات الطب والهندســـة والفضـــاء والكيمياء وغيرها فى فروع العلم المختلفة مرتبطة بمشـــيئة القدر اذا عن له

وكتبها فى صحته فستؤتى ثمارها والا فلا ؟! وعلى الانســـان قبل أن يخطو خطـــوة نحو التقـــدم أن يعرف مقدما ما هو حظ هذه الخطـــوة فى صـــفحة القدر المجهول ؟! ..

ثانيـــا ـــ أن القدر يعنى رفض علاقة السببية بين الفعل ونتيجته .. فلا ارتباط بينهما بل انفصام كامل (شـــوزفرنيا) فالنتيجة لا تحدث بسبب الفعل .. بل تخضـع لمشيئة القدر .. يحددها بالصـــورة التى يرتئيها .. فسقوط المطر ليس سببه نظرية علمية .. بل ارادة القدر والتى يكـــون من احد حوافزها ابتهال الناس ودعواتهم .. وشروق الشـــمس وغروبها ليس منشأة دوران الأرض حول نفسها بل فى المقام الأول هو مشيئة القدر فلو غير القدر تلك المشـــيئة لوجدنا الشـــمس تشرق من الغرب وتنام فى الشرق .. والموت صفحة مكتوبة لا تغيير فيها ولا تبديل .. فمن أتى أجله يأتيه الموت ولو كان فى بروج مشيدة من الصـــحة والعافية .. بلا أســـباب ظاهرة أو خفية .. يأتيه عزرائيـــل يحمحم حوله .. ويلف ويدور .. ثم يطعنـــه هذا الملعون طعنة نجلاء .. فاذا هو جثة هامدة ترفرفكالطير الذبيح فوق الأرض بعد أن يجذب روحه « بماشه » كتلك التى تستعمل فى التقاط جمر النار من « الجوزة » العصماء ،ومن يصاب بمقذوف نارى فى قلبه وينقذ .. ليس سبب نجاته تدخل المشرط ويد الطبيب.. بل لأن القدر يريد ذلك !!! والمريضيشفى لا لأنه عـــولج بل لأنه كتب فى لوحة قـــدره ان يشـــفى !! ونصـــدق من خلالها قصة أيوب الخرافية والذىشفى بعد أن نخر فى جسده الدود !! وننتهى بهذا الى رفض علاقة الســـببية بين الفعل ونتيجته فى كل مناحى حياتنا .. فنتيجة الفعل لا يصيغها سوى القدر .. ومن ثم نعدم علاقة الســـببية على متصلة التخلف .. ليصبح القدر هو صفارة الحكم الوحيدة فى الملعب يوقف المباراة متى شـــاء وينهيها كما يريد لصـــالح أى فريق حتى ولو كان الفريق المهـــزوم ..

ثالثا ـ أن تطبيق تلك القاعدة هكذا بلا ضوابط يعنى فى النهاية غيبة القانون الكامل الذى يحكم الكون بمعنى أنه اذا كان للقدر اليد الطولى فلن يتم ذلك من خلال قانون محدد يحكم الكون تأتى فيه الحيثيات قبل المنطوق بل من

خـــلال غيبيات غير مفهـــومة .. وبالتالى يصـــــبح القدر رمز للنتائج التى لا تحكمها أسباب أو مسببات .. فهى تأتى كما يشـــاء القدر وفى اى وقت يشاء .. وتصبح هكذا رمزا لفوضى ليس مكانها سطور قانون كامل استنبتت فى ارضه بذور المنطق .. وشجرة العقل بل تهويمات وخرافات .

رابعا ـــ الله لا يتدخل فى حياة كل فرد تدخلا مباشرا ليرســـم له لوحة حياته بما فيها من ألوان باهتة وزاهية .. وخطوط متعرجة ومستقيمة .. وظلال وضباب .. واضواء .. بل الأقرب الى العقل القـــول أن الانسان يجرى ويلهث ويأثم ويبتسم ويغضب .. ويضرب فى الأرض بلا هدى ويصل بعقله للنظريات العلمية .. ويحرك الســـحب والمطر .. كل هذا من خـــلال قانون كامل متكامل .. هـــذا القانون ليس قدرا .. ولكنه قانون يحكم هذه الأكوان .. هذا القانون لا يرسم لكل شخص حياته .. ماذا يأكل .. وماذا يشرب .. ومن يعشق .. ومن يكره .. لكنه قانون عام شامل له نظرياته العلمية والاقتصادية والانسانية كل فرد تجرى شئونه من خلال هذا القانون الذى لم يكتشف الانسان بعد من فروعه سوى القدر اليسير .. هذا القانون لا مكان فيه للحظ المطلق .. ولا مجال فيه لتحديد عمر الانسان الا اذا كان من خـــلال أحد قوانين العلم .. : مريض السرطان الذى يحدد الطب آفته ووقت موته .. هذا التحديد ليس ناتج القدر أو جنيه بل سببه قوانين العلم التى اصـــبح فى مكنتها تحـــديد نوع الجنين والذى كان يعتبر فى وقت من الأوقات احدى المعجزات التى لم يسر بها الله لخلوق !! ومن منطلق تقولات شائعـــة « لا يوجد دابة على الأرض الا وعلى الله رزقها » « ربك يفرجها » « تجرى جرى الوحوش وغير رزقك ما تحوش » « لن يصيب الانسان الا ما كتب له » « الاعمار بيد الله » « اعقلها وتوكل » من هذا المنطلق للعاجز الكســـيح بدا بعض الناس يحمن الكسل امثلا فى جنة أرضـــية تأتيه من حيث لا يدرى .. السماء التى تمطر ذهبا أو الأرض التى تفجر ينابيع الثروة .. وســـاعد على تقوية هذا الاعتقاد ما هو الحادث فعلا فى كثير من البلاد .. الثروات الهائلة

التي تحققت ايضا من حيث لا يدرون فادمنوا الكســـل اكثر فأكثر واصبحوا السـادة الذين يشـــترون بملايينهم العمال الفقراء .. وعادت اســـطورة ـ العبيد تدق أبواب الحاضر والمســـتقبل .. فاذا كان كل شيء دان .. المال والعبيد .. فلماذا الكفاح والنضال من أجل التقدم لماذا تعب (الدماغ) وهم يستوردون العلم من الخارج بخبراته وآلاته.. لماذا العناء فى البحث والابتكار والاختراع والملايين تنفق فى شراء أحدث مخترعات هذا الاله الجديد ..العلم. لكن كثـــيرا ما تحـــدث كوارث كالزلازل والبراكين، والســـيول والحـــروب والأوبئـــة والمجاعات وهو ما يعبر عنه بالقـــوى ا ناهـــرة .. فما حظ تلك الكوارث من القدر ؟ حتى تلك الكوارث رغم أنها قوة قاهرة فالانسان لا يفقد اختياره امامها .. كيف ؟! لأن له امامها بدائله واختياراته لدرء ضررها .. فهى ليست قدر ولكنها ظواهر لها أسبابها وقوانينها .. والانسان فى تقدمه المذهل نحو الحضارة يحاول جماعيا او فرديا أن يقاوم مثل هذه الكوارث .. جماعيا بعلاج الآثار الضارة الناجمة عن حدوث هذه الكوارث .. أو بالوقاية منها .. بعمل السدود أو الابتعاد عن مصدر خطرها أو محاصرة اســـبابها أو التحصين ضدها .. وقد تكون ردود الافعال فردية فيختار الانسان افضل السبل المتاحة لتفادى مثل هذه الكارثة او تلك .. فاحتراق عمارة يحدث ذعر كرد فعل للسكان .. ولكن رد الفعل هذا يختلف من شـــخص لآخر .. لكن ثمة قاسم مشـــترك يجمع هذه الردود وهو محاولة الحفاظ على الحياة .. فالذى يحاول اطفاء النار .. غير الذى يهرب .. غير الذى يقفز من النافذة .. ولكن القاسم الذى يجمع هذه الافعال هو محاولة الابتعاد عن الموت هذا يعنى امر واحد أن الجميع كان له فرصـــة الاختيار بين البدائل المفروضة عليه .. فالكل كان متساوى أمام فرصـة اختيار بقائه حيا أما الاختلاف فهو فى كيفية درء الخطر بالقفز من النافذة او الهرب أو محاولة الاطفاء .. وهذا ما يدفعنا للتساؤل هل الناس متساوون أمام هذا الاختيار ..

خلع نمرود خفيه .. صفق بهما .. صاح فرحا :

ـــ انه الكفر بعينه .. أنه الالحاد .. لقد دخـل المصـــيدة .. انكر القدر .. انكر قدرة الاله .. الاعدام وليس سوى الاعدام بديلا ..

قاطعته فى حدة :

ـــ أيها الكلب الازعر .. هلا سمعتنى للنهاية .

رئيس المحكمـــة يرد فى ثقة :

ـــ وهل بعد الكفر بالقدر شىء ؟

ـــ نعم .. بل اشـــياء .

اذن فاقرا ايها الملعون فقرات كتابك الملعون فقد اقتربت المقصـــلة من رقبتك او دنوت انت منها . هيا يا ملعون .. هيا .

صـــوتى يهدر من جديد ..كانه الزمن عنـــدما يفيق من اغمـــاءه بعد ثورة دامية .

١ = ١٠

المساواة احد دعائم الاختيار .. بها يطمئن الانســـان على حريته ان تنهشها ذئاب القمع .. فالتفرقة يستلزم لاســـتمرارها ذبح اية صـــيحة نطالب بالمساواة . ويقصد بالمساواة هنا كفالة الاختيار لكل فرد .. والفرد هنا لا يعتبر فردا مجردا .. بل فردا بما تحيطه من ظروف .. اى حالة اجتماعية .. الحالة = الانسان + للظروف ..

هذه الحالة الاجتماعية يجب ان تكفل لها المســـاواة فى الاختيار بمعنى آخـــر يجب ان تكفل لكل الحالات المتشابهـــة نفس الحقوق التى ترتب على الاختيار .. فلا تفرقة بين حالة واخرى متشابهتين تحملان نفس الالتزامات لأن المساواة تعنى فى النهاية مساواة فى الحق والواجب ..

لذلك كان سبب التناقضات الاجتماعية غيبة المساواة عن ساحة التطبيق وظهور الاستثناءات .. ففى غيبة المساواة عن أرض الواقع تحفر حمم نارية بقسوة ارض المجتمع كالوساطة والمحسوبية والاستثناءات والرشوة نتيجة لفقـــدان المعيار القانونى الذى يحدد الحق والالتزام لكل حالة على حـــدة .. فيزيط اللعب ويخلط الحابل بالنابل ويعلو من لا يستحق ان يعلو ويطفو على الســـطح غرقى الفكر والمتزلقين والمنافقين .. ويغوص الى القاع اصـــحاب المواهب والاكفاء والعباقرة .. ونجد الساحة فى النهاية وقد علا ســـقيفتها الضباب وحلت على ارضـــها الفوضى .. .. وغابت عنها اشراقة المساواة هذه المساواة لا تعنى فقط مبدأ تكافؤ الفرص بل ايضـــا المساواة الكاملة منذ ولادة الانســـان حتى موته .. وهذا يعنى ان تكفل له كفيره كافة الحقوق مقابل ادائه لالتزاماته التى تحددها الحالة التى يكون عليها هذا الانســـان .. هذه الحقوق والالتزامات ترتبط ببعضـــها ارتباطا وثيقا تصاعديا او تنازليا

بمعنى انه كلما زادت ـــ مسئوليات الانسان اتسع نطاق حقوقه ليستطيع من خلالها ان يواجه تلك المسئوليات .. وكلما تضاءلت مسئولياته .. ضمرت حقوقه .. وبالتالى يطرد الحق مع المسئولية اضطرادا تناسبيا .. ليتناسب مع ضخامة او صغر حجم المسئولية .. بحيث يمكن القول ان الاخلال بهذا الاضطراد وهذا التوازن يؤدى الى عواقب وخيمة .. فلماذا لم تتسع دائرة الحق لتتوازى مع المسئولية .. فذلك يعنى ضآلة الحق مع عظم المسئولية .. ويعنى أيضا فى غالب الاحوال الانحراف .. واذا انقلبت الصورة واصبح الحق الممنوح للانسان اكبر بكثير من المسئولية الملقاة على عاتقه فهذا ادعى الى الانحراف بالسلطة .. تماما كمن يرتدى جلبابا فضفاضا يتعثر فى اطرافه .. ويعوقه عن الحركة .. ويدفعه لارتكاب اخطاء . من هذا ننتهى الى أن قاعدة توازى الحق مع الواجب ضرورة حتمية بدونها تحل الفوضى دروب المجتمع .. فالطفل الذى تزيد فيه حقوقه عن واجباته ينمو طفلا مدللا .. وينعكس الحال عندما يحرم الطفل من حقه فى الرعاية والحنان والحب وكلما زاد نماء الطفل زادت رقعة واجباته وبالتالى رقعة حقوقه .. والتى تتغير حسب مراحل حياته وحسب الظروف المحيطة به باعتباره حالة .. فليس من المستساغ عقلا ان يأخذ الشباب حقوق الطفل فقط ويلتزم فى نفس الوقت بأداء واجبات الشاب .. وما ينطبق على الشاب ينطبق ايضا على رب الأسرة فكلما زادت مسئولياته كلما اتسعت دائرة حقوقه تلك الضرورية و اللازمة لأداء هذه المسئوليات .. بحيث يمكن القول انه من احد أسباب التفكك الأسرى هو عدم تحقيق التوازن سواء بالنسبة للزوجة او الزوج .. فالزوج الذى تلتهم امراته حقوقه .. والمرأة التى يستعبدها زوجها كلاهما معول يفتت للتوازن بين الحق والواجب .. ففى الصورة الأولى رجل اهدرت كل حقوقه .. وفى الثانية امرأة اتمحت آدميتها والحاصل فى الأسرة هو ايضا محصلة المجتمع .. فبقدر ما يعطى الانسان لمجتمعه بقدر ما ياخذ . فماذا كان عطاء الانسان اكبر من عطاء المجتمع له فهذا يعنى اختلال للتوازن بين الحق والواجب .. فالواجب الذى يؤدية

الفرد لا يحصل على مقابل له .. واذا كانت هذه هى الصورة الأولى للفرد الذى يعطى دون مقابل .

فالصورة الثانية اشد اسودادا واكثر عمقا .. انها تصـــنع الأخاديد والحفر فى المجتمعات وتهز البنية الأســاسية .. بل وتحيلها انقاضا . صورة هؤلاء الذين ينهشـــون القطيع المســـالم بلا حياء او خجل دون أن يقدموا فى المقابل سوى الموعظة الحســـنة والتمنيات الطيبة والوعود الزائفة !! عندئذ يتراكم الاحساس بالظلم .. ليتحول من شعور فردى الى احساس جماعى وتصبح آنذاك الأرض خصبة لانبات بذور للثورة .

لكن فى النهاية يصبح التوازن بين الحق والواجب بين الأخذ والعطاء هو الفيصل فى قضية المساواة فالمساواة ليســـت مطلقة .. معممة .. بل نأخذ فى الاعتبار لتحقيق صورها العدالة المطلقة فى كل الحالات المتشابهة أو المتماثلة وايضا توازى المسئولية مع الحق ويمكن جدولة هذا المعنى بالصورة التاليـــة :

الالتزام اكبر من الحق ناتجه الانحراف

الحـــق اوســـع من الالتزام ناتجه الانحراف أيضا

الالتزام = الحق ناتجه العدالة

١ = ١ ناتجه الانصـــاف

تلك الجدولة تعنى بقدر ما تعمل الخلية بقدر ما تأخذ من حقوق .. فاذا انكسرت تلك القاعدة نتج عنها شرخ فى بنيان المجتمع .. فيأخذ الانسان بما لا يستحقه .. نتيجة الالتجاء للاساليب الملتوية كالرشوة والمحســـوبية واذا عجز .. فينصهر هذا العجز فى احساســـه بالظلم امام الفئة المختارة وفى المقابل اذا حرم الانسان من حقوقه تولد لديه الاحساس بالظلم وخيبة الأمل والانطواء والجمود وهو يرى بعينيه جهده وعرقه وكفاح يومه يسرقهم غـــيره .. فمن يعمل اقل يحصـــل على حقوق اكثر ومن يعمـــل بجد لا يجد الفتات .. وفى الحالتين سيسخط عالم من الاغلبية ضـــد الاقلية المختارة .. يتحول بمرور الأيام من احساس بالسخط الى تذمر ثم الى تمرد ثم الى ثورة لا تبقى ولا تذر .

لكن هل يوجد حقا ما يسمى بالحظ ؟ اذا كان يقصد بالحظ اختلال فى بنية المجتمع فهذا صحيح اما فى مجتمع منظم فالحق يتوازى فيه مع الالتزام .. ومن خلال هذا يمكن تكوين هرم المجتمع على الوجه التالى على القمة يقف المفكرين يليهم العلماء وفى السفح الرعاع .. من صناع ومزارعين وتجار وحرفيين ومهنيين وعلة هذا ترتيب الهرمى تكمن فى الاجابة عن سؤال لمن يرجع اليه الفضل فى تطور المجتمعات ؟خريطة الانسانية توضح ان عملاقين تناوبا القيام بهذه المهمة للعسرة خلال عصور التاريخ فبدون العلم والفكر لم يكن الانسان ليامل الخروج عن نطاق الغابة التى كان يتصارع فيها مع بنى جنسه والحيوانات . فطفرة التطور الهائلة التى يعيشها المجتمع مرجعها اكتشافات العلم ومفاهيم الفكر .. هذا الترتيب حتمى .. بمعنى ان الاخلال به يسبب اختلال فى هيكل المجتمع .. فاذا احتل الرعاع القمة وانحدر المفكرين والعلماء للسفح فهذا يعنى الاخلال الجسيم بهيكل المجتمع ويعنى ايضا فقد توازن المجتمع وانهيار قيمه وعقليته الابداعية .. بل ان فكرة بناء المدافن لدى قدماء المصريين على هيئة هرم وليس على شكل مربع او مستطيل قد توحى بتاكيد معنى التدرج الانسانى !! والمجتمعات التى ترفض هذا التدرج كما هو حادث فى الشرق حيث احتل اصحاب رؤوس الأموال ومعظمهم من الأناتين وقطاع الطرق والجهلاء قمة الهرم .. مثل هذه المجتمعات فقدت الحس والادراك والفهم واصبح طابعها العجز حتى فى البحث عن حقيقة ذاتها .. وفقدت بالتالى ميزة للبحث والتطور والخلق والابداع .. والسؤال او ليس هذا التدرج يعتبر اخلالا بقاعدة المساواة ؟! الا يعنى هذا التقسيم خرقا لمبدا المساواة ؟! ابدا .. لأن هذا التقسيم ليس سوى تدوين لخريطة الواقع .. وليس مجرد اقتراح .. فالحادث فعلا ان قاطرة المجتمع لا يدفعها سوى بخار العلم والفكر وليس هذا باكتشاف حديث فقد وصلت الى معناه اكثر الدول تخلفا فاصبحت الآن منارة للفكر والعلم والحضارة بعد ان اعطت اهتماما لعلمائها ومبدعيها ومنحتهم الفرص للتزود من فروع العلم والمعرفة بالاطلاع والبحث والرحلات .. بل يمكن لنا بلا تحرز أن نضع الدول ايضا فى هذا التدرج الهرمى فعلى القمة تقف الدول التى تهتم بالعلم والفكر ..

والتى تزهو بعلمائها ومخترعيها ومفكريها .. بينما تعيش حثالة الدول والتى اهملت مفكريهـــا وعلمائهـــا ومبدعيها فى الســـفح تحت الطـين .. ديدان تاكل من روث للبهائم . واذا ما انتقلنا من الفرد والدولة الى الحاكم لنناقش حقوقه وواجباته نجد أن الحل الأمثل لممارســـة الحاكم لسلطاته هو توازى الحق والواجب .. فالحاكم الذى يعطى لنفسه حقوقا أكثر من تلك للضرورية لممارسة سلطاته يخل بقاعدة المساواة وينحرف بالسلطة لذلك فالتزام الحاكم بقاعدة توازى الحق مع للواجب التزام اساسى .. والقانون الذى ينص على خلاف ذلك قانون باطل غـــير مشروع يجب اســـقاطه .. ان سبب الثورات ليس الفاقه او الجوع التى يعانى منها الفرد .. بل السخط نتيجة كسر قاعدة المساواة فى مجتمع يشعر فيه الفرد بحدة الفوارق الاجتماعية مجتمع تحصل فيه الأقلية على حقوق اكبر مما تؤديه من للتزامات .. بينما تحصل الأغلبية على حقوق تقل بكثير من التزاماتها .. مثل هذا الاحســـاس هو الذى يفجر الثورات .. فليس سبب الثورات مجموعة مبادىء أو مثل يســـطرها قادة الثورة .. بل أن مفجرها الحقيقى هو الاحساس بالظلم .. ثم تعميق هذا الاحساس بمجموعة من الشعارات والمفاهيم تحتضن هذا الاحساس وتغنيه باســـلوب منظم .. وهذا هو دور قادة الثورات .. بحيث لا يصـــبح امام الانســـان المحرق من بدائل ســـوى طريق واحد يحقق له المســـاواة .. للثـــورة .

الصـــــغر والمليـــون

ـ الميراث يعني انتقال حقوق الميت ســـــواء المادية منهـــا كالعقارات والأموال او المعنوية كحقـــوق التأليف او براءات الاختراعات الى ورثته .. ويعني أن انتقال هذه الحقوق يتم بعد وفاة صاحبها .. ويعني أيضـــا ان للجسـد بعد الموت وقبل أن تنتقل تلك الحقوق للورثة يعني ان لهذا الجســد الميت حق الملكية . بعض الشرائع لا تعترف بالميراث .. وليس هذا الانكار منصبا على نظام الميراث فى حد ذاته بل هو ينبع أساسا من عدم اعترافهـا بالملكية الفردية ..وشرائع أخرى تعتبر الميراث أحد الأعمدة الرئيسية فى بنية المجتمعات التي تأخذ به .. واذا ما عدنا القهقرى الى الخلف لنقرأ صفحات التاريخ .. نجد ان نظام التوارث هذا سابقا على صيغ الأديان وأن الصورة التى رسمتها الأديان ليست سوى ترجمة غير امينة لما سبقها من تشريعات !! وفلسفة الميراث تكمن فى ان الورثة ليسو ســـوى مكملين لحياة مورثهم .. لذلك فهم امتداد له فى كافة حقوقه .. وحتى نحدد مدى توافق هـــذا النظام مع الاختيار علينا أن نبحث أولا من اتفاقه أو اختلافه مع مبدأ المساواة .. خاصة وقد أدى تشريع هذه البدعة الغريبة الى تفاوت ضخم فى الثروات .. اصحاب الملايين واصـــحاب الملاليم .. مالكى اليخوت والطائرات وقاطنى العشش والحفاة والاسرة .. صـــور نراها فى المجتمعات المتخلفة اكثر حدة منها فى المجتمعات المتقدمة .. لأنه لا توجد ثمة وسائل لامتصـــاص جزء من تلك الثروات الضـــخمة لصـــالح (الغـــلابة) .. تلك الثروات التى اتت لأصـحابها بالصدفة من طريق الميراث .. وما يترتب على ذلك من الاخلال بقاعدة المســـاواة .. فابن الجنايني العبقرى يرث الفقر والعـــوز والحاجة ويرمـــف فى اغلال التبعية .. بينما يرث ابن الثرى عن أبيه المـــال وربما الغباء .. فوارق اجتماعية طاحنة ســـببها ثروات تأتى دون قطرة عرق .. لذلك كان من المحتم التفكـــير فى إزالة تلك الفـــوارق الأجتماعيـــة .. ليس

بالمناداة بالغاء الملكية الفردية .. لأن هذا يعني اجهاض الحافز الشخصي .. وليس ايضا بحد سيف الضرائب الذى ثبت على مدى السنين عدم جدواه فى تمزيق الدخول المرتفعة لصـــالح الفقراء .. انما نتم الاذابة بثورة داخـــل النظام الراسمالي لا تقتلعه من جذوره .. بل تحمل مفاهيما جديدة لا تتعارض مع الأساس الفلسفى له .. ثورة اصـــبحت حتمية حتى لا يتعرض النظـــام الراسمالي للانهيار بعد أن ثبت فشـــله فى اذابة الفوارق الاجتماعيـــة .. مفاهيم ينصهر داخل بوتقتها أولا مواهب الانســـان وقدراته الخلابة وثانيا المساواة .. لنجد فى النهاية داخـــل البوتقة .. بعد ان تهدأ النار ســـبيكة ثمينة يمتزج فيها العدل والحق ..

ـــ لكن يبقى السؤال الحائر كيف يمكن الوصول لذلك .. ليس امامنا سوى العودة لحضـــن الاختيار .. فالاختيار كما سبق أن أوضـــحنا مبدأ شخصى يتصـــل بالانسان اتصـــال الجنين بالمشـــيمة .. ينتهى أو ينعدم بموته .. اى أن الاختيار بهذه الصـــلة الحيانية لا يورث فلا يمكن أن يرث الابن اختيار ابيه .. أو بمعنى آخر لا يجوز أن تصـــبح ارادة المورث المبتة المنعـــدمة شيء يتوارثه الورثة وبالتالى فان أى قـــرار يتخـــذه الابن ويعزوه للاب بعد موته يعتبر قـــرارا باطـــلا .. حتى على فـــرض ان هـــذا القرار قد صدر أثناء حياة المورث .. فان تنفيذه يصـــبح معلقا على وجوده حيا .. اى أنه يجب أن نفرق بين مكنة اصـــدار القرار وبين تنفيذه .. فمن حق المورث ان يتصرف فى امواله بكافة التصرفات القانونية اثناء حياته وهو ما نطلق عليه مكنة اصدار القرار .. ومن حقه ايضا اثناء حياته أن يضـــع بارادته هذا القرار موضع التنفيذ .. ولكن بعد الوفاة لا يجوز أو يصـــح ان ينفذ الورثة قرارا اتخذه المورث قبل وفاته هو والعدم سواء ..وهذا منطقى لأن القول بعكس ذلك يعنى ان يصبح للوارث إرادتين .. ارادته وارادة ـــ المورث .. أى ارادة الملقى وارادة المتلقى ويصبح له بالتالى استعمال هاتين الارادتين .. وهذا باطل بإطلاقنا مطلقا مثله مثل التوكيل الذى يعطيه الموكل.. لوكله فهو ينعدم بموته ..واذا كان مرفوضا أن يستخدم الوارث حقوق مورثه

مثل حق الانتخاب او الترشـــيح او التعيين فى الوظائف العامة .. فليس له الحق كذلك فى استعمال حق اختيار مورثه لأنه حق متصل بذاته .. متصل بكينونته فمتى انتهت تلك الذات أو انعدمت تلك الكينونة انعدم الحق الناشىء عنها او بمعنى كآخر اذا كان فاقدَ الشىء لا يعطيه .. فما هو الحال اذا كان صاحب هذا الشىء أصـــلا غير موجود .. وعلى هذا فمبدأ الاختيار لا يورث مثله فى ذلك مثل الحرية الشخصية التى لا يجوز ان تنتقل من مورث لورثته لأنها حرية لصيقة بذاته .. بكينونته التى فقدها بالموت .. والموت لا يعنى فقط موت الخلايا بل موت كافة الحقوق والالتزامات .. ويعنى ايضا سقوط كافة العقوبات.. بل والجرائم.. وبالتالى لا يمكن ان يحاكم الفرد او يعاقب من اجل جريمة ارتكبها اثناء حياته.. واذا كان الحال كذلك فكيف تنفذ وصية المورث بعد موته رغم أن تنفيذها يعنى رفضكل ما أوردناه من حجج وبراهين ويعنى ايضاء احياء لارادة الميت التى دفنها المجهـــول .. الميراث يعنى فرض ارادة الميت بعد مماته بتقسيم التركة .. والتى يفترض معها ان للمورث بعد موته حق الملكية .. مع أن هذا الحق يعتبر واحد من الحقوق الأساسية التى تتعلق بشخص الانسان اثناء حياته وتنتهى بموته .. قد يقال أن هذا الحق يؤول الى الورثة فور موت المورث وهنا يكمن السؤال .. كيف ؟! وما هو السند القانونى الذى يؤول بموجبه حق الملكية للغير سواء بالميراث أو الوصية لا سند فى هذا ســـرى التاريخ .. وهو ما يتناقض تماما مع حرية الاختيار التى تنعدم بموت الانسان حتى على فرض أن هـــذا المورث قد ارتضى اثناء حياته أن تنتقل اصـــول تركته لورثته .. لأن مثل هذا الرضاء لا يصـــحح التصرف الباطل .. ولا يضفى عليه الشرعية ومن ثم لا يحق للوارث بموجبه تملك حق اختيار مورثه الذى قلنا عنه أنه حق لصـــيق بالانسان .. فالميراث والاختيار قطبان متنافران .. بل يمكن القول أن تقرير مبـــدا الميراث يعنى عدم الاختيار من أساسه .

اولا ــ لانه ضـــد مبدأ تكافؤ الفرص الذى هو أحد ثمار الاختيار .. فالميراث يعنى استئثار فرد بميزة دون غيره .

ثانيا ــ من دعائم المساواة عدم التفرقة بين الناس والميراث يخل بهذا المبدأ فواحد يبدأ من المليون وآخر من الصفر .. صراع .. الغلبة فيه حتما لصاحب المليون .. رغم ان المساواة الحقة تحتم أن يبدأ الجميع من الصفر سباق شريف للحياة .. الغلبة فيه للعرق والكفاح .. لا مكان فيه للكســـل فمن يعمل يأكل . مثل هذا الالغاء لا يعنى اهـــدار الحافز الفردى .. ذلك ان الانســان تحت ظلال هـــذا النظام له حق التملك والانماء والاثراء من خـــلال قناة تحقيق الذات ..

لقد ثبت علميا ان الحافز الحقيقى الذى يدفع الانسان لانماء ثروته هو فى المقام الأول تحقيق ذاته .. وليست رغبته فى أن تؤول تركته الى ورثته . فضلا من ذلك فان الغاء الميراث يضيق من الهوة الساحقة التى تفصـــل بين الطبقات .. ويخيب الأحقاد الطبقية .. وتتحول الرأسمالية تحت ظلال هذا النظام الى راسمالية هادئة لا عنف فيها ولا ثورات ولا احتيال أو غش او خداع ولا محسوبية أو رشـــوة أو وســـاطة .. تختفى كثير من الجـــرائم والأمراض الاجتماعية ويتحول فساد المجتمع الى نقاء وطهارة .

تاطمئن نمرود فى تحـــد :

ــ ضقنا بفلسفاتك والكتاب الملعون .
ــ وانا لست أقل ضيقا من جهلك وصفاقتك .
ــ اذن فانت تكتفى بما قرأته لنا من الأكاذيب .
ــ اذا كنت ورفقائك قد اقتنعتم بالحقيقة .
ــ الحقيقة الوحيدة أنك تخطو نحو قارب الموت .
ــ بل قارب يقلنى الى مكان بعيد لا أرى فيه ســـوى امراة جميلـــة فى مخدع أنيق .

ــ امراة بعينها ؟ .
ــ بل واحدة اذوب واياها وانا اضاجعها ..
ــ اين هى حتى نضعها معك فى قفص الاتهام .
ــ انها الحتمية التاريخية يا جاهل .
ــ اكمل اذن اكاذيبك وترهاتك .

الحقيقة التاريخية

ـ رحم واحد يحمل توام .. ذكر وانثى من نطفة واحدة فلماذا ما احتواهما الوجود البشرى بدات التفرقة المتعسفة بين الذكر والأنثى .. فى التقييم الانسانى .. الأنثى أقل درجة من الرجل لانها ناقصة عقل ودين واذا تساءلنا كيف يكون هذا الانتقاص نجد ان المنطق يرفض عموميات مثل هذا النص .. ويرفض القول بالأفضلية المطلقة للرجل .. بل يوجب بحث كل حالة على حدة سواء كانت ذكرا ام انثى لمعرفة الأفضل والأحسن فمعيار التفرقة بين الجيد والغث البشرى لا يجب ان يعتمد على النوع ذكر أم انثى بل الفرد باعتباره حالة اجتماعية داخل نظام اجتماعى .. والا اصبحنا امام تفرقة ظالمة لا تمت للعدالة لا من قريب أو بعيد بصلة .. هذا بالنسبة للتقييم الانسانى .. واذا ما انتقلنا منه الى الحقوق المكفولة لكل من الرجل والمراة .. نجد ان الأديان ونصوص كثير من التشريعات قد كفلت للرجل حقوقا اكثر بكثير مما للمراة .. واصبح بمقتضاها فى وضع متميز .. المراة ترث نصف الرجل .. شهادتها لا تجوز الا اذا كانت ثنائية .. للرجل الحق فى تقويمها بكافة الوسائل من هجر للسرير حتى الضرب .. ليس لها الحق فى الطلاق ولزوجها عليها حق الطاعة بل وتجبر على معاشرته جنسيا .. ليغتصب فى كل مرة كرامتها وانوثتها والأمثلة على اهدار آدميتها كثيرة ومتنوعة اى ظلم هذا يجلبه عليها تكوينها الأنثوى .. رغم أنها تحمل داخل رحمها معجزة الحياة التى سيظل سرها مستغلقا على العقل البشرى لفترة ليست بالوجيزة .

وعلى أرض الحقيقة نجد ان هذا التميز الذى خص الرجل به نفسه لا يسنده دليل عقلى او فكر منطقى أو استنتاج علمى بل مرد الأمر كله لحجج واهية ساقها دعاة التميز منها تفوق الرجل ومسئولية الانفاق .. دعوة ليست سوى ردة فى الحضارة !! ذلك ان لكل من الذكر والأنثى مسئولياته التى

اختصته بها الطبيعة والتى تختلف بالتالى حســـب نوع كل منهما لا تفوق فيها لنوع على الآخر .. الا حسب قدرات كل شخص ســـواء اكان ذكرا ام انثى .. بحيث يمكن القـــول ان التوازن فى المســـئوليات بين الذكر والأنثى قانون رســـمته الطبيعة بمداد من الواقع والتاريخ .. فاذا كان على الرجل اعالة الأسرة .. فالمراة مسئولة عن الطفل والبيت .. ميزان دقيق تقبضه يد العدالة على احدى كفتيه مسئولية المراة .. وفى الكفة الأخرى مسئولية الرجل مســـئوليتان متوازيتان .. لا افضـــلية فيها لنـــوع على الآخـــر .. بل الأفضلية تنصـــب على الفرد باعتباره حالة اجتماعيـــة .. فنقول على هذا للشخص نافع او سلبى لا حســـب نوعه ذكر ام انثى بل بما يقدمه لمجتمعه واسرته .. واذا ما اردنا الاستزادة نجد ان التفرقة بين الذكر والانثى تفرقة ظالمة مجرها الواقع الآن خاصة بعد ان نزلت المراة لميدان العمل وادت اعمالا بطوليـــة خارقة فى كافة المجـــالات وقدمت اروع الأمثلة فى التضـــحية وفى الاخـــلاص وفى التفانى وانطمســـت تلك الصـــورة القبيحة التى انطبعت فى الاذهان .. صورة المراة التى تنتظر زوجها أمام باب الكوخ .. تخلع عنه بردته وعمامته .. تضع قدميه فى ماء مملح .. وفى النهاية ترتمى عارية تحت اقدامه .. انشودة لمتعته الجســـدية !! لم تعد هذه صـــورة المراة بعد ان غزت كافة ميادين العمل بالابداع وللعقل والذراع ..

والحق يقال ان الأديان لم تنشىء هذه التفرقة فهى سابقة على وجودها كل ما فى الأمر ان الأديان بصمت على قانون هذه التفرقة الظالمة ..

ان المناداة بالمســـاواة بين الرجل والمراة هذه المناداة لا تاتى من فراغ بل تؤيدها ادلة عقلية واسانيد فكرية .. اولها هى مبدأ الاختيار فالاختيار يعنى المساواة بين البشر لا يفرق بينهم فصيلة .. او لون .. أو نوع .. يعنى ايضا حقوقا متساوية .. انما التفرقة تأتى من اعتبار الفرد حالة تختلف عن الأخرى .. اما الحالات الاجتماعية المتماثلة فلا يجوز التفرقة بينها .. فمثلا لا يجوز منع امراة من تولى منصب معين لا لسبب الا لأنها امراة ..

فاذا كانت هذه المراة تمثل حالة اجتماعية تتشابه وظروفها مع مثيلتها

لرجل يشـــغل نفس المنصـــب ومؤهله فلا يجـــوز تخطيها لا لســـبب الا لأنها انثى .. هذه التفرقة نشأت منذ العصـــور الأولى للتاريخ عنـــدما كان الرجل يخطف المرأة ويســـحبها من شـــعرها .. ثم انتقلت عدواها الى عصور متقدمة فاصبح الرجل يشـــترى المرأة بان يدفع لها مهرا مقابل متعته والقيام على خدمته .. واحاطت صورة الزواج عامة وفى الشرق خاصة اطار مهذب .. لكن الصورة نفسها بات ينبض كل لون فيها بمعنى الرق .. من خلال احكام ظالمة ضد المرأة .. فللرجل الحق المطلق فى الطلاق وما عليها سوى الطاعة دون أن تنبس حتى بكلمة « أف » كل ما عليها اذا ما لحق بها ضرر ان تطلب من المحكمة التطليق بناء على اســـباب يحددها القانون على سبيل الحصر وللمحكمة ان ترفض طلب الزوجة ..رغم ان استمرار المعاشرة يستلزم رضـا الطرفين ويعطي لأى منهما الحق فى طلب انهاء هذه العلاقة اذا ما لحق باحد الطرفين ضررا يستحيل مع وجوده استمرار هذه العلاقة ليصبح له الحق فى فســـخها .. مثل هذا الحق مكفول للرجـــل فقط دون المرأة .. لماذا ؟! محاباة لا يسندها عقل او منطق .. بها اصبحت المرأة كقطعة اثاث يقذف بها الرجل اينما وفى أى وقت يشاء .. محاباة غابت عنها الحكمة .. ضـــاع منهـــا الحق .. الحق الـــذى يســـنده فكرة التعاقـــد الذى تم بين طرفا العقـــد الزوج والزوجة .. فالعقد شريعة المتعاقدين .. اذا كان لأحدهما الحق فى فسخ العقد .. فيجب ان نكفل للطرف الآخر نفس الحق .. والا كان معنى ذلك عقد اذعان وهو ما يخالف ارادة الرضـــاء المفترضة لدى كلا الطرفين عند بدء التعاقد .

هذه الصورة المنبوذة من الزواج تقابلها صـــورة اخرى اشـــد ظلمة واسودادا .. وهى صـــورة الزواج المؤبد الذى لا يكـــون فيه لأحد الطرفين الحق فى فسخه حتى ولو اتفقا على ذلك .. ليصبح الشكل فى النهاية أقدس وابقى من ارادة الطرفين .. وليصبح الانسان فى النهاية اسير صيغة سبق ان ارتضـــاها لينظم بها علاقته بطرف آخر .. فكيف نحقق الحد الأدنى من العـــدالة لزوجـــة تؤخـــذ قسرا وتســـجن فى بيت زوجهـــا ثم نرتب على هذا القسر للمدوانى حقوق كاملة للزوج على جسدها وانسانيتها .. وتبقى حتى الموت سجينة علاقة زوجية دون ان تجرؤ على صرخة تطالب بها فســـخ

تلك العلاقة .. فهل يمكن ان تكون مثل هذه الأحكام احكاما عادلة .. واحد من قوانين الله الكاملة ؟! ..

ان محاولات الانسان التي بذلها على مر العصور من اجل تقدمه وتطوره والصيغ التي تنادى بها الفلاسفة والأنبياء والمصلحون لا يجب ان تنسينا الفلسفة الكامنة وراء كلماتها وهى ان هذه صيغ مرحلية قابلة للتعديل والتغيير للأحسن والأفضل والأثرى .. تغيير يتفق مع طموحات الانسان وتقدمه العلمى .. حتى لا يصبح الانسان فى النهاية اسير صيغ جامدة .. تكبل التطور الانسانى بالقيود والسلاسل .. ونفقد هكذا الطريق الى الحضارة والتحضر .. ويصبح النص فى النهاية اقدس من ارادة التغيير لدى الانسان .. لذلك كان حتميا ان يندرج عقد الزواج كباقى العقود تحت قاعدة العقد شريعة المتعاقدين وان يكون للطرفين وضع كافة الشرائط القانونية التى يتفقان عليها طالما انها لا تخالف النظام العام .. ومنها حق أى منهما فى فسخ العقد اذا ما تعذر استمرار علاقة الزوجية .. ان غيبة السند القانونى فى اعطاء الزوج الحق فى اعادة زوجته الىعصمته بعد طلاقها منه بارادتهالمنفردة رغم انقضاء العقد بالفسخ يدفعنا للقول ان مثل هذه العودة وهذا الاسترجاع يعنى عقدا جديدا يشوبه البطلان فى حالة عدم موافقة المطلقة على هذا الاسترجاع .. وصورة من صور الرق المقنع يأنفها المجتمع المتحضر .. ويمجها العقل لكن السؤال الذى يفرض نفسه على الساحة بقوة وشدة .. هل يعنى حصول المرأة على حقها فى الطلاق وتساويها معه فى الحقوق الخروج من كهف الظلام الذى تعيشه ؟؟ ..

ـ بالتأكيد لا .. لأن ما سردناه كان مجرد امثلة للعسف والظلم الذى تقاسيه المرأة اليوم .. لقد اصبحت المرأة وفى الشرق خاصة فى وضع يرثى لها .. فهى مسئولة عن اولادها وعن بيتها .. وعملها .. وللنتيجة الحتمية عدم قدرتها على اداء كل هذه المسئوليات الملقاة على عاتقها .. فلا هى ام مثالية ولا هى عاملة مثالية .. فكان ان تفككت الأسرة .. وضاعت خيوطها وباتت النتيجة سيئة .. مؤلمة .. حزينة .. مرثية .

ان ضرورة مساواة المراة مع الرجل ضرورة حتمية لكن المسألة مسألة وقت .. طال الوقت أم قصر ستحصل المراة على حقها فى المساواة .. هذه المساواة تشمل كافة مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .. وكل فى دائرة اختصاصه .. للرجل خارج البيت والمراة المتزوجة داخله من خلال مبدأ اساسى .. للفتاة الحق فى العمل لا قيد على حريتها فى العمل لكن اذا تزوجت فلها الحق فى الاختيار بين العمل والبيت .. لكن اذا اختارت البيت لها ان تحتفظ بكل حقوقها وميزاتها كامراة عاملة !!

وحتمية المساواة يستلزم معها ان تكون المساواة مع الرجل فى كافة الحقوق والواجبات كل فى دائرة اختصاصه .. حقوق سياسية واجتماعية واقتصادية .. حقوق كاملة غير منتقصة .. لا يحدها سوى قانون واحد فقط هو قانون الاختبار واحد فروعه المساواة ..

هذه الحقوق لن تحصل عليها المراة بالانطواء والانزواء او الاستجداء او توكيل خصمها ليناضل من اجل انتزاعها من نفسه .. فالرجل راضى تماما عن هذا الغبن والظلم .. بل هو يصلى فى محرابهما ليل نهار من خلال وعوده الكاذبة البراقة للمراة .. فالرجل لن يتخلى بسهولة عما اكسبته الأديان اياه من قوة وسطوة .. ولن يتغير مفهوم الرق القديم .. ذلك المفهوم الذى عاش واختمر داخل وجدانه منذ آلاف السنين فالرجل لن يتنازل اختيارا عن حقوق باتت جزءا من تكوين عقله وانسانيته .. الا اذا كان للمراة دور ايجابى فى تغيير هذا المفهوم البالى .. وانتزاع الحق من بين براثن الأسد وهى لن تستطيع وذلك الأمية تعشش على عقول بنائها وذلك الجهل المتفشى بحاصر امهاتها .. صاحبات « حلة المحشى » و « برطمان المخلل » « وكسرولة الملوخية » والكلمة المأثورة « مستر سيد » .

بسطاوى ينظر الى اعضاء المحكمة بدهشة واستغراب يشملنى بتلك النظرات يسألنى :

ـ قلت محشى ومخلل وملوخية .

ـ نعم يا سيد بسطاوى .

ـ ماذا تعنى يا متهم بتلك الكلمات ؟

صرخ نمرود بحـــده :

ـ انها يا سيدى شفرة الشيطان .. وقد تكون بداية مؤامرة معه يقضى فيها على الجنة . ابتســـمت « اية جنة يا غبى تلك التى تتحدث عنها ؟! اذا كانت هـــذه هى للجنـــة .. فماذا رأيت أنا فى باطن الأرض » .. عـــاد نمرود يصرخ من جـــديد :

ـ انه يبتسم سيدى الرئيس .. امنعوه .. فهـــذه الابتسامة احدى خيوط المؤامرة .. التى دبرها مع الشيطان .

بســـطاوى يحذرنى قائلا :

ـ على المتهم الامتناع عن حديث الالغاز والابتسام .

قلت فى حـــده :

ـ بل ســـــامتنع نهائيا عن للتـــلاوة حتى تعطـونى الفرصـــة كاملة دون مقاطعـــة .

رأس بسطاوى المدبب تميل الى اليمين ثم الى اليسار بعدها يعلن :

ـ على المتهم الاسترســـال فى القراءة .. وعلى النيابة عدم مقاطعته نهائيا حتى يتم قراءة كتابه الملعون .

ـ لقد تجرأ البعض وانكر وجود الله .. ولم يحدث نتيجة لذلك ان الحد كل الناس .. او ارتدوا عن دياناتهم .. بل تفجرت ينابيع للجدل .. وتفازلت البراهين والأدلة .. وسالت دماء الأقلام فى معركة الاقناع وارتوت ارض الفكر الجدباء بغيث الحجج والبراهين فانبتت زهور المعرفة .. وبدات قصة وجود الله تكتسب نتيجة ذلك الجدل ابعادا جديدة اهم ما فيها العقلانية .. وتمزق ثوب الخرافات البالى المهلهل فى تفسير كثير من الغيبيات التى مرغت العقل الانسانى فى الوحل دهورا طويلة وتوارثها الفكر حتى باتت احدى سماته وارتبطت هذه الخرافات بقضية وجود الله .. فاحاطتها بالشكوك .. وطوقتها بالتمرد .. لذلك كان من الأهمية بمكان ان نشذب فكرة وجود الله من اغصانها السرطانية بالالتجاء لمقص العقل ورفض توارث فكرة وجود الله .. وقد تسمع من رجل بسيط ما يهز وجدانك ويثير حيرتك (وماذا يهم ان اؤمن بوجود الله عن اقتناع منطقى او ميراث دينى للنتيجة واحدة) .. ويبدو هذا القول لأول وهلة صحيحا .. ولكن ما يترتب عليه من نتائج يدفعنا لرفضه !! ذلك ان الايمان بوجود الله من خلال الأديان والتى تطالب الانسان ايضا بالايمان بأمور تدخل نطاق التفكير .. وتربط قضية وجود الله بهذه الأمور ارتباط الجنين بالمشيمة والجذر بالتربة فطالما آمن الانسان بوجود الله عن طريق الأديان فعليه تقبل كل ما يتصل بوجود هذا الاله من جنة ونار وشياطين وملائكة .. وجن صالح .. وجن طالح .. وابليس ومعاونيه حتى لا يجرفه الانكار الى النار الحارقة . بعكس الايمان العقلى المجرد بوجود الله والذى يتحتم معه وجوب مناقشة كل قضية بمفردها .. ووضعها تحت ميكرسكوب المنطق .. لذلك يجب فصل قضية وجود الله عن كل ما يتصل بها قضايا .. ومناقشة كل قضية على حده اذا ما اردنا حقا الايمان بحقيقتها . من تلك القضايا .. قضية اتصال الله بالرسل .. والهامهم

المعجزات التى تميزوا بها عن ســـائر البشر فهل تعنى المعجزة اتصـــال الله بالرســـل ليلهمهم اياها .. اذا كانت الاجابة بالايجاب .. نسـينبت من برعمها رغما عنا ســـؤال آخر .. وماذا لو ادعى احد المخترعين أن الله ألهمه سر اختراعه عن طريق وسيط .. ملاك او شيطان .. او ان الله بنفسـه اسر له به .

بالقطع سننكر عليه قولته .. رغم أنه لا خـــلاف حول اعجاز أختراعه الذى انفرد به دون سائر البشر ؟!

اذن فلم هذه التفرقة الظالمة .. رسول يدعى الاتصـــال بالله ودليله معجزته فنصدقه .. وعالم على نفس نهجه ننكر معجزته !!

ثم ماذا لو ادعى احد الأدباء أن ما يكتبه من شعر أو قصة ليس سوى وحى ألهمه الله به .. هل نكذبه رغم أن ما أتى به لا يســـتطيعه غيره من سائر البشر .. معجزة انفرد بها .

الحقيقة انه لا يمكن انكار مثـــل هذه الدعاوى الباطلة وبالتالى أنكار الصلة المزعومة بين هؤلاء وبين الله بانكار معجزة العالم أو الأديب وتعريتها من ثوبها الخارق ووضعها فى مصاف الأمور التى تحدث عادة وكذلك لا يمكن المسير فى الشوط لنهايته نتيجة للعجز عن تعرية العمـــل من اعجازه بتاييد دعاويهم الاتصال بالله والتى استدلوا عليها بمعجزاتهم .. بل يجب ان يكون الفيصل فى حقيقة اتصالهم بالله هو مدى صحة هذا الاتصال .. لذلك يجب حتى نحكم على وجود مثل هذه الصلة من عدمها ان نعى امران :

اولهما : وجود المعجزة لا يعنى بالضرورة اتصال الله اتصـــالا مباشرا أو غير مباشر لتحقيقها .. ولا يعنى تدخلا سافرا من الاله لخرق الناموس .. فالمعجزة تتحقق فى غيبـــة هذه الصـــلة الافتراضـــية وبدون حاجـــة لخرق الناموس .

ثانيهما : واقعة اتصال الله بالبشر وذلك بالتحدث اليهم مباشرة او عن طريق وسيط واقعة مستقلة .. لها ذاتيتها ويجب حتى نؤمن بها ان نتثبت من حقيقة وجودها دون ان ندلل على هذا الوجود بالمعجزة التى حدثت ..

ذلك لأن الاعجـــاز الذى يأتيه البشر لا يعنى أن الله قد اتصـــل بهم وأملى عليهم معجزته .. فاذا كانت الأديان قد اعتبرت بعض الكتب معجزة وبعض القدرات كشـــفاء المرضى واتيان بعض الخوارق معجزة .. فهذا لا يعنى مع افتراضـها كذلك أن الله قد اتصـــل بهؤلاء البشر ليلهمهم اياها .. مثل هذا القول يؤدى بنا الى طريق تحفة الحيرة .. والغموض والاشـــواك .. فماذا لو ادعى احد العلماء أن اختراعه ملهمة الهمه الله أياها وماذا لو ســـار فى الطريق لنهايته وادعى النبوة طالبا من الغير أن يأتى بمثلها وماذا لو عجز هذا الغير !! هل نعترف بمثل هذا للعالم نبيا مرسلا ؟! مثل هذه الاستنتاجات تجـــرنا فى النهاية لمتاهات تضـــيع فيها ومضة للعقـــل البشرى ليتحـــول الى قطعـــة من الصـــفيح الصـــدىء .. ويتوه داخـــل اللا معقـــول .. لذلك فيجب للتثبت من صـــحق الادعاء لقيـــام مثـــل هـــذه الصـــلة المفترضة بالله أن يثبت بدءا ذى بدء حقيقة هذه الصلة .. وصحة وجودها لا أن يفرض على الانســـان الايمان بها متحاجا فى ذلك بالمعجزة المتمثلة فى الاختراع أو الاكتشاف أو ابراء الاكمة أو كلمات منظومة .. بل ويذهب إلى ابعد من ذلك فيفرض على الانســـان الولاء والايمان بأمور أخـــرى هلاميـــة لا يفهمها العقل ولا يستسيغها المنطق .. بحجة أتصال هذه الأمور ببعضها وارتباطها ارتباطا وثيقا .. مثل هذه الدعوة لهذا النمط من الايمان المفروض يترتب عليها حظر مناقشة كل قضـــية على حدة .. ووضـــع العقل فى دائرة اختيار ضيق .. فليس أمامه سوى أن يقبلها ككل او يرفضها كلها دون أن يكون له الحق فى تجزئتها .. ومناقشة كل قضية منها على حدة .. رغم أن كثير من هذه القضايا لا يمكن الايمان بها ايمانا عقلانيا نابعا من الاقتناع .. مثل هذا الارتباط الظالم يوصل الانسان لقمة عجزه .. وحتى لا نخوض فى بحر ظلمات الوهم الأزرق اللعين نضع السؤال الجوهرى .. قلب الموضوع على منضدة العمليات لنشرحه بمبضـــع الحقيقة .. هل الكتب الســـماوية من عند الله ؟؟؟؟

اذا كانت الاجابة بالايجاب فكل ماجاء بالكتب السماوية من تاليف الله .. هو المؤلف العظيم ...وما الانبياء الا مستقبلين .. ولأن الله كامل لا يخطىء .. اذن فكل ماجاء بالأديان من احكام واجبة الطاعة .. والطاعة العميا ومن ثم لا يصح ولا يجوز نقاشها .. ويجب الاخذ بها فى كل التشريعات الوضعية .. كل صغيرة وكبيرة .. ومنكرها متمرد على قانون الله وجب عقابه .. وسحقه .. هذه الأحكام كل لا يتجزأ .. وحدة واحدة واذا كان هذا كذلك .. واذا كان ما ورد بها من احكام ليست سوى قوانين املاها الله على البشر فيمتنع بالتالى على الفكر الانسانى نقدها او تشريحها انما كل ما يستطيع حيالها ان يفسرها دون الخروج على نصها .. ومن ثم فيحظر على العقل البشرى نفى تنزيل الكتب السماوية .. وبالتالى تصبح احكامها أبدية لا تغيير فيها ولا تبديل .. باعتبارها احكاما مثلى لقضايا الانسان لا تقبل للجدل والنقاش مثلها فى ذلك مثل القوانين العلمية التى رسخت قوانينها .. والسؤال الجوهرى .. الانسان اسمى المخلوقات .. اختص دون غيره من المخلوقات بميزة الاختيار .. اى حرية اختيار للبدائل .. ومن خلال هذه الميزة استطاع ان يختار افضل البدائل .. فحقق غزو الفضاء وكثيرا من الاكتشافات العلمية القائمة على قوانين ثابتة تتحكم فى مسار الكون .. خلال هذه الاكتشافات طوع الانسان العلم لخدمة اغراضه وفى تطوير اسلوب حياته .. والتغلب على مشاكله من أجل حياة افضل .. وتحقيق أكبر قدر من السعادة .. والأديان استهدفت ايضا سعادة الانسان من خلال احكام جاءت بها الكتب السماوية .. بعضها شاملا لكثير من مناحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبعض الآخر ركز على القيم الروحية .. لكن فى النهاية يبقى الهدف لكل من العلم والدين واحدا وهو سعادة الانسان فالكتب السماوية ليست سوى صيغة ارتاتها الأديان لتحقيق حياة افضل للانسان .. بمعنى اشمل هى وصلة للهمز بين الانسان وغايته .. اى انها وسيلته .. اذن فالعلم أو الدين ليسا غاية فى حد ذاتهما بل وسيلة لتحقيق الغاية وهى سعادة الانسان .. بمعنى انه لو لم يطأ الانسان الأرض لم يكن ثمة داع لرسالة الأنبياء او العلماء لان هذه الرسالة

يجب لقيامها او للبدء فى الدعوة اليها وجود الانسان الذى تصله هذه الرسالة بدون هذا الانســـان يضـــيع هدف الرســـالة ومعناها ومغزاها .. لذلك فلا يمكن والحال هكذا مهما عظم شأن هذه الرسالة ان تكون الوسيلة فى اى وقت من الأوقات اعظم واجل من الغاية وهى الانسان .. وبالتالى لا يمكن ان تكون الكتب السماوية غاية فى حد ذاتهـــا .. لأنها بذلك تفقد معناها بل وسبب استنانها بغيبة عنصر الانسان عنها .. بل وتصبح اهم واقدس من الانسان التى شرعت من أجله .. وليصبح الانسان بهذا المعنى مجرد وسيلة قطعـــة شـــطرنج على لوح الأديان .. وهـــو ما ينكره الواقع .. ويدفنـــه الحادث .. فشعوب بأكملها لا تدمن الأديان ومع ذلك لم تنهار حضارتها ولم تتقوض دعائم بنيانها .. لأن الأديان وكتبها ليست سوى وسيلة لا غاية .. ولأنها وسيلة فحسب فقد استعاضت عنها تلك الشـــعوب بالعلم فازدهرت حضارتها وتقدم انسانها . هذا معناه ان احكام الأديان ليست ســـوى قطع شطرنج على مربع الحياة يمكن فى أى وقت من الأوقات استبدالها بصيغة أكثر نضجا واتساقا مع العصر . محصـــلة القول انه اذا كان هدف أحكام الأديان فى النهاية هو الانســـان .. او ليس من حق هذا الانسان مناقشـــة بنود مايراد احتواء عقله به .. او ليس من حقه أن يبحث جدوى تطبيق مثل هذه الأحكام على مسار حياته وان يختار منها ما يناسب ظروفه وان يرفض ما عداها .. ان التطور واحد من أعمدة قوانين الكون التى يكتشفها الانسان فهل تتفق المناداة بالجمود فى احضان الأديان بأحكامها المنزلة !! والتى لايصح ولا يجوز تعديلها او تغييرها .. هل تتفق مثل هذه الدعوة مع التطور ؟!

ثم اذا كان النص الوارد فى الكتب السماوية وسيلة لاسعاد البشر من أجل حياة افضل .. او ليس للانسان وهو حقل تجارب مثل هذا النص أن يدرس ويحلل معانيه ومنطوقه وحيثياته ليعرف جدواه وصلاحيته للتطبيق حتى لو ادى الأمر لرفضه ولا ادل على صحة ذلك قضية اباحة الرق فلو انتهينا بالتسليم بهذه القضية ومثلها كثير لعنى ذلك العودة لاحضان عصور التخلف .. ودفن للعقل الجماعى والفردى فى مقبرة البدائيـــة .. بل وهدم دعامة الحرية ..

والمناداة بمشروعية ما ترفضه بل وتجرمه المجتمعات الآن .. لكل هذا يجب ان يكون للعقـــل البشرى الحق كل الحق وهو يبحث عن ســـعادة البشر ان يناقش جدوى اى نص بعد ان يتعمق معناه ويدرس ابعاده حتى يقرر صلاحيته لا فرق فى هذا بين نص وضعى وآخر سماوى ..

وبالتالى فلا يتحصن اى نص مهما بلغت قدسيته بمقولة انه سماوى « لا يقصد هنا اللون » .. لأن التخفى خلف هذه الحجة كالتخفى بقلنســوة الاخفاء ..يعتقد مرتديها أنه اختفى عن العيون رغم أنه مرئىومرصود .مثل هذا التخفى الخادع يدفع بالانسان للجاد ان يسأل السؤال الذى ســـبق ان اثرناه .. هل هـــذا النص من عند الله ام هو من تاليف البشر .. والانسان سيجد نفسه مضطرا للاجابة من هذا السؤال قبل الخوض فى بحر الظلمات اللعين ..

اولا ـــ لأن نتائج كثيرة سترتبها الاجابة من مثل هذا السؤال العويص ذلك لأنه اذا كانت بالايجاب فعلى الانسانيـــة جمعاء الالتزام بكل كلمـــة وحرف .. واذا كانت بالسلب فللانسان حريته الكاملة فى رفضها كاسلوب للحياة أو قبولها .. لا قيد على حريته الا ما يمليه عليه عقل المجتمع ..

ثانيا ـــ ان مناقشة قضية تنزيل الكتب الســـماوية بالتحليل والراى الدارس باتت ملحة بعد ان اغلقت على العقل الجماعى النوافذ واوصدت دونه الأبواب ولم يعد ثمة وسيلة لتنقية الهواء الفاسد سوى ثغرة نطل منها على الحقيقة خلف جدار الخوف ..

ثالثا ـــ ان فتح تلك الثغرة بمعول الجدل والنقاش من شانه ان يثرى الحركة الفكرية برأيان متعارضـان يطرقان الحديد وهو ســـاخن .. يطرحان ابعاد القضـــية وادق تفاصـــيلها على بساط البحث .. يشرحان جســـدها المنهوك .. لتتبين فى النهاية اس الداء .. ولنبتر بمبضـــع الحقيقة الآثمة الشريرة .. فمن المرض الى الشفاء .. ومن الشك الى اليقين .. سواء كان هذا اليقين مع او ضد الراى القائل بالتنزيل وننتهىبهذا الى ثورة فكرية .. ريح صرصر عاتى تسقط كثيرا من أوراق الخريف المتمثلة فى الخرافات التى عاشت قرونا تلوث طهارة العقل الجماعى .. يد عفية تزيح عن كاهل الحقيقة

المستغلة رداء الوهم الذى وصل فى بعض الأحايين الى حد اليقين .. واكتسب من كثرة ترديدها والخشية من معارضتها حصانة التسليم .. ان الخوف الذى عشش على الفكر الجماعى بانسجته العنكبوتية والذى دعمه الاتهام المشرع بالردة والكفر والالحاد والتهديد باهدار الدم هذا الخوف دفع الفكر الجماعى الى الارتماء فى احابيل الخرافات .. او للوقوف موقف المتفرج مصمصما الشفاة عاجزا .. ساخطا حتى على نفسه .. وللنتيجة اظلام الجانب المضىء منه .. فمن من هؤلاء المفكرين يملك شجاعة المواجهة ولا يخاف اهدار دمه على احدى النواصى ؟!

ـ نعود بعد هذه الاستطرادة الى سؤالنا الخطير .. المجازفة الكبرى هل الكتب السماوية منزلة من عند الله ؟! ..

لا يختلف احد على أن هذه الكتب كانت وستبقى دستورا لشرائع قامت على صحائفها حضارات عريقة مازالت اعلام بعضها ترفرف حتى الآن .. لكن امام الباحث لمناقشة هذه القضية شرك هائل وضعه بعض رجال الدين المتحذلقين ..والمتعصبون الذين يحورون صدق الكلمة والتعبير عنها الى الحاد وكفر .. رغم ذلك فليس امام الباحث الدارس طالما قد ارتأى التصدى لمثل هذه القضية الشائكة ليس امامه سوى ان يطرحها بكل ابعادها .. يعريها بالصدق .. ويشرحها بمبضع الحقيقة ليكشف مكنونها للعقل البشرى من خلال الايمان فانه لا يوجد قضية فى الوجود مهما بلغت قدسيتها يحظر على العقل البشرى مناقشتها لأنه اذا كنا قد فتحنا الباب على مصراعيه أمام قضية وجود الله فما بالك بما هو ادنى .. لذلك وحتى يثمر الحوار ثمرته المرجوة علينا أن نبدأ بالأمور التى لا يختلف حول صحتها أحد :

اولا ـ الاختيار يكفل للانسان الحرية فى اختيار معتقده ومناقشة امور العامة منها والخاصة سياسية كانت او دينية .. اقتصادية او اجتماعية .. انسانية او علمية .. فردية او جماعية .. بحيث اذا امتنع عليه مباشرة اى من هذه الحقوق المكفولة له تحت اية حجة مهما عظم شانها وجل مقامها فقد اهدرنا حقه فى الاختيار الذى كفله له وجوده الانسانى ..

وبالتالى فلا اجبار على اعتناق دين او المنـــاداة بمذهب او الادلاء برأى .. فالارادة التى يشوبها الاجبار أو الاكراه ارادة منعدمة لا وجود لها .

ثانيا ــ اعتناق دين أو مذهب معين مبدأ يقرره الاختيار الفـــردى .. والعمل بشريعة ما أو تحت ظلال قانون معين لمجتمـــع ما مبدأ يقرره الاختيار الجماعى من خلال قاعدة الأغلبية والتزام الأقلية بقرارالاغلبيـــة .. اذن فلا عجب أن يختلف الاختيار الفردى من واحد لآخر .. والجماعى من مجتمع الى آخر فما قد يراه أحد المجتمعات خطأ قد يراه الآخر صـــوابا .. لهـــذا فلا عجب أن نرى هذا الاختلاف الواضح فى بنيان الأنظمة الاجتماعيـــة التى تحكم المجتمعات وكذا بين الأفراد داخل البنيان الاجتماعى الواحد .

ثالثا ــ شرائع الأديان اصبحت الآن وفى اغلبها كســـيحة عن ملاحقة التطور المذهل للبشرية .. وقد فطنت كثير من المجتمعات الى هذا المفهـــوم فجاءت شرائعها خلوا من أحكام كثيرة نادت بها تلك الأديان وهذا هو حقها النابع من الاختيار الجماعى .

رابعا ــ الانسـان فى حقيقة الأمر حالة اجتماعية داخل الفصيلة الواحدة ولكل حالة قدراتها وامكانياتها التى تميزها عن الحالات الأخـــرى من خلال حركتها داخل قانون عام ينتظمها ..والعباقرة ليسـوا بخوارق.. لأنهم كباقى البشر يعبرون كل فى نطاقه عن حاله ليســـت فى واقع الأمر ســـوى ترجمة لقدراته الخاصـــة والتى تميز بها عن غيره .. يســـتوى فى ذلك العالم .. الأديب .. المصـــلح .. المخترع .. النبى كلهم خوارق لكن فى اذهاننا فقط أما الواقع فهم كسائر البشر يطبق عليهم قانون الله بمساواة مطلقة من خلال قانون خاص لكل حالة على حـــدة والتفرقة ناتجه عن اختلاف كل حالة عن الأخرى داخل اطار القانون العام الذى لم يترك صغيرة او كبيرة الا ونظم لها قانون حركتها .

خامسا ــ ايمان الرســـل بان الله قد اختارهم لحمل الرســـالة دعمه وثبته اعتناق الناس لتلك الرسالات بل لقد اصـــبح ايمانهم هو المعبر بين تردد الرسل فى الافصاح باتصـــالهم بالله وبين اعتقادهم الكامل بوجود هذه

الصـــلة .. هذا الايمان هو الذى هز ما بقى من ثمار الشـــك على شـــجرة اليقين .. لكن الذى لا جدال حوله انه لم يتم حديثا ماديا بين الله وبين اى انسان من خلال تساؤلات عدة ..

ـــ كيف كان حديث الله .. صوت له ذبذبات لم الهام صـــامت كالهام الكتـــاب والشـــعراء .. واذا كان الحـــديث بصـــوت .. فكيف بهـــذا الصوت ؟ .. وكيف بالقائه ؟ .. وباى لغة ؟ .. ومن تلقاه .. الاله .. لم احد اتباعه من الملائكة يسمعه المتلقى دون غيره .. يتلقاه بأذن اليكترونية خصه الله بها يفهم الاشارات الخفية ليترجمها على الفور من اللغـــة الالهية الى اللغة التى يتداولها مجتمعه .. بل وفى قدرته ايضا ان يرى ما يعجز البشر عن رؤيته الملائكة .. والشياطين .. والجن . مثل هذه الصور لا تستقيم الا مع لمرضين احدهما .. ان يكون للانسان الرائى عين تليفزيونية تســـتطيع حدقتها تلقى صـــور العوالم الخفية دون غـــيره من المحيطين وثانيهما .. ان تكون الرؤية رؤيا تخيلية ليس للعين فيها دور يذكر من خلال تخيلات او احلام يقظـــة . ان القانون الذى ينظم كافة المخلـــوقات قانون كامل متكامل .. له فروعه الكثـــيرة التى لم يلم بها ككل اى انســان بعد .. بل ان الانســان فى صورة عالم او مخترع او فنان لم يكتشف من هذه القوانين سوى ذرة صغيرة فى محيط هذا الكون .. ومازال حتى الآن يتعثر لاكتشـاف فروع هذا القانون فى صورة مخترعات ليست فى الحقيقة سوى اكتشـاف لقانون قائم ..

ولو نظرنا الى الرســل وما قدموه للانسانيـــة نجد انه من الظلم ان نقيمهم بمقاييسنا .. فقد اســـتطاعوا اثراء الحياة الانسانية فى بعض حقبـــات التاريخ .. ولكن بقدر ما اســـتفادته البشرية من تطبيق ما نادوا به بقـــدر ما اضـــيرت نتيجة فترات الركود الانسانى التى مرت بها المجتمعات .. ففى عصر النهضة كانت المجتمعات شرنقة للدين من خلال سيطرة رجال الدين .. الى أن خلـــع الفكر تلك الشرنقـــة ومزقها ليدب فيه الحيـــاة بآراء المفكرين والفلاســـفة والعلماء .. وتقدم بعض البـــلاد التى تعتنق الأديان فى بعض حقبات التاريخ .. ليس مرده للدين فى حد ذاته او الاستمســـاك باحكامه بل لسيه نظام الحكم والقائمين عليه ورغبة الحاكم فى الاصلاح وتقويض اركان

الفساد والافساد نعود بعد هذا لسؤالنا .. هل الكتب السماوية من كلام الله ؟! لو اعملنا العقل والفكر لوجدنا ان للكتب السماوية ركزت جل اهتمامها على الحلال والحرام فى صورة آيات متفرقات تربطها فكرة الاثابة والعقاب لكنها لم تكون نظرية محددة .. انما أحكام متناثرة متفرقة من خلال اوامر ونواهى وتعريف بقصص الأولين .. جاءت بعبارات عامة غير محددة .. وبكلمات مبهمة .. تهويمية .. وبوقائع يقف العقل البشرى عاجزا امام معانيها .. الغرابة ما تسرده .. بل تحول العقل الانسانى الى اكلة شهية تلتهمها الخرافات والخزعبلات .. فالعالم الخفى الذى يعيش وراء ظهرانينا والمتمثل فى الملائكة والجن والشياطين وملكهم العظيم ابليس لم تقدم لنا الصحائف الدينية دليلا على صحة وجودهم الا ما سطر .. ولم يثبت بالعلم او نظرياته على مدى القرون الطويلة وجود مثل هذه الأشكال الغريبة .. ولم يحدثنا أحد عن شكل هذه المخلوقات الا ماورد من أوصاف مادية .. فالجن من نار والملائكة من نور .. هذه الأوصاف المادية التى وصفت بها هذه المخلوقات تثبت بما لا يدع مجالا للشك خطل القول بوجودها .. فالجن مخلوقات من نار .. والنار مادة والمادة يمكن رؤيتها والاحساس بها حتى ولو كان مصدرها خافيا علينا .. اذا كان هذا كذلك فلماذا لا نرى تلك المخلوقات ؟! ثم لماذا لا نستشعر لفح حرارتها اذا تعذر علينا رؤية مصدرها !! والسؤال أين تقطن تلك المخلوقات .. هل هى تعيش بيننا .. أم ان لها كما قيل فى سالف العصور تحت الأرض مملكة تقطنها وتمارس فيها حياتها من زواج وتناسل وطعام وشراب وعمل . ان العجز البشرى فى الاجابة عن مثل هذه الاسئلة الصعبة باقناع واقتناع .. وايراد الأدلة والبراهين العقلية يدفعنا الى الشك فى وجود مثل هذه المخلوقات الغريبة خاصة وان الكتب أحجمت عن وصف هذه الشياطين اشكالها واحجامها وابعادها .. هل هى لسان من لهب ام انها نار فى شكل انسان ام فى شكل حيوان العصور المتقدمة كالتنين .. أم ماذا ؟! ..

ثم الملائكة التى هى من النور .. واذا كان السؤال كيف هى ؟! .. نور الشمس ام المصباح الكهربائى أم مصباح الزيت ؟! .. فاين هى الاجابة ؟!

ثم كيف باشكال هذه المخلوقات النورانية .. طويلة .. مستطيلة .. شـــماع مقرطع ام طيور .. وهذا الوصـــف الأخـير هو ما درجت بعض الصحائف على وصفها به .. ولماذا على هيئـــة طيور ؟! حتى تتمكن من التحليق فى الجو .. لأنه لم يكن احد ليتصور فى العصور المتقدمة ان فى قدرة مخلـوق التحليق الا اذا كان بجناحين .. لذلك فلم يكن امامهم ســـوى هذا التصوير المادى الذى صور الملائكة على هيئة طيـــور بجناحين او ســـتمائة جناح مرصعة بالجواهر..رغم أن زينتها بتلك للجواهريستلزم معها ماديتها بل ويعوقها عن الطيران .. والأدهى من ذلك ان نجد فى من يعتنق مثل هذه الأفكار التهويمية بل ويؤمن بها ايمانا راســـخا كالايمان بالصاروخ والقمر الصناعى بل ويزيد عليها القـــول بأن الشـــياطين والملائكة لها القدرة على التشكل الى حيوانات وطيور وافاعى (بل وتصدر بها احكام قضائيـــة) .. محنة واى محنة ان يعيش الناس مثل هذه الأفكار وان يتداولها لأنهـــا تعنى الموات الفكرى .. وابليس هذا المتمرد على الاله والذى رفض السجود لآدم وتركه الاله طليقا عابثا فى مقادير الناس يوســـوس لهم الشر ولمن ؟! لمئات الملايين من البشر وفى وقت واحد .. نقول مثل هـــذه الخزعبلات ونعتنقها ولنهدر دم الحقيقة الرابضة على مدخل التحليل العلمى العلمى للغرائز البشرية من خلال علم الاجتماع وعلم النفس وفروع علم الانسان المختلفة التى ليس من بينها هذا الابليس الملعـــون الذى يوســـوس للناس ولكن هل يعنى عدم صدق تلك القضايا وعدم اتساقها مع العقل هل يعنى هذا انكار تنزيل الكتب السماوية ؟! بالقطع لا .. أذن فالاجابة بد لم يكتمل .. نضطر معها الى اثارة سؤالنا القديم هل الكتب السماوية من عند الله ؟ ..

اولا ــ الاســـتدلال بنص ورد فى واحد من الصـــحف الدينية لاثبات تنزيلها من لدن الله ليس دليلا قاطعا لا يقبل الجدل لأنه اذا كان الدارس اصلا يبحث فى صـــحة تنزيل الكتاب برمته من عند الله فكيف تلزمه بقبـــول احد نصوص هذا الكتاب حجة يحسم بها القضية لصالح القائل بتنزيله .. بمعنى آخر اذا كان الباحث ينكر اصلا تنزيل هذا الكتاب ككل .. فكيف نحتج عليه بنص ورد فيه بقبول بتنزيله !! ..

ثانيا ــ وسائل الاتصال بين الخالق والرســل والتى قيل انها كانت تتم مباشرة بالكلام أو عن طريق وسيط اثناء اليقظة أو اثناء النوم عن طريق الاحلام مثل هذه الوسائل مشكوك فيها .. ولا يمكن ان تؤدى بنا الى حقائق يقينيه .. ذلك لأن ميلاد الحقيقة اليقينية يستلزم معها ادلة علمية أو عقلانية وهوما نفتقده فى تلك الوسائل ..

ثالثا ــ التجاج بالمعجزات فى الكتب الدينية لاثبات تنزيلها من عند الله لم يعد حجة حاسمة لا تقبل الجــدل فلا يعنى وجود المعجزة « على فرض كونها كذلك» اتصال الله بالرسل لتحقيقها ..ذلك ان ربط المعجزة بالاتصال ربط ظالم لأن وجود المعجزة لا تعنى الاتصال .. وان كان تمام الاتصــال يحمل معنى المعجزة .. وطالما اننا عجزنا عن اثبات تلك الصلة فلا يجوز أن نحتاج بالمعجزة التى يمكن ان تحدث فى غياب تلك الصــلة فالداعر القسيس راسبوتين حقق معجزة الشفاء لكنه لم يدع النبوة او الصلة بالله ودستور بوذا لم يدع صــاحبه انه كتاب موحى اليه به رغم انه ضــمنه كل تعاليم الأديان .. ومعجزات العلم والنظريات والمخترعات .. لم يدع اصــحابها بوجوده هذه الصــلة المزعومة رغم اعجازها .. فضــلا عن ذلك فقد فقدت المعجزات التى نعت على ايدى الرسل رونقها وبريقها الخاطف للابصار .. ذلك القزم الذى يقف امام عمالقة العلم يستعطفه ويستجديه .. فأين مكان انفجار هورشيما من طوفان نوح وأين زرع القلب والمخ والاعصــاب من معجزة شفاء المرضى .. وأين الصعود للقمر من بلاغة النص .. « ياناس اختشــو » ..

رابعا ــ التضارب فى الأحكام التى اتت بها صــحائف الأديان يدفع الباحث للتســاؤل .. اذا كان الله واحــدا فى الأديان جميعها .. فلماذا هذا الاختلاف الصارخ بين نصــوص هو الذى قام على تأليفها .. ولماذا التثليث والوحدانية فى نفس الوقت .. كيف يصــبح الزواج بأكثر من واحدة زنا .. وكيف يباح فى نفس الوقت .. كيف يصــبح الطلاق محرما ومحللا فى وقت واحد .. كيف تؤدى العبادات بأســلوب يختلف من عقيدة لأخــرى .. ما الحكمة ان يتناقض الاله مع نفسه وهو يملى تلك الأحكام .. وهو القادر

اساسا على اعطاء الحكم الأمثل ؟! فهل مرد هذا الاختلاف والتباين فى الأحكام تعدد الآلهه أم سببه اختلاف مناهج قائلية من البشر ؟؟

خامسا ــ الله قانون كامل .. فكيف يحتوى قاموســه على كثــير من الأفكار الخاطئة والتى نســخت بغيرها بمقولة امكان تناســبها مع الظروف الجديدة .. افليست هذه حجة يمكن ان نســوقها الآن لاســتبدال الأحكام الكائنة بأحكام جديدة تناســب العصر ؟؟ ثم اذا كانت الأفكار المنســوخة بغيرها .. افكارا ناقصة فهل من المتصور أن تكون احكاما كاملة ثابتة فى قانون الله ام أن الحقيقة تكمن فى البشر الذين قاموا على تاليفها .. وبالتالى تصبح احكاما قابلة للخطا والصــواب .. قابل للتعــديل والتغير وهذا ما يؤيده الحادث وما يؤثره المنطق ..

سادسا ــ كيف يمكن لعقل دارس تصديق أن قاموس الاله يحتوى كل هــذه الخرافات المدونة دون أن ينكفأ مرات ومرات الى أن يعتريه الهــزال والسأم .. والخلل العقلى .. والاضطراب الذهنى .. هل يمكن أن يصدق ان الله يأمر رسوله بالبحث عن بقرة لها اوصــافا معينة ليذبحها ثم يأخذ منها جزءا يضرب بها ميت ليستيقظ ويشهد على من قتله ثم يموت من جديد او أن بحرا ينشق ليســير فيه القــوم حتى اذا ما نجوا انطبق البحر على الكفره !! او الصاعقة التى اخذت قوم نبى ليتم بعثهم من جديد .. الأمثلة كثيرة تؤدى للعقل الر قمة عجزه . البعض يتحدث عن نظــريات الفضــاء والبعض الآخر مازال يبحث عن نظريات الأديان ..

سابعا ــ ما اوردناه لا يعنى رفض المعجزة فالمعجزة لابد وأن يكون لها اساس علمى .. ترتبط بنظرية كونية او انسانيــة ولا تأتى من فراغ لذلك فالخوارق مرفوضة .. الا اذا كان لها قانون لأن الخوارق بدون قانون تعنى الفوضى .. واذا ما اعتبرنا ما اتاه الرسل خوارق ينتظمها قانون .. فلماذا توقفت لماذا لم تتكرر ؟! واذا قلنا انها خــوارق لا تتكرر ولا ينتظمها قانون فهى الفوضى اذن التى يعف عنها قانون الاله .

وفى النهاية .. الله كقضية عقلية .. كامل متكامل قانون الكون والحياة القانون الأمثل .. ولهذا لا يمكن أن يضـــم مثل هذا القانمن الأمثل احكاما معيبة او ناقصـــة فاذا كان الله كاملا .. فكل قوانينه كاملة وكل القـــوانين التى يكتشفها الانسان من صنعه هو .. لأنها قوانين كاملة .. واذا كان هذا هو نهاية مطاف الحديث .. واذا كنا قد انتهينا ايضا الى ان كثير من الأحكام والقضايا والأقوال التى اثارتها الأديان خاطئة او ناقصـــة او لا عقلانية .. فكيف يمكن أن نعزوها الى قانونه الكامل .. فكيف بالكامل ينادى بالناقص او للخطأ ؟!

اذا كنا نرفض للجنة والنار .. واذا كان الحديث عنهما تماما كاحاديث الخرافات .. التنين الذى ينفث نارا والوحش الخرافى الذى يضرب بقبضـة يده عمارة فيحيلها انقاضـا والثعبان الضخم الذى يبتلع مدينة بأسرها .. اذا كنا ننكر الجنة والنار .. فما هو اذن جـزاء من يفعل الشر خاصـــة اذا لم ينله عقاب القانون الوضعى ؟!

قاعدة الاثابة والعقاب ليست سوى قاعدة تاريخية قديمة القى ببذرتها للعقيـــة عقل كهنة المجتمـــع القديم فى ارض الفكر الجدباء نتيجة عجزها عن استنباط نوع جيد من البذور يتحمل العطش وندرة الماء وقســـوة التربة .. ايضا بسبب عجزها عن استنان قاعدة انسانية بموجبها يتحقق التوازن بين اتلات الفرد من العقوبة الدنيوية وبين ضرورة مجازاته على ما أرتكب من افعال تجرمها الأخلاق السائدة فى المجتمع آنذاك .. نتيجة هذا العجز لم يجد العقل البشرى امامه سوى المناداة بأن المخطىء سينال جزاءه حتما فى الدار الآخرة اذا ما افلت من العقوبة الدنيوية .. وانتقلت بهـــذا فكرة العقوبة من ارض الواقع الى سماء الغيبيات .. والتهويمات .. هذا التحديث والتحوير الذكى لم يكن وليد الصـــدفة بل هو نتاج تاريخ طويل قام فيه الكهان بغرس بذور فكرة العقاب الأخروى تدعيما لقوتهم وســـلطانهم .. واقترنت فكرة العقاب بالاثابة ايضا فمن يعـــمل شرا ســـيجنى فى الآخرة شرا .. ومن يعمل خيرا سيحصـــد مثله ..

واســـتطاع الحكام والاشراف تلك الفكرة الذكية لوضع قانون ظالم فى ثوب قانون عادل فالمجرم الذى لم ينله القانون مآله النار خالدا فيها أبدا .. والمظلوم الذى عجز عن الحصول على حقه مصيره الجنة .. قانون ظالم لأنه يعنى اســـتســـلام المظلومين للقهر املا فى جنة موعودة .. وعقاب اخروى لن ينفلت منه الظالم .. الظلم واقع ملموس .. والعدل وهم فى خلود . من

هذا المنطلق بدا الاستسلام ينصب شراكه على العقول املا في الجنة الموعودة وكانت القـــدرية أولى ثمار هذا الاستســـلام .. الذى انتهى الى امتطـاء الأشراف والأثرياء ظهور الفقراء بالقوة والسلطة والســـوط بدعوى أن هؤلاء الأشراف والأثرياء الذين عاثوا فى الارض فســـادا ولم يردعهم قانـــون أو اخلاق .. وتحصنوا من عقاب الدنيا .. هؤلاء ســـيحيق بهم العذاب الأكبر يوم القيامة الموعود وتحصـــولت قاعدة الاثابة والعقاب هذه على يد الكهنة ورجال الدين فوضعوا لها الحواشى والهوامش وكان أن تشوشت الرؤيا .. وضـاع مفهوم العقاب وفلســفته . أن فلسفة العقاب الجنيـــوى تعتمد على عنصرين :

أولهما : عقاب الجانى لردعه وثانيهما : تحذير الغـــير من ارتكاب نفس الفعل المجرم .. العقاب هنا يعنى الانتقام من الجانى وبالنسبة للغير يعنى الوقاية . قاعـــدة العقاب هذه قديمة قـــدم الانســـان أخذت بها المجتمعات المتخلفة والمتحضرة لدرجة أنه لا يخلو تشريع وضعى من قانون للعقوبات .. ورغم أن هذه المجتمعات تعتبر هذه القاعدة ضرورة لا تســـتقيم بدونها حياة المجتمع الا أنها فى الواقع قاعدة متخلفة غير حضارية توارثتها المجتمعات دون أن تبحث جدواها واهميتها فى تطـور هذه المجتمعات .. عملة رديئة احـــد وجهيها يمثل الانتقام بكل معانيه .. قديما للسارق تقطع يده والعاشق يرجم والقاتل يقتل .. وحديثا الاعدام والســـجن والحبس والغرامة .. والوجه الثانى يرى فيه الغير قوة الردع التىتمنعه من الاتيان بأى فعل يجرمه القانون هذه القاعدة بوجهيها باتت قاصرة عن اســـتيعاب النظرية الحديثـــة التى يجب أن تسود المجتمعات .. تلك النظـــرية التى تنظر الى المجـــرم كمريض يجب علاجه لا عقابه من خلال نقاش مستفيض حـــول قاعدة الاثابة والعقاب وجدواها فى تطوير المجتمعات ، وكذا امكانية الاســـتغناء عنها لقاعدة العلاج وحتى يتسنى ذلك علينا استرجاع كافة انواع الجرائم والتى يمكن تقسيمها الى نوعين جرائم جماعية واخرى فردية .. الجماعيـــة وتتمثل فى الحروب التى تستبيحها المجتمعـــات بل وتعدها بكل امكانيات التدمير من رجال وعتاد وعلم وتكنولوجيا .. المنتصر فيها بطل والقاتل شجاع والمنهزم مجرم حرب

والقتيل شهيد فى احدى الكفتين .. كافر فى الأخـــرى ولا تدرى لمن أعدت نار الآخرة الموقدة هل للمنتصر أم للمنهزم !! أم لهما معا .. وليس تاريخ الحرب ببعيد .. فقد حوكم البعض أو على الأصح من تبقى منهم كمجرمى حرب .. والسؤال ماذا لو كانوا هم المنتصرون ؟! بالتأكيد كانوا سيضـــعون قادة اعدائهم داخل نفس قفص الاتهام ثم قنبلة هيروشـــيما ونجازاكى التى قتلت وشردت مئات الآلاف من المدنيين .. من هو القاتل ؟!

القاتل هو البطل الذى زينوا صدره بالأوسمة !! فاين مكان مثل هـــذا البطل بعد ذلك فى الآخرة .. الجنـــة .. أم النار ؟! .. ان للتاريخ بشـــقيه الحديث والقديم شاهد أمين على حروب ومذابح اريقت فيها دماء الملايين وضاع فيها الحق الا حق المنتصر .. انطوت فيها أعلام ومبادىء وحضـــارات .. الا اعـــلام المنتصر .. فَاقتتال طوائف البشر بعقائدهم المختلفـــة وديانتهم المتعـــددة .. أى طائفـــة منهم كانت على حق .. وأى منها على باطل . من المخطىء ؟. ومن المصيب ؟. لمن اعدت النار التى وقودها الناس والحجارة ؟ ولمن ستفتح للجنة ابوابها المرصعة بالاحلام والمغريات ؟! كل طائفة مستمسكة برايهاَ تدافع عن حقهـــا .. تلقى بحججها .. وفى النهاية الغلبة للأقـــوى .. والحق تصونه القوة .. والاقناع يحصنه الانتصار .. وعلى المستسلم قبول حجج الطرف الآخر وشروطه .. وتبقى الحقيقـــة فى النهاية تائهـــة .. فتاة مخجبة لا ترى حتى عينيـــا .. اذا تمزق قناعهـــا أبصرت قبح محياها .. وابتسامة ساخرة من شفتيها .. فخلف الحجاب لم يك جمالا أخاذا وسخرا لا يقاوم .. بل الحقيقة .. حقيقة الصراع الدائر فوق حلبة الحياة من خلال مذهب او مبدا يقينى او فكرة او مصلحة لانه بدون حقيقة هذا الصراع نصبح غرباء على ارض مجهولة رست على احدى شواطئها المهجورة سفينة أبحرت بلا بحار .. بلا بوصله . شاطىء غريب تطاه الأقدام لأول مرة ..وتصبح فكرة الجنة والنار اشبه بتلك الارض التى لم نكتشف بعد وهادها او جبالها او كهوف الاخطار المحدقة بها .. بل ويشت الخيال حول اوصافها وتختلف الآراء حول مفهومها .. وتخرس اصوات المنادين بها .. وتتســـاقط دموع التسبية لتخمد نارها .. وتسقى اشجار جنتها فتذبل اوراقها .. ولا يتبقى

فى النهاية سوى وجهة نظر . . وجهة نظر كل طرف فى ضحاياه الذين قدمهم على مذبح الحرب . . فقتلى طائفة يدخلهم نبيهم للجنة مع الشهداء والأبرار . . وقتلى طائفة اخرى شهداء فى جنة عرضها السموات والأرض « هل نمى العلم احد وجود مربع او مستطيل او شكل هندسى بعرض دون طول ؟! » .

وفئة ثالثة تنعم بالملذات الروحانية فى جنة وارفة الظلال . . أما هؤلاء الذين لم تصلهم الرسالات . . فمكانهم بعد الموت مجهول . . لا الجنة ولا النار مثواهم وفى النهاية يصبح دخول الجنة والنار مرده الى راى كل فريق حول اشلاء قتلاه . . متقمصين بهذا ارادة الله . . وكل فريق يستشهد على صحة رايه بآيات بينات من كتبه المحكمات . . ولكن يبقى فى النهاية راى الاله مجهولا حول مصير هؤلاء القتلى . . الجنة أم النار لمن من هؤلاء يؤيده الله فى صف من يقف ويشجع ويؤيد ؟! من ينصف من هذه الشيع المتبعثرة . . ومن يؤيد من هذه الفصائل المتناثرة . . هذه الأسئلة يجيب عليها كل طرف لصالحه . . « بأنا الحق » وهكذا تضيع الحقيقة . . وتصبح وهما فكل يدلى برايه لصالحه . . دون ان نعرف على وجه اليقين أين مكان الله من هؤلاء ولا لأى من الأفرقة ينحاز !! . .

واذا ما تركنا هذه الجرائم الجماعية التى لا يحاسب مرتكبيها فى الغالب الأعم الى الجرائم الفردية كالقتل والسرقة والنصب والاحتيال والاغتصاب نجد ان قاعدة العقاب الدنيوية تطبق بحزم وتتلازم معها قاعدة العقاب الأخروى هذا طبعا لمن يؤمن بالأديان . . أى أن القاتل يحاسب فى الدنيا والآخرة بشرط ان تثقل موازينه فتصبح امه هاوية !! . .

وما يعنى الانسان هنا هو الارتباط الوثيق بين القانون الجزائى الوضعى والقانون الجزائى الأخروى . . فكل جرم يعاقب عليه القانون الوضعى يتم داخل نطاق القانون الأخروى . . ولكن ليس كل تجريم أخروى يدخل ضمن جرائم القانون الوضعى . . بل هو اعم واشمل فمثلا السارق يجرم فعله القانون الوضعى وايضا السماوى . . لكن النميمة جريمة سماوية فقط !! سبب هذا الارتباط بين القانون الجزائى الوضعى والقانون

السماوى هو الخشية من طول الفوضى اذا لم يقم الله بمحاسبة الخطائين عن الجرائم التى لا يجرمها القانون الوضعى او تلك التى يفلت منها المجرم حتى مع تجريمها .. هذا الارتباط الوثيق وهذه الخشـــية هى التى دفعت الكثيرين لاعتناق فكرة الجنة والنار .. فبدونها تحل الفـــوضى .. ويأتى الناس خفية كل الموبقات .. وبالتالى ستتحلل انسجة وخلايا المجتمعات فى غيبة مصل الردع الذى يحصـــن ضـــد كل الأمراض بمعنى آخر اذا انتفى العقاب بشقيه الدنيوى والأخروى حلت الفوضى .. وعم الفساد ..

هذا المفهوم الساذج يحمل فى داخله بذور الشك ذلك ان سيطرة فكرة العقاب الالهى على وجدان بعض المجتمعـــات ليس هو بالضرورة ســـبب نهضتها بل بالعكس قد يصبح احد أسباب تخلفها .. كما لا يعنى انحسار موج العقاب الالهى عن فكر المجتمع تخلفه او ابتعاده عن ركب الحضارة بل قد تزدهر مثل هـــذه المجتمعات فى غيبة فكرة العقاب الأخرى .. والأمثلة عديدة ومتنوعة .. فبعض المجتمعات يمسك بالنواجز على صـــيغ الاديان ولكن أين مكانه فى هرم الحضـــارة والتحضر مع مجتمعـــات اخرى لا تعرف قواميســـها كلمة الله ولا تعى معنى الآخرة .. انها فى اســـفل ســـافلين !! اذن فليس الايمـــان بوجـــود الله او بقاعـــدة العقـــاب الأخـــرى سبب بعث الحضارات او ارتقاء الأمم .. فالحضـــارة والتحضر اساسها العمل والايمان به .. واستلهام قيما ومبادىء والعمـــل على اساسها .. اما الايمان بوجود الله والجنة والنار فقط دون الايمان بالعمـــل ثم التباكى على أسوار الماضى فجســـيلتها السراب .. واذا انتقلنا الى فكرة العقاب الدنيوية .. نجد انها فكرة متخلفة .. عملة رديئة كما ســـبق أن قلنا احد وجهيها الانتقام والثانى الردع يمكن اســـتبدالها فى المجتمعـــات المتحضرة والتى تقدر فيها الجريمة بنظام العلاج .. فالمجرم ليس سوى انسان مريض دفعه مرضه لارتكاب جريمة مكانه مصح يعالج فيه وليس سجنا باسوار او تصفية جسدية .. يســـتوى فى ذلك القاتل .. السارق .. المغتصب .. المرتشى .. فالكل امام قانون العلاج ســـواء .. ولكن يبقى الســـؤال هل نكافىء الجانى بعلاجه ونترك المجنى عليه او من اصـــابة الضرر .. الاجابة

معروفة مقدما .. نعالج الجانى ونعوض المجنى عليه عما اصـــابه من ضرر وعلى هذا يمكن حصر نتائج الفعل المجرم فى :

١ ــ عــلاج الجانى ..

٢ ــ تعويض المضرور ..

بهذه النتائج يمكن أن نحقق التوازن بين الجريمة واثرها .. بعد ان ناصلها بقاعدة الاختيار كيف ؟! حرية الانســـان مكفولة ومشروطة بعــدم الاضرار بالغير .. فاذا ما حدث الضرر نتيجة اتيان فعل حتى ولو لم يكون عناصر جريمة ينص عليها قانون العقوبات .. حكم على الفاعل بالتعويض ثم بالعـــلاج اذا ثبت مرضـــــه .. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك ؟! ان تطبيق مثل تلك القاعدة يحتاج كما سبق ان اشرنا الى مجتمعـــات متحضرة تندر فيها الجريمـــة .. وتطبق فيها قاعـــدة العـــلاج تدريجيا .. فننتقـــل فيها من العقاب الى العقاب ممزوجا بالعلاج ثم الى العلاج بحيث يصـــبح فى النهاية القاعدة الأولى بالاتباع .

ـــ السؤال الذى يحاصر الانسان الواعى .. هل يوجد خير مطلق وشر مطلق .. للاجابة على مثل هذا السؤال علينا أن نتصفح صـــحائف التاريخ منذ أن وطىء الانسان الأرض .. لقد كان مفهوم الخير والشر مرتبط آنذاك بالعقلية الســـائدة .. تلك العقلية التى ارتبطت بغريزة حب البقاء والتى سيطرت على افعال الانسان وردود افعاله .. لذلك فلم يكن الانسان البدائى يعرف ذرة مما تختزنه البشرية الآن من قيم ومبادىء ومثل فى بتوك عقولهـــا والتى احتاجت البشرية لصـــــهرها وبلورتهـــا لآلاف بل ملايين السنين ، لذلك فلم يكن مســـتبعدا أن تكون الأم فى أحـدى حقبات التاريخ كما كانت الأخت رفيقة الأبن فى فراشـــه تنجب منه .. كما تفعـل بعض فصائل الحيوان .. والتحريم اللاحق لمثل هذه العلاقة بين الأم وابنها أو الأخت واخيها لم تصل اليه المجتمعات الا بعد تطور بطىء وعميق فى الفكر الانسانى حول معنى الخير والشر .. المباح والمحظور .. تطور يستهدف فى النهاية سعادة الانسان وتقدمه .. واثناء زحف هذا المعنى الاســـطورى فى غابة الانسانية حاملا ســـلاح المعرفة تحطمت كثير من المفاهيم الخاطئـــة لتورق مكانها مفاهيم جديدة لمعنى الخير والشر بحيث يمكن القول أنه يوجد ارتباط عميق بين التطور الانسانى وتطور مضمون للخير والشر لكن مع هذا تبقى حقائق مستقرة كنظريات العلم لا يستطيع أحد اثبات عكسها الا اذا كان خروجا عن دائرة العقـــل .. ودخولا لمثلث الفوضى أحد هذه القواعد التى يجب الاعتراف بها والسجود لمعناها هى قاعدة الضرر .. والســـؤال ماذا تعنى تلك القاعدة ؟ ..

تعنى الامتناع عن اتيان اى فعل يترتب عليه الاضرار بالغير .. ويباح فيما عدا ذلك . هذا المفهوم لا خلاف بشأنه .. ولكن الخلاف حول تطبيقه فهو اذ يتفق ومعنى الاختيار .. اى حرية اختيار للبـــدائل فلا خـــلاف حول

تقريره كمبدا .. ولكن الخـــلاف حول تطبيقه كقاعـــدة قانونية ما يعتبر من الافعال ضـارا بالغير فلا يصـح الاتيان به .. وما يباح لأنه لا يسبب ضررا للغير .. هذا الاختلاف سببه تطور مفاهيم الخير والشر من خلال التطـور الانسانى او النضـج الحضـارى او العلمى او الفكرى ففى ظل قوانين أخلاقية سادت مجتمعات قديمة لم تســـتهجن تلك المجتمعات زواج الأخ من اخته ولا اتيان رجل لزوجة آخر بموافقة زوجها لتهجين النســـل !! كذلك لم تجد كثير من المجتمعات غضاضة فى استعباد الدائن للمدين اذا لم يفى بالدين بل وفى عصور متقدمة كان سبى المراة بطولة واستعباد الأسير ملحمة نادت بهـا معظم الكتب الســـماوية !! وفى عصـــور اكثر تقـــدما اقر المجتمـــع الانجليزى زواج الرجل بالرجل بل واسن له قانون لحماية العلاقة الناجمة عن مثـــل هـــذا الزواج .. ومـــع ذلك فان الحقيقة الأزلية .. القاعـــدة الأساســـية التى يدور حولها المنع والاباحة وهى قاعدة الضرر .. فيمتنع على الانسان الاتيان بأى فعل ينتج عنه ضررا للغير .. عنصر الضرر هذا هو معيار التفرقـــة بين الخير الشر بين الخطا والصـــواب .. بين الحـــلال والحرام .. ولكن توجد أفعال قد يختلف الراى حـــول تقييمها .. خيرا أو شرا .. كممارسة الانسان لشئون حياته الخاصة فى اطار الشرعية الاخلاقية ورغم أن تعبير الخير والشر تعبير واسع مطاط الا انه يمكن القول بلا حرج أن اى فعل مهما كان نوعه لا يلحق الضرر بالغير يدخل دائرة المباح ولا يحظر على الانسان الاتيان به .. هذه القاعدة لن تكن فلســـفتها قد تبلورت فى العصور القديمة .. لذلك فلم يكن مستغربا فى عصور سابقة اباحة سبى المراة ووطئها بالقوة فى الوقت الذى يعاقب اثنان بالغان غير متزوجان بالرجم لمعاشرة رضائية بينهما .. فى الحالة الأولى ضرر بالغ وقع على المراة نتيجة اغتصابها تنفذه التقاليد والعرف الســـائد .. وفى الثانية شـــبهة ضرر قد تلحق بالمجتمع لا تستاهل كل هذا الانتقام الوحشى .

معيار الضرر هذا يختلف من عصر الى عصر وكذا يختلف من مجتمـــع لآخر .. رغم هذا فيجب أن يكون عنصر الضرر أساس التحريم والاباحة فى كل هـــذه التشريعات .. التى تعتمـــد الآن على فكـــرة العقاب .. هـــذا

المفهوم يجب ان يتناوله التعديل والتغيير لتذاب فكرته القائمة على الانتقام داخل بوتقة مراحل التطور للعلاجى .. لتحل فلسفة العلاج مكان فكرة الانتقام .. والعلاج هنا لا يقصد به علاج الجانى فقط بل ايضا علاج المجنى عليه ــ بمحو آثار الضرر بكافة الوسائل ومنها اعادة الشىء الى اصله فاذا تعذر ذلك وجب التعويض عن الضرر الواقع .. ففى السرقة تعاد المسروقات الى صاحبها واذا تعذر ذلك يحكم له بالتعويض المناسب اما بالنسبة للسارق فعلى الدولة أن تقوم على علاجه .. والضرر الواقع على الزوج من مواقعة زوجته لعشيق لها تمحى آثاره أولا باباحة التفرقة بين الزوجين وثانيا بالتعويض ولا يستلزم لمحو آثار هذا الضرر ما تنادى به الأديان من رجم أو جلد الزوجة والعشيق .. المناداة بمثل هذا الجزاء ليس سوى احد اذيال صور الانتقام الوحشى ذلك لأنه حتى يمكن تطبيق قاعدة الضرر تطبيقا سليما فيجب أن لا يتجاوز ما درجنا على تسميته بالعقاب حدود الضرر فزنا الزوجة ليس بقتل .. وليس من نتائجه ازهاق روح .. فكيف يكون عقابه كعقاب القاتل ..

فى القتل لا يمكن اعادة الشىء لأصله باحياء الميت اذن فلا مناص من تطبيق قاعدة العلاج بشطريها محوا للضرر بتعويض المجنى عليه او المضرور سواء تمثل ذلك فى الورثة ام فى الدولة .. ويتم هذا التعويض من اموال الجانى أو من استثمار عمله وهو بمثابة اعادة الشىء الى اصله .. ويتم به تحقيق التوازن ثم علاج الجانى وهو الشطر الثانى .. وفى النهاية يجب أن لا يغيب عن الفن الواعى أن مثل هذا النظام يستلزم حضارة انسانية رفيعة وفكر واعى مستنير ومجتمع شبه فاضل .. يمكن أن يكون ارضا خصبة لتطبيق قاعدة التعويض والعلاج بعكس مجتمعات متخلفة والتى لا تصلح لتطبيق مثل هذه القاعدة عليها والا حدث الاضطراب وشاعت الفوضى ..

سرداب الأســـــرار

اذا تاملنا الحياة بكل تركيباتها .. والمخلوقات بكافة اشـــكالها .. والانسان بكل خصوصياته .. نجد انه يوجد قانون ثابت لا يتغير .. وهو احد القوانين التى ثبتت دعائمها باصـــول العلم والمنطق .. هذا القانون هو قانون الدورة .. او نقطة البداية .. هذا القانون يعنى العودة الى نقطة البداية .. ولسنا عنا فى مجال تقصى الاســـباب والظواهر العلمية ولكننا نناقشها كفكرة ترتبط اساسا بالاختيار .

نبدا فيها بالبذرة التى تدفن فى الأرض وننتهى ايضـــا بالبذرة التى نجمعها من الثمرة .. لو تاملنا هذه الدورة لوجدنا عجبا .. وأى عجب أن نهيء لبذرة صـــغيرة كل ظروف الانبات من تربة وماء ورعاية لتنبت نبات ينتج البذرة التى تبدأ دورة جديدة ..

واذا ما تركنا النبات الى الماء نجـــده يتبخر من المســـطحات المائية ليتحول الى قطرات تصب من جديد امطارا تتحول من جديد الى مسطحات مائية ثم الى سحاب فامطار .. واذا ما انتقلنا للانسان نجد أن حياته تبدأ بقذف حيوان منوى داخل رحم ليلتصق ببويضـــة ينتهى الى جنين ليبدأ حياة تنتهى الى تراب . الأمثلة عديدة .. نلمسها اكثر فى الحقـــل الانسانى حيض المراة .. النـــوم .. الطعـــام .. الافراز .. حتى للجنس نعود فيه دائما لنقطة البداية .. كلها امثلة تخضع لنظام الدورة اى العودة لنقطـــة البـــداية .. والســـؤال الذى يخالج اى فكـــر لكن ماذا يتبقى بعد انتهاء الدورة .. ماذا يتبقى قبل العودة لنقطة البداية ؟! هل ما يتبقى من الانسان والحيـــوان والنبات مجـــرد ذرات تختلط باديم الأرض .. هـــل هـــذا كل ما يتبقى .. اذن فاللعنة على الحياة .. على كل ما فيها من مدنية وحضارة وتقـــدم . ان الذى يتبقى هو القانون الذى يحكم نظـــام الدورة بدايتهـــا ونهايتها .. قانون راسخ مرســـوم بدقة .. يسـيطر بفروعه المختلفة

المتاصلة على كل حالة على حدة .. قانون رائع ينظم علاقات هذه الحالات منفردة ومجتمعة .. قانون باق لا تغيير فيه ولا تبديل .. ينطبق على كل دورة تدورها الأرض .. على الاجرام السماوية .. على الانسان .. ينظم نومه واستيقاظه .. طعامه وشرابه وافرازه .. قانون لا يموت ولا ينتهى بانتهاء الدورة او حتى بموت المخلوقات .. بل يبقى ثابتا .. موجودا .. لا لشيء الا ليرتدى دورة اخرى وتستمر الحياة .. وتستمر المخلوقات باستمرار هذا القانون .. ماذا يحدث لو توقف هذا القانون لحظة .. ستموت الكائنات .. وتحل الفوضى .. لأن ذلك يعنى توقف دوران الأرض وعدم عودتها لنقطة البداية .. يعنى عدم انبات بذرة جديدة .. يعنى توقف حياة الانسان .. توقف المطر .. وفى النهاية تصبح الحياة جرداء لا زرع فيها ولا انسان ولا حيوان .. هذا القانون تخضع له كما اوضحنا كل اسباب الحياة .. ومظاهرها .. نظرية هندسية للكائنات .. تبقى هذه النظرية حتى مع موت الكائنات فموتها يعبر عن مرحلة من مراحل النظرية لتبدأ الحياة من جديد فى صورة اخرى .. او شكل آخر لكن هل يعنى هذا القول وجود الأرواح .. أن الروح بمضمونها الغامض .. وعجز العقل البشرى على مدى القرون الماثله من تحديد ماهيتها يدخلها فى دائرة الوجود المطلق الذى سبق ان اشرنا اليه .. ويجرنا القول بصحتها او التاكيد بوجودها لمجرة للخرافات .. لأنه اذا كانت الروح مجهولة .. ومجهلة للعقل البشرى .. ما هيتها .. نشأتها .. تكوينها .. صلتها بالجسد .. كيفية تواجدها به .. سبب وجودها .. اذا كان كل هذا يدخلها فى دائرة المجهول المطلق .. فكيف اذن نصدر احكاما .. ونتائج .. وحيثيات لما هو مجهول .. كيف تقرر الاديان انه لا علم للانسان بالروح وانما علمها عند الله .. ثم تعود لتقول بعذاب من من لا علم لنا به .. مالم يثبت وجوده العلمى أو العقلى ..

لذلك وحتى نخرج من دائرة هذه الروح التى (طلعت روحنا) لا مناص لنا من الالتجاء الى (الدورة) لتبرير وجود الانسان على مر العصور .. فالموت تحول وليس نهاية .. بموجبه تتحول المادة من شكل لتكتسب شكلا

آخر .. من خـــلايا ودماء وماء الى ذرات تراب ومعادن .. لكن ماذا يبقى وراء خلف هذا التحول .. النظرية هى التى تبقى .. النظرية التى يصـــنع على اســاســها العلمى ملايين المخلوقات .. النظرية العلميـــة التى تبقى رغم عمليات الهدم .. فالموت ليس ســـوى عملية هدم .. عمارة تهدم لتصـــبح انقاضـا .. هكذا الانسان يهدم لتبقى انقاضه .. ولكن نظريته الهندســـية تبقى تماما مثل النظرية التى تنشأ على اساسها العمارة .. قد تهدم هـــذه العمارة بعد بنائها مباشرة لخلل فى التنفيذ .. وقد تبقى مئات السنين وهكذا الانسان لا يموت بل يهدم .. مثل الانسان فى هذا مثل اى صناعة تقوم على نظرية علميـــة .. فالتليفزيون والثلاجة .. والمصـــباح الكهـــربائى .. والصـــاروخ كلها مخترعات تقـــوم علـــى نظـــريات علميـــة .. يتحطم التليفزيون .. ويحترق المصـــباح .. وينفجر الصـــاروخ .. ولكن تبقى النظرية الهندسية خالدة .. باقية .. نظرية على اساسها يمكن بناء وحدات جديدة .. وما التطـــور الحادث فى مجال المخترعات الا تعبيرا عن التطـــور الحادث فى النظرية الانسانية .. الفرق بين كلا النوعين ان تطور المخترعات وراثه للعقل البشرى أما التطور الانسانى فبداخله مولد الطاقة .. اى بداخله امكانات وعوامل تطوره .. فالانسان كصـناعة معقدة .. من اللحظـــة التى ينشـا فيها الى اللحظة التى يتم فيها هدمه هذه الصناعة تقوم على نظرية ترسم كيفية تكوينه .. واســـتمراره .. ثم هدمه .. نقولها عشرات بل مئـــات المرات .. الانسان لا يولد بل ينشأ .. ثم الانســـان لا يموت بل يهدم لأن الموت فناء .. وهنا الموت تحول من مادة الى اخرى .. اى انه هـــدم .. اذن فالانسان ينشأ بناء على نظرية هندســـية .. نظرية هندســـية يتوالى نشوء الاجيال بناء عليهـــا .. تحمل هذه النظـــرية فى طياتها بذور او مولد تطورها .. واذا حاولنا التحقق من صـــحة هذه النظرية .. نجد انه توجد وسيلة واحدة لنشوء الإنسان وهى .. اخصاب بويضـــة الانثى بالحيوان المنوى للذكر .. الجســـد الانســـانى لا يختلف من جســـد لآخر من حيث تكويناته .. ومن حيث استمرار وجوده حتى فى طريقة هدمه .. فالجســـد

يهدم عندما تتغلب اسباب البناء على اسباب الفناء .. لكن القول بهذا يعنى تشابه البشر .. اى تطابقهم .. وهذا يخالف الواقع ويجرنا الى التناقض !! ان القيمة الحقيقية للانسان هى فى اختلافه .. فاختلاف البشر هو احد الخصائص التى يتميز بها الانسان عن بعض المخلوقات .. وهذا لا يعنى التناقض .. فنشوء الانسان بناء على نظرية واحدة لا يعنى بالضرورة تطابقه مع غيره . فالتطابق هنا فى الديناميكية البشرية وليس فى الخصائص البشرية .. فلكل انسان باعتباره حالة داخل الفصيلة ما يميزه عن غيره .. ذلك انه رغم هذا التطابق .. فكل حالة تختلف عن الاخرى .. لكن ماهو سبب هذا الاختلاف البادى بين البشر بعضهم البعض ؟! ..

السبب يكمن فى الخصائص المادية لكل فرد على حدة .. وقبل ان نغوص الى اعماق النفس الانسانية باحثين من لآلئها نحاول ان نتوقف قليلا على ما عبرناه منذ سطور قليلة .. لقد قلنا ان الانسان يهدم ولا يموت لأن الهدم بقاء وتحول اما الموت فهو فناء .. والانسان بعد هدمه يتحول من مادة الى اخرى ولكنه لا يفنى .. وقلنا ان سبب الهدم هو تغلب اسباب الهدم على أسباب البقاء .. اعداد رهيبة من الميكروبات تحاول هدم الجسد .. وفى مقابلها جيوش من الكرات البيضاء تدافع بضراوة .. الاول بكل اسلحة الدمار .. والثانى بكل تحصيناته الدفاعية الذاتية والخارجية المتمثلة فى المضادات الطبية والتقدم العلمى .. ويبقى الجسد ارض المعركة والصراع بين قوى الهدم والبقاء حتى تنتصر فى النهاية قوى الهدم .. ليتحول بعد ذلك هذا الجسد الى مادة اخرى .. اذن فالنهاية المحتومة ان تنتصر قوى الهدم . طال الوقت ام قصر هذه هى الحقيقة التى لا مهرب منها .. وليست كما يعزوها كهان الدين لملاك الموت الذى ينتزع الروح من الجسد انتزاعا متى حان الأجل دون ما اسباب والسؤال هل يمكن اطالة عمر الانسان .. نعم بتقوية دفاعات الجسد ضد جراثيم الميكروبات .. بل ليس مستبعدا ان يتقدم العلم خطوة .. بل خطوات فى مجال تقوية الاساس البنائى للانسان اى بتهجينه لنجد امامنا انسانا جديدا يعمر مئات بل آلاف السنين .. وانتصار قوى الهدم ليس سوى تطبيقا لنظرية العودة لنقطة البداية .. لذلك

من المستحيل الغاء هذه النظرية .. وابقاء الانسان حيا الى الأبد لأن هـذا يعنى اخلالا جسيما بالنظرية .. يترتب عليه امور قد تشـمل كافة مناحى الحياة .. والظواهر الطبيعية من مطر وسحاب ودوران حول الأرض تنتهى حتما الى توقف الحيـاة نهائيـا لو اسـتطنا نقطة البداية من حسـاب حركة الحياة .

لذلك فان نقطـة البـداية ضرورة حتمية لا تستقيم بدونها حيـاة الكائنات .. فى غيبتها تتحـول الأرض التى نعيش عليها الى خراب لا ينعق فيها حتى البوم !! وتبدأ نقطة البداية من لحظـة الهدم .. فنقطرة الماء تبـدأ دورتها بعد لحظة هدمها اى تبخرها .. اى بالتحول من الحالة السائلة الى الغازية .. ثم يبدأ ميلادها من جديد بعد أن تتعرض لبعض ظواهر طبيعية .. وهذا يكمل النظرية القائلة ان المادة لا تفنى بل تتحول .. وهو الحادث ايضا فى الجسد الانسانى .. فبعد هدمه لا يفنى بل يتحول .. ويبدأ هذا التحول بعد الهدم مباشرة .. اى ان نقطة البداية تبدأ بعد لحظة الهدم اى الموت .. ولكن كيف تبدأ نقطة البداية فى الجسـد الانسانى .. ان الجسد الانسانى بعد تحلله لا يصـنع منه جسد مباشرة .. وان كان يدخل فى صـناعته او فى تكوينه بطريق غير مباشر .. فالطفل الذى يتغذى بلبن الأم .. والخلايا التى يبنيها جسده يعتمد فى النهاية على ما تتغذى به الأم من حشائش الأرض اى ان الارض بما تحمله من ماء وغذاء هى المورد الأساسى لحياة الانسان .. هى نقطة البداية فى حياة الانسان .. منها تبدأ حياة الانسان .. وبداخلها تدفن بقايا هدمه .. ليس هذا فحسب .. فالجسد الانسـانى ليس مجرد خلايا ودم .. بل هو يحمل بداخله اروع نظرية كونية فى نشأته وفى استمراره وفى هدمه .. نظرية عامة ونظرية فردية .. بناء عليها يتم صناعة جسد آخر .. ولكن كيف يتم ذلك ؟؟ من خلال قانون ذاتى .. ويمكن تصـور ذلك لو امعنا الفكر فيما هو كائن من مخترعات .. فالمخترعات يتم صنعها بناء على نظرية علمية .. نظرية واحدة لا تختلف من جهاز لآخر .. ويتحطم جسد الاختراع ولكن قانونه يبقى ليصنع منه مئات الآلات وهذا هو الانسـان .. احدى المخترعات خلقه قانون رائع ينظم حياته بدقة وروعة منذ اللحظة التى يلتصق فيها الحيـوان المنوى ببويضـة الانثى الى الوقت الذى يدفن فى احشـاء

الأرض .. ولكن اذا كان للحـــال مكـــذا نظـــرية علميـــة كونيـــة تقف خلف الانسان .. فلماذا الاختلاف ؟ لماذا العبقرى والغبى .. لماذا القـــوى والضعيف .. لماذا الصحيح البدن والمريض .. لماذا لا يتشـــابه الناس .. لم يختلفون عن بعضهم البعض ؟؟

ان القانون الذى يرسم حياة الانسان قانون صارم .. دقيق لا تفرقة بالاجناس او الألوان .. فالانسان ينشأ نتيجة اخصـــاب بويضـــة الانثى بالحيوان المنوى لا طريق غيره .. وطريقـــة تغذية الجنين .. وتكوينـــه .. وعمل الأجهزة داخل الجســـد .. كل هذا يحكمهـــا قانون واحد لا يتغير من شخص لآخر .. فلم نسمع فى وقت من الأوقات ان الانسان يولد بدون قلب او رئتين او راس او مخ ويبقى حيا .. قانون واحد لا يختلف من شـــخص لآخر .. اذن فما سبب الاختلاف الذى نراه .. لماذا التباين الصـــارخ بين الانسان واخيه التوام .. السبب يكمن فى الخصـــائص المادية الذاتية هذه الخصائص يدخل فى تكوينها عنصران :. الوراثة والبيئة .. احدهما مجنون والثانى عبقرى .. أحدهما قوى والثانى ضـــعيف .. اختلاف واضـــح فى البصمات الانسانية سببها الأصلى للخصائص البشرية ينتج عن اتصهارها بالنظـــرية الهندســـية ما نســـميه نحن محمـــد او على او ابراهيم اذن :

فالانسان = للنظرية الهندسية + الخصائص المادية ..

اى ه + م = الانسان .

هذا المزج بين القانون الكونى .. والخصائص المادية ضرورة يفرضها اختلاف الانسان عن باقى الحيوانات وسيطرته عليها .. الفرق بين الانسان والحيوان ليس ناتجه الخصائص المادية .. فالحيوان يختلف ايضا عن غيره من جنسه فى خصائصه المادية لكن الانسان يختلف عن الحيـــوان فى نظريته الكونية او الهندسية .. ذلك ان احد خصائص النظرية الهندسية فى الانسان هو الاختيار وهو ما يفتقده الحيوان .

وعلى العلم ان يتعمق داخل النفس الانسانية ليعرف الاجابة على كثير من الاسئلة المستعصية وليعرف الكثير عن هذا المجهول « الانسان » نبداخله

أروع الاجابات العلمية . هذا المزج بين القانون الانسانى أو الكونى او النظرية الهندسية للانسان .. والخصائص البشرية كيف يتم ؟! ومن هو القائم على تنفيذه ؟! إسئلة ستبقى حائرة لقرون طويلة .. لكن الذى لا يقبل الشك أو المناقشة فى صحته .. ان للحياة تحكمها نقطة البداية .. ونظام الدورة اى العودة الى نقطة البداية .. فالجسد يعود إلى التراب .. ثم يعود من التراب .. لكن تبقى النظرية الهندسية للانسان بعمالها التى اطل عليها العلم اطلالة سريعة .. تبقى هذه النظرية بما تحمله من أرقام ومعادلات كيميائية وجبرية وهندسية ومعملية تبقى اسطورة الى أن يفك رموزها العقل البشرى .. فننتقل بها من مرحلة الى اخرى يتم بها السيطرة على صناعة الانسان وتهجينه .. لنجد أمامنا انسانا فى صورى اخرى .. فالعقل البشرى لم يصل بعد الى اسرار النظرية .. فهذا هو ما يجب على العلم ان يتجه اليه بكل قوته .. فمع الارتفاع الى السحاب .. نطلب العودة من جديد الى الأرض .. الى الانسان .. فمازالت إسراره مستغلقة .. غامضة علينا إكتشافها ..

جـــداول الاختيـــــار

ليس صـــحيحا ان لكل انســـان اجل محدد . بمعنى اجـــل مكتوب فى صحيفة الغيب .. فمثل هذا القول لا يســـنده دليل ولا يدعمـــه برهان .. ويمكن وصفه بانه ترديد ساذج لببغاء لا تفهم ولا تعى .. ينتمى الى خرافات المحجبة بالجهل والســـخافات !! فالقانون العام الذى ينظم الكون نشوئه واستمراره والذى ينظم بدقة غريبة كل صـــغيرة وكبيرة ليس من بين صفحاته التى يكتشف العلم تباعا بعض سطورها المقدة ليس من بينها اجل مكتوب لا للمخلوقات عامة ولا للانسان خاصـــة .. ولكن الذى يمكن تاكيده ان هذا الناموس أو القانون العام الشامل ومن خـــلال تطبيقاته يمكنه « اذا ما المنا بفروعه المختلفة » تحديد الأعمـــار .. وليس امكانية هـــذا التحديد نابعة من مسطور فى صفحة القدر به تبيان وتواريخ الأعمار بل سببه الالمام بفروع المعرفة الانسانية تتحدد بناء عليها جداول يمكن بها تحديد الأعمار .. تماما كما يتم الآن التنبؤ بالأحوال الجوية .. والمطر والزلازل والبراكين .. وهذا هو الموضوع الذى يجب طرقه بشدة بمطرقة العقل ليتوصل الانســان فى النهاية لجداول الناموس الذى يحدد اعمار المخلوقات .. كيف ؟!

اذا قلنا ان ٣ + ١ = ٤ وان ٤ ـــ ٢ = ٢

الأولى عملية جمع صحيحة .. اضفنا فيها الواحد الى الثلاثة فنتج لنا اربعة .. والثانية عملية طرح انتقصـــنا من الاربعـــة اثنان .. فكان الناتج اثنان بمعنى آخر انه عندما اجتمع لدينا ثلاثة امور واضـــفنا اليهم امرا آخر اصبح الناتج لدينا اربعة .. والاربعة هنا لا تمثل عددا ولكن تمثـــل موقفا معينا . ولكن عندما انتقصنا من الاربعة او هذا الموقف امران اصبح الناتج لدينا اثنان بمعنى آخر موقف جـــديد مغاير تماما للموقف الأول الذى عبرنا عنه باربعـــة ..

وعلى هذا فالحالة الواحدة قد تتحول نتيجتها اذا ما اضـــيف لها حدث جديد او اذا انتقص منها احد الظروف .. من هذا المنطلق يمكن ان تخضـــع مسيرة الحياة لعلم الحساب .. بل ونستطيع ان نتحكم فى الانســـان .. كناتج احدى عمليات الحياة الحسابية لجداول الاختيار باضافة او انتقاص امور من كرتة الحياتى .. كالوراثة .. والظروف الاجتماعية .. والبيئية .. والاحداث .. لنصنع له موقفا جديدا او نصنع منة انسانا مغايرا .. مثلا طفل ولد فى احـدى قرى افريقيا .. مات ابوه فى الاربعين من عمره بحوالى المرض سببها البلهارسيا اصيب هذا الطفـــل بالبلهارســـيا ولم يعالج منها ويعيش نفس ظروف ابيه .. فماذا ما ادخلنا كرت حيـــاة هذا الطفل داخـــل الكمبيوتر الحياتى .. فسيقدر لهذا الطفـــل الموت فى حوالى الأربعين لكن اذا اضيف لهذا الكرت ادمان المخدرات فسينتهى عمره قبل الاربعين .. ؟! تماما كالعمارة التى يقدر عمرها الافتراضى بأربعين عاما .. ولكن نتيجة وجـــود عنصر جديد .. خلل لتسرب مياه جوفية للاســـاســـات يقل العمر الافتراضى للعمارة .. وهـــذا الطفـــل الذى حددنا له المـــوت قبل الاربعـــين لادمانة المخدرات .. اذا قدر له وانتقـــل فور ولادته مباشرة لاحدى قرى أوربا ودون ان يصاب بالبلهارسيا .. وعاش فى بحبوحة من العيش .. سيعمر لأكثر من اربعين عاما فى ظل الظروف الجديدة ..

مثـــل آخـــر ..

جندى اصيب بشظية .. نزف .. لم يجد من يســـعفه مالة الموت ..

نفس الجنـــدى اصـــيب بنفس الشـــظية .. نزف اسعف .. توقف النزف = الحياة ..

ســـلك محمـــل بتيـــار قـــدرة .....ه وات .. امســـك به شاب = الموت ..

نفس الســـلك امســـك به نفس الشـــخص دون أن يكـــون حاملا تيارا = الحياة ..

فى الأمثلة السابقة اضفنا ظروفا او انتقصـــنا لبعضا منها فكان الناتج مختلف .. من هذا المنطلق يمكن القول بلا استحياء ..

اذا كانت أسباب الفناء أو الهدم اكبر من اســـباب البقاء = الموت أو المـــدم

واذا كانت أسباب البقاء اقـــوى من اسباب الهدم أو الفناء = البقاء على قيد الحياة .. من أسباب الهدم على سبيل المثال لا الحصر الفيروسات والوراثة السلبية كتوارث بعض الامراض المستعصية او المزمنة .

وكذا ظروف البيئـــة السـلبية .. فالفقر والحرمان وغيبة الرعاية الصحية .. والجهل ... كلها أسباب هدم للانسان ..

واسباب البقاء ايضـــا كثيرة وهي عكس ما عددناه من اســـباب الهـــدم ..

من هذا المفهوم نستطيع جدولة كل حيـــاة على حدة .. لنفتح بها آفاقا فى المعرفة .. لأنه سيترتب على هذه الجـــدولة حتما اطالة اعمـــار الانسان واستكشاف اسرار جديدة فى علم هندسة الحياة ..

واذا تركنا الموت بصورته الكريهة المقيتة .. لأمور اكثر اهمية .. ندخلها فى الكمبيوتر الحياتى .. سنخلص لنتائج مذهلة .. فالسياسة .. والاقتصاد .. والاجتماع .. والطب .. والهندسة .. وعلم الاجناس .. كلها فروع للمعرفة الانسانيـــة يمكن ادخالها فى الكمبيوتر الحياتى .. باضافة مواقف او انتقاص امور لنخرج فى النهاية بنتائج لا تخطىء تماما كالعمليات الحسابية .. تتمثل فى جداول يمكن تقسيمها الى نوعين :

١ ــ جـــداول حتميـــة ..

٢ ــ جـــداول نســـبية ..

الجـــداول الحتمية هى التى تنتهى الى نتيجة حتمية لا عبرة فيهـــا بالمكان او الزمان او متلقى الحدث نتيجة واحـــدة .. لا تتغير بتغيير المكان او الزمان او متلقى الحدث .. فالمتفوف الذى يستقر فى مخ انسان لا يمكن ان نفترض معه بقاء الانســـان على قيد الحيـــاة حتى ولا نسبة ذرة من المليون لأن المتفوف يحدث تهتكا فى انسجة المخ يترتب عليه الوفاة .. هذه

للنتيجـــة لا تختلف باختلاف المكان .. أو باختلاف الزمان القرن العشرين او للخمسين او باختلاف مطلق المقذوف .. النتيجة حتمية .. وكذلك من يقبض على سلك كهربائى قطاقته ٥٠٠٠٠ وات النتيجـــة حتمية حتى مع اختلاف الشخص او المكان او الزمان فمطلق الصدمة الكهربائية يصـــعق ويفحم اما المقذوف الذى يســـتقر فى فخذ الانســـان فيحمـــل معه احتمالات الموت او عدمه حسب مطلق الحدث .. أو حسب الزمان .. أو المكان .. او ظروف الحدث .. وهذا هو ما نطلق عليه الجدول النسبى والذى يختلف باختلاف الشـــخص والزمان والمكان والظروف .. فى الجـــدول الحتمى لو تكرر نفس الحـــدث عشرات او مئات المرات فنتيجة واحدة .. بعكس الجدول النسبى فان نتيجته تختلف حسب اختلاف الظروف الذى تم فيها الحدث .. الصائد الذى يصطاد عصفورا يقف بنفس الزاوية التى اصطاد بها عصـــفورا آخر ومن نفس المكان ونفس البندقيـــة والمقذوف واتجاه الريح .. فستكون النتيجة واحدة اصابة العصفور مكان الاصـــابة الأخرى ولكن اذا اهتزت يد الصـــائد .. او طار العصـــفور او تغـــير اى ظرف من الظـــروف التى احاطت بصـــيد الطائر الأول تصـــبح النتيجـــة مختلفـــة اى نســـبية ..

وقد يحمل الحدث الواحد نتيجة حتمية وأخرى نســـبية فالمقذوف الذى يستقر فى الفخذ يحمل نتيجة حتمية وتتمثل فى تهتك الأنســـجة والنزيف .. وايضا يحمل نتيجة نسبية حسب احتمال الشخص المصـــاب او القدرة على اســـعافه .. او المكان الذى اصـــيب فيه فى النتيجـــة الحتمية لا يختلف من شخص لآخر لو تكرر الحادث على اشـــخاص مختلفين .. لابد أن يحـــدث تهتك فى الأنســـجة ونزف .. أما فى النتيجـــة النســـبية فتختلف حســـب الظروف .. فقد تبتر الســـاق او قد يموت صـــاحبها او يســـعف .. كلها نتائج احتمالية تعتمد فى المقام الأول على ظروف الحادث ..

والســـؤال لماذا تطول اعمار بعض الناس وتقصر البعض الآخر .. لماذا تعيش بعض الأشجار عشرات السنين بينما شجرة القطن لا تعمر سوى شهور السبب يكمن فى الصفات الوراثية أو الظروف البيئية .. وما يؤيدنا

فى هذا القول مقارنة متوسط الأعمـــار فى أوربا بما حدث فى افريقيا .. نجد ان توجد بين المتوسطين هوة ساحقة .. سببها ما يكمن وراء ارتفاع متوسط الأعمـــار فى أوربا وانحـــداره فى افريقيا .. فماذا ما نحينا جانبا الصـــــفات الوراثية .. نجد أن للظروف البيئية لها دخل كبير فى ارتفاع متوســـط الأعمـــار فى أوربا وانحـــــداره فى افريقيـــا بحيث يمكن القـــول ان للأعمار جداول نسبية تحكمها للصـــفات الوراثيـــة والظروف البيئية .

المجهول المطلق .. والوجود الفعلى .. والحقيقى

هل الحقيقة لا وجود لها حتى نعرفها ؟؟ بعض الحقائق العلميـــة التى تحكم الكون كانت قبل اكتشـــافها مجهولة غير معلـــومة ـــ رغم أنها كانت موجودة فعلا .. فهل يعنى اكتشافها شـــهادة بميلادها أم يعنى اكتشافهـــا اســـتظهارها على أرض الواقـــع .. بمعنى آخر هـــل نربط بين الحقيقـــة والاكتشاف بحيث نقول أنه لا توجد حقيقة بلا اكتشـاف ..وانه حتىمع وجود الحقيقة فهى بدون الاكتشاف عدما .. وهو ما يمكن التعبير عنه بالمجهـــول المطلق فماذا قلنا عن هذا الشىء انه موجـــود فليس لأنه كان موجـــودا وجودا فعليا .. بل لأنه دخل دائرة المعرفة الانسانية بعد اكتشافه .. وعلى هـــذا فيمكن التفرقة بين المجهول المطلق المبهم الأعم والاشـــمل وهو مالا يستطيع العقل البشرى ادراكه .. الا اذا تحول الى موجـــود معلوم ومفهوم بعد أن يدخل دائرة ضوء المعارف الانسانية وهو ما يمكن تسميته بالوجود الحقيقى فالحقيقة العلمية قبل اكتشافها كانت مجهـــولة غير معروفة رغم أنه لا يمكن انكار سبق وجودها الفعلى قبل اكتشافها .. لكن وجودها فى ظلمة المجهول وحجبها عن المعرفة الانسانية يعنى جهل الانسان بها .. فهى قبل معرفتها والعدم سواء .. لذلك يمكن القـــول أولا أن المعرفة = الوجود بمعنى أن المعرفة لا تتصب الا على حقيقة موجودة .. وثانيا ان للوجود = المعرفة بمعنى أن الحقيقة لا تنشـــأ الا بالمعرفة حتى ولو كان لها وجودا فعليا قبل اكتشافهـــا لأنه حتى نعتد بالحقيقة علينا أن نكتشـــفها فاذا لم يحدث ذلك فكيف نعترف بحقيقة نجهلها .. بل كيف نطلق على مجهول كلمة حقيقة ؟!

الحقيقة اذن تنشأ منذ اكتشافها حتى ولو كان وجودها الفعلى سابقا الاكتشـــاف بعشرات بل بملايين الســـنين وهو ما نعبر عنـــه بالوجـــود الحقيقى .

اذن فالوجود الحقيقى = الوجـود الفعلى + المعرفة الانسانيـة بمعنى آخر الوجـود الفعلى ينشىء عنه الوجـود الحقيقى اذا ما اقترن هـذا الوجـود الفعلى بالمعرفة الانسانية فاذا لم يحـدث هذا التزاوج والاقتران فسيبقى هذا الوجود الفعلى عقيما لا ينجب وجودا حقيقيا وبالتالى لن تعرفه الانسانيـة .

وبدون المعـرفة يصـبح الوجـود الفعلى وجـودا مطلقا .. غـير مفهـوم .. غير معلـوم .. لا يمكن الجزم بحقيقته لأنه لا يمكن الجزم بالمبهم .. الغير معلوم .. وعجز العقل البشرى عن التوصل لهذا الوجود المطلق وصهره الى وجود حقيقى لا يعنى انكار هذا الوجود المطلق .. لكن طالما ان العقل البشرى لم يصـل لمعرفة ابعاد هذا الوجـود المطلق فهو بالنسـبة اليه مجهول غـير معلـوم .. غير موجود ، وعلى هـذا فان اى ادعاء بمعرفة المجهول المطلق دون اسـتناد على حقائق علميـة يعتبر خرافة ويحمل فى طياته انهيار الحقيقة .. فكيف يدعى انسان العلم بالمجهول المطلق دون أن يسند ادعائه على اكتشاف او معرفة .. فانشـتين قبل أن يكتشف نظريته فى الذرة لم يدع معرفته بالوجود المطلق .. بل فعل ذلك بعد أن نقل هذا الوجود المطلق الى المجال العقلى ليصبح وجودا حقيقيا بعد ان اكتشف نظريته عن الذرة .. أذن فالوجود الحقيقى يعنى ارتباط الوجود المطلق بالاكتشـاف الفعلى حتى ولو كان هـذا الوجود المطلق سـابقا على الاكتشـاف .. وقد يتمثل هذا الاكتشـاف العقلى فى نظرية علمية .. حقيقـة اقتصـادية .. بحث اجتماعى .. استنتاج منطقى .. اكتشـاف علمى يحول به الوجود المطلق المبهم الى موجـود حقيقى .. مفهوم ومعروف .. وما يخرج عن هذا يصبح مجرد خيال او تخيل او تصـور .. وقد يتحول هذا الخيـال او هذا التصور بمور الزمن وتتابع الاجيال (رغم أنه لا تسـنده حقيقة علمية) الى عقيدة راسـخة لا تمحوها آلاف اطنان كلمات الرفض لحقيقتها الواهمة .. واقرب مثل الى ذلك من يتحدثون عن الجن والشـياطين والملائكة .. ادعو علمهم بالمجهـول المطلق .. ليحولوه الى موجود حقيقى ليصـبح فى بعض

المجتمعات المريضة .. عقيدة راسخة لا يتزعزع بنيانها دون سند من اختراع او اكتشاف او حقيقة .

لكن هذا المجهول قد يكون موجودا ولكن ليس لدى البشرية القدرة او الامكانيات لتصل لحقيقته .. فهل يعنى هذا عدم الاعتراف به .. والرد سهل وبسيط كيف يعترف الانسان او يؤمن بشىء غير معلوم .. مجهول .. فليس مطلوبا من العقل البشرى أن يؤمن أو يعتقد فى ما هو مجهول لأن ذلك يعنى الايمان بما يفوق قدراته ويعنى ايضا .. الايمان بكل ما لا يستند على حقيقة أو اكتشاف .. ويعنى فى النهاية الانغماس فى الخرافات والخزعبلات .. وفى المقابل ليس مطلوبا من الأنسان أن يكفر بكل ما يفوق قدراته الخاصة والا كان معنى ذلك أن يكفر الأمى بما هو مخطوط فى الكتب لأنه فوق قدرته وامكانياته ، كما أنه ليس مطلوبا من الانسان أن يكون كيمائيا أو جولوجيا أو مخترعا أو عالم نبات وأن يلم بالنظريات العلمية أو الفلسفية والانسانية والاجتماعية حتى يؤمن بكل الحقائق التى توصلت اليها البشرية .. بل المقصود هو الايمان بكل الحقائق التى استطاع العلم أن يحولها من دائرة المجهول المطلق الى دائرة المعارف الانسانية بمعنى آخر يجب أن يؤمن الانسان بالعقل الانسانى الجماعى وما توصل اليه من اكتشافات واختراعات وعلوم وحقائق وسبب رفض العقل الجماعى للخرافات وما يتصل بها من وجود شياطين وملائكة وجن ازرق واحمر واخضر !! هو أن هذا الوجود وهمى .. شرك خادع لا تؤيده حقيقة ولا يدعمه برهان وتظل تلك الشياطين وهذه الملائكة وعوالم الجن فى جعبة الخرافات طالما لم يتحول مجهولها المطلق الى موجود حقيقى .. فالذى ينادى بالوجود الحقيقى لهذه الكائنات الوهمية .. مثله مثل من يتحدث عن عوالم كوكب لم يسمع به أحد .. ولم تطاه قدم انسان .. والذى يسند أدعائه هذا بصفحة او صفحات من كتاب منزل سند واهى .. لا يخرج عن كونه مجرد اقاويل تصد بها الدعابة او السخرية او الاستهزاء بالعقل البشرى الجماعى لأن هذا السند فى حقيقة الأمر فى حاجة الى سند آخر علمى او عقلى

يثبت تنزيله من عند الله . لكن هل يعني انكار وجود للشيء وجودا حقيقيا .. انكار وجوده وجودا فعليا .. بالقطع لا .. فكثير من الحقائق العلمية التي وصلت اليها البشرية كانت مجهولة قبل اكتشافها .. وبالتالي لم تصل اليها دائرة المعارف الانسانية .. ولكن هذا لا يطعن في وجودها الفعلي مثل الاكتشاف .

كل ما سردناه يجرنا الى الحديث عن الدعاء لله .. وطلب التوبه .. والمغفرة والعون من الذات العلية .. وكثير من الطقوس الدينية .. تبدأ من الوقوف على حائط لتنتهي الى الدوران حول مبنى .. فحتى لحظاتنا تلك لم يتأكد للبشرية أن الله استجاب لدعوة انسان وارسل الى جائع مائدة طعام .. أو الى عاريا رداءا يستره او ظمآنا قنينة ماء عذب او معدما مليون جنيه ذهب أو ورق ولا حتى مليون جنيه صفيح !! ام يتأكد للبشرية على مدى مئات السنين بل ملايين السنين ما قيل عن معجزات الانبياء والرسل وأعاجيب السحرة .. وخوارق العاديت .. لم يحدث في عصور النهضة حدثا واحدا .. واقعة واحدة تؤكد ما سبق أن توارثناه من عقائد بالية .. وخرافات مهلهلة .. فما الذي حدث !! لماذا توقف فجأة بعث الانبياء والرسل والرسالات .. لماذا لم تتكرر الخوارق ؟؟ ليرسل الله لفقير خرونا مشويا كما أرسل لأبراهيم لماذا توقفت الذات العلية فجأة عن ايفاد ملائكتها وبعث الأنبياء وقد اصبح الكفر سمة العصر .. فالكثرة الغالبة لا تدين الآن الا بالعلم وهي الكثرة المتحضرة أما القلة القليلة التي تؤمن بالاديان .. فهي في الحضيض .. في الوحل .. لماذا والكفرة في أشد الحاجة لمن يهديهم للطريق السوي نحو التخلف !! لماذا لا يرسل الله اليهم رسله ؟؟ لسبب بسيط جدا .. لأن الله لم يرسل في وقت من الاوقات رسلا .. ولن يفعل .. فالرسل من صنع الناس او من صنع انفسهم فالانسان الذي يؤمن بالغيبيات .. ويؤمن بقدرة المجهول الخفية على تغيير أحواله ليس في الحقيقة سوى انسان مريض على المجتمع أن يقيم له مصحات نفسية يعالج بها .. ذلك لانه آمن بامور تتجاوز نطاق تفكيره بل وتتجاوز نطاق التفكير الانساني الجماعي .. فهو عندما يدعو الله طالبا المغفرة او العون او دفع

مكروه لا يدرى كيف يمكن تحقيق ذلك ولكن يعتقـد ان تلك الذبذبات التى تخرج من فمه والتى يجهل مسـيرتها لابد وان تصـل لاسماع الاله الذى يجهله .. فهو لا يعـرف ماهيتـه ولا مكانه ولا حتى كيف يسـتقبل هذا الدعاء .. المهم انه يؤمن بان هذه الدعوات الطيبات سـتجد آذانا صاغية لدى الاله .. ولكن الواقع انها كلها امور لا يدركها العقـل وتبقى فى دائرة المجهول المطلق طالما لم تؤيدها حقيقة علمية او انسـانية ويرفضـها. العقل الجماعى . لكن هل يعنى عدم رؤية الانسان للشىء عدم وجوده بالقطع لا .. فكثير من النظـريات العلمية قاصر فهمها على الخبراء والمتخصصـين لكن لا يمكن للعقـل الجماعى ان ينكرها .. والحدائق المعلقة موجـودة رغم أن اكثر من نصف سكان العالم لم يرها . وينطبق هذا على كثير من الكائنات والحقائق والنظـريات والاختراعات .. ولكن تبقى الحقيقـة العقلية التى لا يمكن انكارها ان أى موجود لا يوجد الا بامعال الفكر .. بمعنى آخر أن كل مجهول يدركه العقل يصبح معلوما وأى دعـوة بمعرفة المجهول المطلق مرفوضـة طالما لا تؤيدها حقيقة علمية او عقلية .. وسـبب تخلف بعض الشعوب .. ليس الجهل أو الفقر .. انما هو « الدماغ » الذى يؤمن بهـذا المجهول المطلق كحقيقة يقينية دون أن يسـندها دليل أو برهان « الدماغ » الذى يؤمن بالتهريمات والافكار الخاطئة .. والتى يخصصون لها برامج ومؤتمرات وندوات لبثها .. وانباتها .. ثم ريها وتعهدها بمخصبات الجهل والجهالة .. لذلك فقد تقدمت مثـل هذه الشـعوب كثيرا نحـو الانحطاط والاسفاف والبله والعته !! بينما تقدمت شعوب اخرى بخطوات واسـعة نحو الحضارة تنهل منها او تنهل منه !!

شـتان ما بين الاثنين .. شـعوب اتجهـت الى طـريق البحث عن الحقيقة .. وأخرى عبدت المجهـول فاسـتعبدها .. أصبحوا مجموعة من الرقيق لآلهة من المعتقدات والطقوس والخرافات والعبادات .. مجموعة من الخراف يسوقها للذبح سيف ذلك المجهـول الذى يصـلون فى محرابه .. وتحت قبة خرافاته . ذلك المجهول .. المرض الخبيث الذى أصـاب العقل البشرى بالخبل والتوهان .. حوله الى مجموعة من الخلايا السرطانية ..

اصبح الفصد أو الجراحة السبيل الأوحد للعلاج الناجح ..

توقفت عن القراءة .. نمرود يحدثم :

ـــ أكمل .. اكمل يا ملعون ..

احتوانى الصـــمت .. وعيناى تجرى .. تلهث فوق السـطور .. ما هذا الذى اقـــرأ لا يمكن .. لا يمكن .. نحيت الكتاب جانبا .. نظراتى زائغة .. عقلى تائه تزاحمه الشـــكوك .. تتكسر فوق ارض يقينه الفروض والاحتمالات ما هذا .. ماذا قرات ؟! رحت اتامل ما حولى .. هل يمكن ان تكون ما تطاه قدماى هى الأرض .. امسكت بحفنة تراب نثرتها .. تناثرت ذراتها، فوق وجوه البشر .. نمات للبشر !! الاسئلة تحاصرنى .. تدفعنى الى الجنون .. الى جب لا استطيع فيه التنفس .. اننى اختنق هل هـــذه هى الأرض ؟! وتلك الفصـــائل المتخلفـــة بقايا البشر .. ما تبقى منهم ؟! ضحكت .. بكيت .. عدت اطالع سطور الكتاب .. والدموع تنسج سحابة بيضـــاء .. السطور تضـــع النهاية فى كلمات قليلة ، « وهذا هو اســـاس شريعتنـــا بعد ان هجر قومنا منذ ثلاث آلاف عام الى باطن الارض نكمـــل حضارة الانســـان التى اندثرت .. اللعنة عليهم .. على من اشـــعل الحرب العالمية الثالثة .. ولا عودة اليها » ..

حريق فى صدرى .. اشد طلته كلمات الكتاب .. زعقت :

ـــ المجرمين .. السـفلة .. الانذال .. حولوها لخرابة ينعق فيها البوم . جنود اليقين تدمر فصـــائل الشـــك والاحتمالات .. تحمل علمها تلوح به راسى ينفجر .. ساقاى يتخاذلان .. هويت الى الارض.. ضممت راسى بيدى .. الدموع تســـترسل .. أذن فقد عدت الى الارض بعد رحلة طويلة استغرقت منى مسافة آلاف السنين .. وما أراه امامى ليس ســـوى اطلال الحضـارة والانسـان .. انسـان متخلف عقليا .. معوق جسديا .. عقيم لا يتناسل .. ولا يتوالد .. ما حدث غريب .. غريب .. لقد ضغط بعضهم على مفاتيح الموت ليقتلوا كل ما على الارض .. انســـان ونبات وحيـــوان وما بقى فوق قشرتها ليس سوى وهم اسمه الجنة والخلود .. والحقيقـــة

محزنة .. مؤلمة .. حقيقة تلك البقايا الآدمية والحيوانية التى استبقتها الحياة لوقت غير معروف مداه نهاية البشرية الذى يرصدون الآن انفعالاتى .. يرقبون حركتى .. كم اشفق عليهم .. عدت بذاكرتى الى الخلف الى باطن الارض حيث تقطن المعرفة .. وينبت العلم .. الى الانسان الذى هجر الأرض ليكمل حضارة ملايين السنين .. كانوا يعرفون أن فوق قشرة الارض هذه النفايات .. اعتقدوا أننى واحدا منهم .. الآن فقط فهمت مغزى ومعنى ما دار من حوار بينى وبينهم فهمت سبب الدهشة التى غمرتهم وواحد من القردة يجاريهم فى نقاشهم وذكائهم .. فهمت لماذا اعتقدوا اننى واحدا من سكان كوكب آخر غير الارض !! و فهمت اخيرا معنى الخلود الذى تمرغ القوم فى وحمه سنينا طويلة خلود مؤقت .. فهمت سببه ـ هذه النفاية البشرية استبقتها الحياة لبعدها عن بؤرة الانفجار بآلاف الاميال .. لم يقتلهم شعاع الموت .. ولكنه قضى على ماهو أدنى كثير من الفيروسات والميكروبات الضعيفة وفى للوقت نفسه اكسب تلك الاجساد البشرية حصانة ضد ما تبقى من هذه الفيروسات وللتى مازال بعضها ينخر فى أجسادهم وعظامهم .. والمحصلة خلود وهمى !! فاسباب البقاء أقوى الآن من اسباب الفناء .. ولكن الى متى ؟ الى متى أيها الأوغاد ؟ .. انه الموت .. آت اليكم لا محالة فى اية لحظة .. سيدق الأبواب بشدة .. بقسوة .. غول تتقدمون اليه الضحية تلو الأخرى حتى ينتهى منكمَ كلكم .. ثم يرفع فوق الأرض علمه الأسود ليصبح الوارث الوحيد لتلك الارض .. ان عاجلا أو آجلا ستدك حشود الفناء أسوار البقاء وتخرق دفاعاتها .. عندئذ لن يتبقى انسان .. حيوان .. نبات . أصابنى الخاطر بالذهول .. انتصبت قامتى المهلهلة .. حاولت ان اتحدث خانتنى شفتاى تحركت دون كلمة واحدة .. الكارثة ضخمة .. بدأت تهب اعاصيرها فرهود .. وزيد .. وياسمينة .. وأخيرا زاهية للتى هوت منذ ساعات فى احضان الموت .. لم تكن اللعنة .. بل الخيط الذى يوصل الى الحقيقة انه نفس مصيركم يا أوغاد .. قرب أو بعد الميعاد حديثا طويلا .. كلما كثيرا تضج به نفسى .. ولا أستطيع .. مجرد تمتمة تتحرك بها شفتاى ..

نمرود يعـــــوى :

ـــ لقد جن .. انظروا اليه لقد جن ..

خرجت الكلمات عسرة من بين شفتاى :

ـــ نعم .. لقد جننت لأنكم آخر مصـــائل الحيوان على هـــذه الأرض ولن يخلفكم أحد ..

جثوت الى الارض .. رفعت رأسى الى السماء زعقت :

ـــ يا الهى .. لماذا تخليت عنـــا .. لمـــاذا تركت الأوغـــاد يدمرون حضارتك .. لماذا .. لماذا يا الهى ؟! !

بدأت ابكى .. تملكتنى هستيريا غريبة .. ضحكت .. عدت للبكاء من جديد .. عندئذ ارتفع صوت بسطاوى :

ـــ الرجل جن .. ترفع الجلســـة حتى يســـتعيد المتهم وعيه وتكتمل ارادته ..

* * *

انعقدت الجلســـة .. تملكنى اليأس .. كم أريد الموت .. لا أريد أن اعيش اللحظة التى أرى فيها الناس تتساقط الواحد تلو الآخر .. واجلس القرفصاء اندب نهاية الحياة .. اريد الموت .. اســـتغرقت مع افكارى .. شردت .. نمرود يسألنى :

ـــ ما رأيك يا اله فيما قرأت ؟

لم ارد .. ابتسمت واذا به يزعق من جديد :

ـــ امسح هذه الابتسامة عن وجهك القمئ .

تقدم نحوى .. صفعنى بقسوة .. دمدم فى غضب جامح :

ـــ لن تنجو منى .. سأعصف بك كعصف مأكول ..

عاد الى مكانه .. صوته يرتجف وهو يشير الى :

ـــ لم تجبنى .

اخذت نفسا عميقا .. كل ما قرانه يتخايل امام عقلي كراقصة باليه رشاقة .. وخفة .. ومهارة .. لا تخطئها عين رائى ولكن لا احد يبصرها سواى .. انها الحقيقة التى غابت عنى سنين طويلة .. لكن ماذا يجدى ان تعرف تلك الهوام نهايتها .. ماذا يجدى ان تعيش ما تبقى لها من ايام او سنين فى الوهم او فى الحقيقة .. عقلى يذوب .. فكرى يترنح .. كيانى ذرات عالقة فى بيت لا سقيف له ولا نوافذ .. تحركه ريح عفية آتية من اعماق الحقيقة .. لقد كنت مخدوعا .. كل دقيقة .. كل لحظة عشتها مع هؤلاء الناس .. مع تلك الهوام .. نمرود من جديد يعاود سؤالى .. لا سميع . ولا مجيب .. سكير يترنح فى درب البوظة .. استفقت على يد نمرود تهزنى بقسوة وهو يسألنى :

ـ ما رايك يا اله فيما قرات؟

اجبته متسائلا :

ـ وما رايك انت فيما قراته لك .. هل فهمته ؟

نمرود يتحرك مبتعدا بهستيريا غريبة .. قرد يقفز فوق اغصان الأشجار .. باحثا عن ثمرة .. يواجه المحكمة فى عصبية شديدة مشيرا الى :

ـ انه يسألني .. مدعى الالوهية يسألنى .

يختال امام للجمهور .. طاووس نتف ريشه .. يزعق .. ويزعق ساعات وهو يكيل لى الاتهام تلو الآخر : وبعد ان انهى مرافعته اقترب منى .. ابتسمت .. عاد يصرخ من جديد :

ـ انه مازال يبتسم .. امنعوه .. خيطو فمه .

عم للصمت المكان .. اتجه نحوى .. استطرد قائلا :

ـ هذه الابتسامة الملعونة لن تغير من مصيرك المحتوم .

القاعة مزدحمة .. لكن لا تسمع فيها سوى حفيف الأنفاس كانها شاغرة بهذا الصمت الرهيب .. بهذا الهدوء المريب ..

صوت بسطاوى يأتينى حادا .. خَنَّاسا :

ـ هل لدى المتهم ما يقوله ؟

ـ لا يابســـطاوى .

ـ اذن فانت تؤمن بكل ماجاء بالكتاب الملعون .

ـ بكل ماجاء فيه من حقائق فقط .

ـ مصـــيرك مظلم .

ـ وهل بعد الموت شىء ؟

ـ ســـنمنحك فرصـــة للعفو .

ضحكت .. وهو يستطرد قائلا :

ـ لو انكرت كل ماجاء فى الكتاب الملعون .

اجبتـــه قائـــلا :

ـ الحقيقـــة لا تتحـــول لاكذوبة .. بل تبقى خالـــدة مهما أدمن البعض انكـــارها .

ـ انك تهوى إلى المـــوت .

ـ لن اطلطىء للراس للوهم الذى تعيشـــه انت وامثالك من البلهاء بارهابى بالموت .

ـ وهل الحقيقة انك الله .

ـ لا أنكر انه مرت بى لحظات اعتقدت اننى لست سوى الاله فى ثوب بشرى . عذرى فى ذلك انه سبقنى الى هذا الوهم كثيرين بل ومات البعض على اعتقاده .. اما أنا فقد انتشع عن عقلى الضباب بعد ان احترقت كل الالهـــة .

ـ والطيف الذى كان يتجلى لك .

ـ خيـــال مريض .. دفعنى اليه رغبتى الجارفة فى انقاذ الناس من الوثنية .. والبدائية .. والتخلف .. خيال يا سيد بسطاوى لست اول اول من جمح به .

ـ والنهاية .. اتريدها مصلوبا .. ام محروقا .. ام مذبوحا .

ـ للنهاية .. اريدها للاكذوبة التى عششت فى عقـــول الناس والتى

يتغنى بها اصحاب القلنسوه السوداء والأردية الحمراء ..

ـــ بل هى نهايتك .

ـــ لن تكون نهايتى نهاية للعقل .

الرؤوس المدببة .. الخاوية .. تتقارب .. تتهامس .. تتباعـــد ..

صوت بسطاوى يعلن على اثرها :

ـــ الحكم بعد المداولة .

الاجساد المترنحه .. الدسمة .. تختفى داخل حجرة المداولة .. ثلاث دقائق لتعـــود بعدها الى اماكنها .. الجمـــع للغفـــير يقف وبســـطاوى ينطق بالحكم :

ـــ حيث انه تاكد ليقين المحكمـــة ان جرائم ارتياد الأرض الملعـــونة والتجديف وادعاء الألوهية والمناداة بافكار محظور تداولها تدعو لاعمال العقل وعدم المعتقدات !! كلها جرائم ثابتة فى حق المتهم لذلك فقد حكمت المحكمة باجماع الآراء باعدام المتهم حرقا .

وفى اللحظة التى نطق فيها بســـطاوى بالحكم .. تاوه .. ســـقط على الارض .. حملـــوه فوق اريكة عاليـــة .. حملق للقـــوم .. تعالت الصرخات .. انحنت الجموع مهرولة خارج المعبد .. زاعقة « اللعنة .. اللعنة » .. اتجهت الى بســـطاوى امامى جثـــة هامدة بلا حراك .. خطت السنون على وجهه باخاديد الزمن .. تساقط شـــعره .. تهدل جفنيه .. امامى بوجه رجل تخطى مئات بل آلاف السنين تمتمت باسى :

ـــ العاصـــفة تقترب .

التنفيـــــذ

فى اليوم التالى صـــحبنى ثلاث رجال مقيدا بالاغلال .. معلونا بحبل الى ساحة الاعدام . اطنان من الخشب رصـــت داخل دائرة وفى منتصـفها نصبت سارية الموت .. جذع شجرة ضـخم . مســيرة الموت تتقدم يظللها الحزن .. لا تسمع معها سوى زفرات الألم .. وانين اخرس ــ بعد دقائق ، ســيحترق الاله ليصـــبح ترابا .. هذا الاله الذى احبهم وحاول ان يزرع الابتسامة فوق وجوهم يروه مشدودا فوق سارية الموت ولا يستطيعون له شيئا . طوفان المرارة يكتسح الجموع وهى تتقـــدم نحوى .. تحيطنى .. ونمرود والدهل وسليط ودحروج وســـليم وغيرهم من صـــفوة رجال الدين يرتدون الجبة الحمراء والقلنسوة السـوداء يعبرون مكانى .. يبصقون على وجهى ونمرود يتوالى صراخة :

ــ ابصقوا على الشيطان .

الناس مذاهيـــل .. خائرون .. تطـــوف جموعهم حولى .. الأنين الاخرس .. والحب الباقى .. والأمل المتســـكع فى قلوبهم الخاوية يمنعهم من تلويث وجهى ببصاقهم .. وصوت نمرود من جديد متوعدا مهددا :

ــ اللعنة .. الأرض الملعونة مصير من يتخلف .

موجات البشر تتابع .. يتناثر رذاذ بصـــاقها فـــوق وجهى .. ذراع يتقدم نحوى .. يشد من ازرى .. يحمينى .. يحيطنى .. يركع الى قدمى وسط ذهول الجموع الغفيرة .. يبكى .. يتاوه متوسلا :

ــ مولاى .. انقذ نفسك .

بكيت أنا الآخر وهو يستطرد قائلا :

ــ لا تبك يا مولاى ..

اجبته برقة واسى وحزن :

ــ حزنا على الناس لا على نفسى .

ــ الناس لا يستاهلون دموعك بعد ان كفروا بك .

قال ذلك .. انحنى الى قدمى الموثوقة يقبلها .. تمتم :

ـــ اغفرلى يا مولاى .

قلت بأسى :

ـــ كنت تعرف الحقيقة أذن .

ـــ كل الوقت يا مولاى .حل الصمت إستطرد قائلا :

ـــ أبى يا مولاى .. أقســـمت لة بعدم افشـــاء سر الأيقونة قبل أن تحتويه غفوة الموت .

ـــ تباخر اعترافك فقد كنا نستطيع الكثير .

ـــ فى طريق سده اليأس .. اشك يا مولاى .

ـــ العلم يأتى بالمعجزات .

ـــ والقسم يا مولاى ؟!

ـــ اهم لديك من حياة شعب بأسره .

ـــ ضـــيق أفق .

قلت فى يأس :

ـــ عموما فقد فات الأوان .

ـــ لم يفت يا مولاى .. تستطيع ان تنقذ نفسك وتنقذ شعبك .

زمجرت فى غضـــب :

ـــ قلت لك أننى لست الها .

ـــ لا تقتـــل الأمل الذى زرعته الآن بكلماتك نســـتطيع بك ان نفعل الكثير يا مولاى .. نحول اليأس الى طاقة والمرض الى عالمية .. والعقم الى أمل .. لكن أنقذ نفسك اولا يا مولاى ..

عاد يصرخ من جديد :

ـــ أنقذ نفسك يا مولاى .. أنقذ نفسك يا مولاى .

صرخاته تتردد فى المكان .. صداها يأتينى مفزعا . اليأس .. اليأس أن أستطيع شيئا حيال الموت الذى تقترب شعلته الحارقة ومناع يسجد يلثم قدمى .. يبكى .. انطلقت شرارة حبه الجارف فى الجمـــوع وشـــاب يتقدم نحونا من خلال سياج البشر .. ينضـــم الينا. يتبعه ثانى وثالث ورابع

وخامس .. وكل منهم تسبقه صيحته :

ـــ سنحترق معك .

نمرود تتملكه هستيريا غريبة .. يقبض بيده على شعلة يقذف بها الى الاخشاب .. ويصرخ :

ـــ ليحترق مع هذا الملعون نحماء لعنته ..

النار تاكل الخشب .. ترتفع السنتها .. والشباب يضمنى .. يقينى صهدها .. فى تلك اللحظـــة ومع كل هذا الحب تمنيت الخلاص لنفسى .. لكل هـــؤلاء تزقرقت داخلى الأمانى ان تنطفىء النـــيران .. وان اكمـــل ما بدانه .. انقذ الناس من خيوط العنكبوت الذى يعشش على اقدارهم .. احطم معهم كل الآلهة التى عاشت فى وجدانهم .

بدات السنة للنار تزحف نحونا .. صريعها احد الشباب وهو يحاول اطفائها .. مناع يستجدى :

ـــ اطفىء النار يا مولاى .

قلت فى جزع ويأس :

ـــ لست الهها يا مناع .

ـــ ابدا فانت هو .. وهو انت !!

مناع يضمنى .. يحيطنى .. يقينى من الســـنة النار التى احاطتنا من كل جانب .. انه يقتل نفسه .. يصرعها .. صرخت فيه ان يبتعد ازداد التصـــاقا .. النار تقترب .. بدات اشعر بلهيبها صـــوت الحريق يعـــوى وانا ازعق :

ـــ ايتها السماء ابكى دما لما فعله المتخلف بالعقل .

احتضنت مناع .. اغمضت عينى .. استرسلت دموعى اســـتسلمت للمح النار .. للموت وهو يزغرد .. موت لحظات كانها دهر .. احسست بعدها بقطـــرات من الماء فوق وجهى .. فـــوق راسى .. فتحت عينى لارى مناعا يرتجف .. والســـماء تمطـــر .. والنار وقـــد اخمدتهـــا الأمطار .. وصيحات الناس :

ـــ نوح الاله ارسلها مطرا مدرارا ..

والبشر .. كل البشر .. كل البشر حولى ســـجدا ونمرود ورجـــال الدين يطلبون منى .. من المهم الرحمة والمغفرة والتوبة !!

* * *

صـــــدر للمـــؤلف

● حائط الوهـــم	مجموعة قصصية
● رجل داخل مثلث	روايـــة
● الحقيقة الضـــائعة	روايـــة
● طربوش الزعيـــم	مجموعة قصصية
● اثنان فى حجرة مغلقة	روايـــة
● على جناح طائر جريح	روايـــة
● بصـــمات فوق المـــاء	روايـــة
● الســـتر المســـتحيلة	مجموعة قصصية
● القـــرد والاســـورة	روايـــة
● مسافة .. فى عقل رجل	روايـــة

تحـت الطبـــع

- عـــلاء والصـــباح
- مسافر الى قلب عذراء

أنا واحد من كتاب القصة العماليق الصعاليك ! !

أعيش فى عصر التعاويذ والمـلائك والشيطان •

ـ فى زمن بات الانس أشياء ماتت فيهم نبضة الأحياء •

ـ بدأت رحلتى نحو الحقيقة فى كتابى هـذا منذ ثمان سنوات تحت عنوان « محاكمة الاله » قبل أن أعنونه بـ « مسافة فى عقل رجل » فكنت كفراشة تحوم حول ضوء •• قتال •• قتال •

ـ الناس تصدق ما أكتب رغم أننا فى عصر الأكاذيب ! !

ـ لن أدعى المعجزة أو الوحى أو النبوة بما خط قلمى لأن عصرى ليس عصر الأنبياء •

ـ لكنها صرخة يدونها التاريخ لى أشهدها على الخليقة •

ـ أنه فى عصر التماليـك والمحاذير أطلق كاتب صرخة قبـل ميلادها بمائة عام وربما أكثر ! ! يمزق بها عن الحقيقة سربال الخرافة لتظهر أمام الأعين سافرة بكل دقائقها وأسرارها •

ـ أملى بعدها أن تتحطم سفين الأوهام •• أن تختفى أشباح النهار •• أن تتساقط الدمى المرتجفة على قارعة الطريق لتفرد مكانا للعماليق الصـعاليك ! !

علاء حامد